بسم الله الرحمن الرحيم

جامـــعــة الـــخـرطــوم
كلـــــيــة الآداب
قسـم اللغـة الـعربية

بحـــث مقدم لنيـــل درجة الدكتـــوراة

بعنـــوان

القيم الأخلاقيــة في الشعر العربي الجاهلي

اعداد : الطالبة انتصار مهدي عبدالله

إشراف : الدكتور الحبر يوسف نور الدائم

٢٠٠٨م

الإهـــــــــداء

أُناس اذا ما الدهر أظْلَم وجهه فأيديهم بيض وأوجهم زهر
يصونون أحساباً ومجداً مؤَثلاً ببذل أكُف دونها المزن والبحر
أضاءت لهم أحسابهم فَتَضاءلَتْ لنورهم الشمس المنيرة والبدر
فلو لامس الصخْر الأصم أكُفهم لفاضت ينَابيع الندى ذلك الصخْر
ولو كان في الأرض البسيطة منهم لمخْتبط عاف لما عرف الفَقْر
شكرت لكم آلاءكم وبلاءكم وما ضاع معروف يكافئه شكر

إلى والـــدتي...

إلى والـــد ي...

إلى زوجـــي ورفيـــق دربي...

إلى أخـــي...

إلى أخـــواتي...

إلى كـــل من حـــولي...

شكـــر وتقـــدير

الشكر كل الشكر بشتى معانيه للأستاذ العلامة الدكتور الحبر يوسف نور الدائم الذي أشرف على هذا البحث فقد كان لي نعم الأستاذ والمرشد وكان الناصح والموجه. جزاه الله عني كل خير.

والشكر لكل من كان عوناً لي في وصولي إلى هذا المستوى.

واخص بالشكرالعاملين في مكتبة جامعة ام درمان الأسلامية

والشكر لله من قبل ومن بعد فسبحان الذي سخر لنا هذا ومـا كنـا لـه مقرنين.

محتـويات البـحث

المقـدمـة

نال الأدب الجاهلي اهتمام الكثير من الباحثين في عصرنا الحاضر كما هـو مسار اهتمام الكثير منذ القدم وسوف يظل إلى الأبد وذلك لما فيه من قيم فاضـلة وذوق رفيع وارهاف وشمولية لكل مناحي الحياة منذ العصور الأولى إلى عصرنا هذا.

كان الهدف من هذا البحث اكتشاف وتذكير لما في العصر الجاهلي من قيم فاضلة متمثلة في شعره الذي كان يمثل مرأة الحياة برمتها في ذاك العصر.

فقد درج الشعراء على تصوير أحوال مجتمعهم في أشعارهم وذلك لوثوق العلاقة بينهم وبين مجتمعهم.

فعكسوا من خلال أشعارهم عاداتهم وأعراضهم وآمالهم وصورا الحياة مـن مختلف جوانبها من فقرها وحربها وسلمها وخيرها وشرها ولهوها وجدها وفرحها وحزنها.

والأدب بشقيه الشعر والنثر هو أداء لتصوير أحوال المجتمعات لأنه يحرك الوجدان ويعبر عن احاسيس داخلية نتيجة اقوال وافعـال تـنعكس فـى احـوال المجتمعات والأعراف والتقاليد ويتأثر بالبيئة والمكان والزمان.

وأحياناً تدخل المبالغة والخيال في الشعر ولكن القصد الأساس هو ابراز الـسمات الأساسية للحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية.

قصدت في موضوعي لهذا البحث بعث القيم الفاضلة الجميلة التي تؤمن حياة الفرد والمجتمع وتهذبه وتسوقه إلى طريق الحق والخير وعنيت بهذه القـيم فـي العصر الجاهلي. لتذكير الناس بأن هذه القيم لم ترتبط بدين معين أو بزمن معـين فقد كان العصر الجاهلي جاهلياً لجهله بأمور كثيرة ولكن مع جهله فهو كان يكتب قيماً جميلة وصفات كريمة وكان منهم. أعلام اشتهروا بكثير من هذه القيم فحـاتم

يمثل الكرم وعنترة كان يمثل قمة الشجاعة وزهير قمة الحكمة وكثير موجود في داخل البحث.

بالنسبة لمصادرالبحث فهى المصنفات التى اهتمت بموضوع الأخلاق من غربيين وعرب مسلمين وبعض من الرسائل التى تناولت هذا الموضوع واهم الكتب التى جمعت اشعار القيم الاخلاقية وهى الحماسة بأنواعها والأغاني والشعر والشعراء وجزء من الدوريات .

فقد صدرت هذا البحث بعنوان يشد انتباه القراء والمتطلعين ونقاد وكان عنوانه:

القيم الأخلاقية في الشعر العرب الجاهلي

كان تحليلي يقوم على وصف القيمة في صورة شعرية وتحليلها وتوضيحها وتباين الصور الجمالية فيها.

تم تقسيم البحث إلى تمهيد وخمسة فصول وخاتمة. يحتوى كل فصل على مباحث. احتوى الفصل الأول على اربعة مباحث - مقدمة للتعريف بالأخلاق والأخلاق عند مفكري الغرب والمبحث الثالث الأخلاق عند العرب الاسلاميين. ومقدمة وسرد لتاريخ الجزيرة العربية من موقع جغرافي ودين ومجتمع واقتصاد وأدب.

قسم الفصل الثاني إلى ثلاثة مباحث وهى المبحث الأول مقدمة للقيم والثاني الكرم والثالث الشجاعة والاقدام .

احتوى الفصل الثالث على أربعة قيم وهي المبحث الأول الحكم والأمثال والثاني والعفة والغيرة والثالث رعاية الجار والمبحث الرابع صلة الرحم.

وتضمن الفصل الرابع قيم الوفاء بالوعد والإيمان بالقضاء والقدر والحلم والعدل.

وختمت الفصول بالخضرمة ورأي النقاد فيها والمبحث الثاني أثر الإسلام في حياة العرب وثم نماذج شعرية لشعراء العصر الجاهلي بعد الإسلام ثم الخاتمة ومصادر البحث.

المبحث الأول

مقدمة ماهية علم الأخلاق ومسائله

يحكم على بعض الأعمال بأنها خير، وعلي بعضها بأنها شر فنقول: العدل خير والظلم شر، وأداء الدين إلى صاحبه خير، وإنكار المدين ما عليه شر، وهـذا الحكم متداول بين الناس رفيعهم ووضيعهم، عالمهم وجاهلهم.

وعلم الأخلاق علم يوضح معني الخير والشر، ويبين ما ينبغـي أن يكـون عليه معاملة الناس بعضهم بعضاً، ويشرح الغاية التي ينبغي أن يقصدها النـاس في أعمالهم، وينير السبيل لعمل ما ينبغي عمله.

ونخلص إلى أن موضوع علم الأخلاق هي الأعمال التـي صـدرت مـن العامل عن عمد واختيار، يعلم صاحبها وقت عملها ماذا يعمل، وكـذلك الأعمـال التي صدرت لا عن إرادة ولكن كان يمكن تجنب وقوعهـا عنـدما كـان مريـداً مختاراً، فهذان النوعان يحكم عليهما بالخير أو الشر وأما ما يصدر لا عن إرادة وشعور ولا يمكن تجنبه في حالة الاختيار، فليس من موضوع علم الأخلاق .

وهنا كثيراً ما يعرض هذا السؤال وهو: هل إرادة الإنسان حرة حتى يكون مسئولاً عن عمله؟ هذه المسألة من المسائل المشكلة التي طال فيها الجـدل قـديماً وحديثاً، فيذهب بعض الباحثين إلى أن الإنسان مجبر وليس حر الإرادة ، ذلك لأن إرادة الإنسان تتأثر بشيئين: الوراثة والبيئة، فهو يرث من أبويـه ميـولاً خيـرة وميولاً شريرة، وكذلك تؤثر فيه البيئة التي حوله من بيت ومدرسـة وأصـدقاء

وكتب ونحو ذلك، فمن نشأ من أبوين مجرمين وورث منهما الميل إلى الإجـرام، وشب بين مجرمين وسمع أحاديثهم كان مجرماً لا محالة. ولم يكن حـر الإرادة فيما يفعل، وليس في استطاعته إلاّ أن يكون مجرماً، وأنقله من بيئته السيئة إلـى بيئة خيرة، ولكن في هذا الرأي غلواً، فإن الإرادة – وان كانت تتـأثر بالوراثـة والبيئة إلى درجة كبيرة – فإنها لا تفقد حريتها، وأوضح دليل على ذلك ما نـشعر به في أنفسنا من أننا أحرار في الاختيار، وأننا نستطيع أن نعمل الشئ وألا نعمله، فمن كذب شعر من نفسه بأنه كان يستطيع ألا يكذب، ومن أجل هذا ينـدم علـى كذبته، ولو كان كذبه محتماً عليه ما ندم – ولولا أن إرادة الانسان حرة في اختيار الخير والشر لما كان هناك معنى للتعاليم الأخلاقية، ولكان الأمـر بفعـل الخيـر والنهي عن الشر ضرباً من العبث، ولما كان هناك معنى للثواب والعقاب والمدح والذم.

وهناك نوعان من المسئولية: مسئولية قانونية، ومسئولية أخلاقية، فالانسان إذا خالف قانون البلاد كان مسئولاً أمام القضاء، وعوقب من أجل مخالفتـه، واذا خالف أوامر الأخلاق كان مسئولاً أمام الله وأمام ضميره، والمـسئولية الأخلاقيـة أوسع دائرة من المسئولية القانونية.(1)

(١) د. احمد أمين الأخلاق – ص ٥، الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٣١م مطبعة دار الكتب المصرية .

الأخلاق في اللغة والاصطلاح

الأخلاق في اللغة جمع خُلق، والخُلقُ أسم لسجية الإنسان وطبيعته التي خُلِق عليها، فقد ذكر ابن منظور: الخُلُقُ هو الدين والطبع والسجية[1] وهو مأخوذة من مادة (خ ل ق) الدالة على تقدير الشئ.

يقول ابن فارس: ومن هذا المعنى – أي تقدير الشئ – الخُلُقُ، وهو السجية لأن صاحبه قد قُدر عليه، يقال فلان خليق بكذا – أي قادر عليـه وجـدير بـه - والخَلاقُ: النصيب لأنه قد قُدر لكل أحد نصيبه[2] .ويضيف الراغب الاصفهاني أن الخَلاق أيضاً يشار به إلى ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة، وأورد الراغب أيـضاً في [المفردات] : الخَلْقُ والخُلْقُ والخُلُق في الأصل معناها واحد لكن خُص الخُلُقُ بالقوى والسجايا المدركة بالبصيرة؛ وحقيقة الخُلُق عنده هو ما يأخذ بـه الإنـسان نفسه من الآداب، سمي بذلك لأنه يصير كالخِلقة فيه.[3] ويرى ابـن منظـور ان حقيقة الأمر ماثلة في كون صورة الإنسان الباطنة وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيهـا ، ولهـا – أي

---

[1] ابن منظور / لسان العرب " مادة خلق " ص ١٤٠ (دار صادر بيروت للطباعة والنشر – طبعة جديدة ومحققة ج5 لبنان ص.ب.١٠ بيروت ٢٠٠٠.

[2] ابن فارس ، مقاييس اللغة ٢١٤/٢ تحقيق عبدالسلام محمد هارون.

[3] الراغب الاصفهاني : المفردات ، ص ١٤٨ اعداد الدكتور نظمي خليل ابو العطا.

للصورتين – أوصاف حسنة وقبيحة ، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة.(1)

وذات المعني الذي ذهب إليه ابن منظور نجده عند الطاهر بن عاشـور إذ يقول: (٢) الخُلُق السجية المتمكنة في النفس باعثة على عمل يناسبها من خيـر أو شر، وتشمل طبائع الخير وطبائع الشر ، لذلك لا يعرف أحد من النوعين من اللفظ إلا بقيد يضم إليه فيقال : خُلُق حسن، وفي ضده خُلُق قبيح ، فإذا أُطلق عن التقييد انصرف إلى الخُلُق الحسن.

هي مجموعة القواعد، التي تحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه سـلوكاً، تجاه الاخرين (من طبيعة ومجتمع) يكتسبها الإنسان من انتمائه إلى مجتمع معـين زمان ومكان، كما يكتسبها المجتمع من مصادر متعددة (مطلقه كالدين أو نـسبية كالعرف الاجتماعي أو العقل ....).

وردت لفظة " خُلق " (والجمع أخلاق) في القرآن والحديث وفي معـاجم اللغـة وكتب المصطلحات فضلاً عن المؤلفات الفلسفية. فالقرآن يخاطب الرسول (صلى الله عليه وسلم) " وإنّك لعلّى خُلُق عظِيم" القلم/٤".

---

(1)ابن منظور : لسان العرب " مادة خلق " ص ١٤٠

(2) الطاهر بن عاشور - تفسير التحرير والتنوير (هو محمد الطاهر بن عاشور ولد بتونس عام ١٨٧٩ يعد من كبار مفسري القرآن في العصر الحديث) ج١٩ ص ١٧١ – ١٧٢.

وإلي جانب هذه المعاني يورد صاحب " لسان العرب " معنى يحـدد بـه " ماهية " الخُلق عن طريق المقارنة فيقول " وحقيقته أنه لصورة الإنسان الباطنـة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها، بمنزلة الخَلْق لـصورته الظـاهرة وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة. والثـواب يتعلقـان بأوصـاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة " بعبـارة أخـري " الخلق " للنفس ك " الخِلْقة " كلاهما مجموعة أوصاف. ولكن هل تدخل فـي هـذه الأوصاف تلك التي نسميها " العادة " أو ترجع إلي العادة ؟ هناك عادات جـسيمة ليست من " الخلقة " بل هي طارئة عليها، كنوع مخصوص من الشئ أو طريقـة التثاؤب الخ . فما القول في الأوصاف أو الخصال النفسية التي تدخل فـي معنـى العادة ؟ يجيب صاحب الفروق في اللغة بما يفهم منه أنه " لا فرق بين العـادة و الخلق " في اللغة العربية، وهو يبرز معنى " التقدير " في مادة (خ.ل.ق)، يقول : " الخَلْق في اللغة : التقدير، يقال خلقت الأديم إذا قدرتـه خفـا أو غيـره (....)، الخلُق: العادة التي يعتادها الإنسان ويأخذ بها نفسه علي مقدار بعينه فإن زال عنه إلى غيره قيل: تخلق بغير خلقه. وفي القرآن : " إن هذا إلاّ خُلُقُ الأولين "الشعراء ١٣٧ قال الفراء : يريد عادتهما والمخلق: التام الحـسن؛ لأنـه قـدر تقـديراً حـسناً، والمتخلق: المعتدل في طباعه. وسمِع بعض الفصحاء كلاماً حسناً فقال: هذا كلام مخلوق. وجميع ذلك يرجع إلى التقدير[1].

[1] أبو هلال العسكري ، الفروق في اللغة ، منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠م – ص ١٢٩.

ويميز صاحب " كشاف اصطلاحات الفنون " بين المعني اللغوي والمعنى الاصطلاحي لكلمة " خلق " فيقول : " الخلق بضمتين وسكون الثاني أيضاً في اللغة : العادة والطبيعة والدين والمروءة، والجمع : الأخلاق. وفي عرف العلماء: ملكة تصدر بها عن النفس الأفعال بسهولة من غير تقدم فكر وروية وتكلف. فغير الراسخ من صفات النفس كغضب الحالم لا يكون خُلقاً . وكذا الراسخ الذي يكون مبدأ للأفعال النفسية بعسر وتأمل كالبخيل إذا حاول الكرم، والكريم إذا قصد بإعطائه الشهرة . وكذا ما تكون لي الفعل والترك علي السواء "(١)

وهذا نفسه ما قرره الجرجاني في تعريفاته، حيث يقول: " الخُلُق عبارة عن هئية للنفس راسخة. تصدر عنها الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة عقلاً وشرعاً بسهولة سميت الهيئة خُلقاً حسناً، وإن كان الصادر منها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً " ويضيف: " وإنما قلنا إنه هيئة راسخة لأن من يصدر عنه بذل المال على الندور، بحالة عارضة، لا يقال: خلُقه السخاء ما لم يثبت ذلك نفسه، وكذاك من تكلف السكوت عند الغضب بجهد أو روية لا يقال: خلقه الحلم.

(1) التهانوي، محمد علي، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون – بيروت ١٩٩٦م ط١ ص ١٠٦

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المـال أو لمانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو رياء " [1]

فكرتان يتحدد بهما معني" الخُلق وجمعه" أخلاق" : الأولـى " الرسـوخ " بمعنى الثبات والدوام. والثانية التلقائية (هيئة راسخة من غير تكلف). والملاحـظ أن " الخلق " بهذا المعنى غير" السلوك " فهو " ملكة "، أو هيئـة فـي الـنفس " تصدر عنها الأفعال. فهي منبع السلوك. وهذا شئ لابد مـن استحـضاره عنـد دراستنا للنصوص القديمة، لأننا في لغتنا المعاصرة لا نقيم – في الغالـب هـذا التمييز بين الخلاق والسلوك. ذلك لأن " السلوك " في اللغة من سلك طريقاً، وسلك الخيط في الإبرة، ومعناه الدخول والإدخال. ثم نُقل مع المتصوفة خاصـة علـى معنى" السعي إلى الله، وقوام هذا السعي " تهذيب الأخلاق " وإذن فالـسلوك فـي الحقل الثقافي العربي القديم هو ممارسة الفعل وليس الفعل ذاتـه، وهـذا خـلاف المعني الذي نفهمه من الكلمة اليوم والذي هو ترجمة comportment الفرنسية و behavior الإنجليزية. وقد نص الجرجاني صراحة على الفرق بين الخُلق والفعل فقال: " وليس الخُلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلُقه السخاء ولا يبـذل، إمـا لفقد المال أو لمانع" ، فالكرم خلق للنفس أما إكرام هذا الضيف أو ذاك فهو سلوك

---

[1] الدكتور محمد عابد الجابر - العقل الأخلاقي العربي ، ص ٣٢ مركز دراسات الوحدة العربية ، (دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية ط١ ٢٠٠١م).

والفرق هو أن الكرم صفة راسخة في النفس، أما سلوك مسلك الكريم فهـو فعـل صادر عن تلك الصفة[1]

وما دمنا قد انطلقنا في التحديدات السابقة من الدلالـة اللغويـة فلنعتبرهـا مؤشرات تؤشر نحو نظام القيم الخاص بالموروث العربـي " الخـالص " ولـنقم بإطلالة على ما في الموروثات الأخرى، الصفات التي تكون عليها النفس، حـسنة كانت أو قبيحة، كما يفيد معنى الدين والعادة.

فالملاحظ العموم، ولا معنى الدين والعادة، بل كثيراً ما تأتي كلمة " خلـق" وقـد عطفت عليها صفة من ذلك مثلاً ما ورد على لسان امرأة قالت للرسول (صلى الله عليه وسلم) عن زوجها : " ما اعتب في خُلق ولا دين، ولكنّى أكره الكفـر فـي الإسلام (البخاري). وواضح أن كلامها يفيد أن " الخُلق " شئ والدين شـئ آخـر وهذا ما يقرره حديث آخر يجعل الدين أعم من الخُلق ، إذ يروى عنه (صـلى الله عليه وسلم) انه قال: " إن لِكُل دِين خُلُقاً وخُلُقُ الإسلام الْحياء" وهناك حديث يميز بين الدين والعقل والخُلق، جاء فيه: " كَرم الرجل دِينُه ، ومروءتُه عقْلُه ، وحسبه خُلُقُه "[2] وحديث آخر يميز بين العقل والورع وحسن الخُلق ، جاء فيه :عن أبـى ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليهوسلم " لاَ عقْلَ كالتدبير ولا ورع كالْكَف ولا

---

(1) العقل الأخلاقي العربي ، ص ٣٣

(2) اخرجه الهيثمي فى مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- للحافظ نور الدين علي بن ابى بكر الهيثمي ج١٠ ص ٢٥١، القاهرةمكتبة القدسي ١٣٥٣ه واخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين مع التلخيص كتاب العلم ج١ص ١٢٣ .

حسب كحسن الْخُلُق "[١] . كما نقرأ في حديث آخر تمييزاً مماثلاً بين " التقوى" و" حسن الخُلق" فقد روي عن النبي (صلى الله عليه وسلم) سئل عن أَكْثر ما يـدخِلُ الناس الْجنةَ فَقَالَ : تَقْوى اللهِ وحسن الْخُلُق "[٢] وحديث آخـر يجعـل " البخـل " خصلة و "سوء الخُلق " خصلة أخرى، ونصه : " خَصلَتَان لا تَجتَمِعان فِي مؤْمِن: الْبخْلُ وسوء الْخُلُق"[٣] . وفي حديث آخر أن النبي (صلى الله عليه وسـلم) سـأله رجل: أي العمل أفضل ؟ فقال: قِلِيل الْكلام وبذْلُ الطعام وسماح وحسن خُلُـق"[٤] فكان " قليل الكلام" و "بذل الطعام " و " السماح" شئ و "حسن الخُلق " شئ آخـر. بينما نقرأ في حديث آخر أن هذه الصفات أو ما في معناه تدخل في " حسن الخُلق " فقد روي ان حسن الخُلق: هو بسطُ الْوجه وبذْلُ الْمعروفِ وكَف الأذَي" . ورد في نفس المعنى تقريباً " إنكم لا تسعون الناس بأموالكم ولكن يسعهم مـنكم بـسطُ الوجه وحسن الخُلق ".[٥]

([1]) اخرجه ابن ماجه فى سننه ٣٧ كتاب الزهد -٢٤ باب الورع والتقوى ج٤ ص١٤١٠حديث رقم ٤٢١٨ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط٢٢ تونس دار سحنون للطباعة والنشر ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م.

([2]) فتح الباري بشرح صحيح البخاري – احمد بن حجر العصقلاني ٧٨- كتاب الأدب ٣٩ باب حسن الخلق والسخاء ج١٠ ص ٤٥٩.

([3])اخرجه الترمزي فى سننه – كتاب البر والصلة ٤١باب ما جاء فى البخيل ج٤ ص ٣٤٣ حديث رقم ١٩٦٢ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط٢ تونس دار سحنون ١٤١٣ه ١٩٩٢م.

([4])اورده الزبيدى فى اتحاف السادة المتقين بشرح احياء علوم الدين ج١٧١/٨ بيروت دار احياء التراث العربى ١٩٩٢م.

([5]) اخرجه الحاكم فى المستدرك على الصحيحين مع التلخيص – كتاب العلم ج١ ص١٢٤طبعة الرياض مكتبة ومطابع النصر الحديثة.

وكذلكم حديث "إذا جاءكم من ترضون دينَه وخُلقَه فأنكِحوه"[١] يفيد أن هناك فرق بين الدين والخُلق.

كيف نفهم هذا الاختلاف، علي مستوى العموم والخصوص، في دلالة لفظ " الخُلق " ؟

واضح أن الخطاب الديني هو خطاب بياني هدفه جعل المعنى مفهوماً لدى مطلق الناس باستعمال الآليات اللغوية البيانية المختلفة، مثل العطف الـذي يكـون الغرض منه تقريب المعنى بربط المفهوم المجرد بمثال يخيل إلى الشخص. ومـع ذلك فإن تكرار ورود عبارتين مثل" حسن الخُلق " و " سـوء الخُلـق " معطوفـاً عليهما ما يدخل عادة في مفهومهما، كالورع بالنسبة للأولـى، والبخـل بالنـسبة للثانية، دليل على أن المجال التداولي العربي، سابق على ظهور المصطلح العلمي، كأن يميز بين " الخُلق " وبين خصال خلقية معينة مثل الـورع والبخـل ! فهـل نستنتج من ذلك أن " الخُلق " هو " الطبع " وما معناه ، وأن " البخل" و "الـورع " خصال مكتسبة ، تحصل بالتطبع والتخَلق ؟

(١) اخرجه البيهقي فى السنن الكبرى – كتاب النكاح ٦٤ باب الترغيب فى التزويج من ذى الدين والخلق ج٧ ص ١٣٢ حديث رقم ١٣٤٨١.

إن ما أورد الراغب الأصفهاني في معنى لفظ " خلق" ما يلقي أضواء على هذه المسالة يقول: وأما الخُلق في الأصل فهو كالخَلْق، كقولهم الشرب والـشرب والصوم والصوم لكن الخُلق يقال في القوي المدركة بالبصيرة .

والخلْق في الهيئات والأشكال والصورة المدركة بالبصر، وجعل الخُلق تارة اسماً للقوى الغريزية ولهذا قال "صلى الله عليه وسلم " فرغ الله من الخَلق والخُلق والرزق والأجل"[١]. وتارة يجعل اسماً للحالة المكتسبة التي يصير بهـا الإنـسان خليقاً أن يفعل شيئاً دون شئ، كمن هو خليق بالغضب لحدة مزاجه، ولهذا خـص حيوان بخُلق في أصل خلقته، كالشجاعة للأسد والجبن للأرنب، والمكر للثعلـب. وجعل الخُلق من الخلاقة وهي الملابسة، وكأنه اسم لما مرن عليه الإنسان من قواه بالعادة. وقد روي " أفضل الأعمال الخلق الحسن" وروي" ما أعطي أحد أفضل من خُلق حسن".

ومع أن الراغب الأصفهاني ينقل عن المراجع الأفلاطونية والأرسطية في الأخلاق فهو يستحضر، في الوقت نفسه، المرجعية الإسلامية، خاصة منها القرآن والحديث، في كل ما ينقل محاولاً التدقيق في الفروق بين المصطلحات بالـصورة التي تسمح باستيعاب مضامين الألفاظ العربية والنصوص الإسلامية. وهكذا : فـ " الطبع أصله من طبع السيف، وهو اتخاذ الصورة المخـصوصة فـي الحديـد،

([١]) اخرجه احمد بن حنبل فى مسنده ج٥ ص ١٩٧، تحقيق د.بدر الدين – موسوعة السنة ط٢ استانبول ١٤١٣ه ١٩٩٢م.

وكذلك الطبيعة، والضريبة اعتباراً بضرب الدراهم، والنحتية اعتبـاراً بالنحتـة، والنجرية اعتباراً بنجر الخشب، والغريزة اعتباراً بما غرز عليه، وكل ذلك اسـم للقوة التي لا سبيل إلى تغييرها، والشيمة اسم للحالة التي عليها الغريـزة اعتبـاراً بالشامة التي أصل الخلقة. والسجاية اسم لما يسجي عليه الإنسان من قولهم: عـين ساجية، أي فاترة خِلقة. وأكثر ما يستعمل ذلك كله فيما لا يمكن تغييـره " وأمـا العادة فاسم لتكرير الفعل أو الانفعال، من عاد يعود، وبها يكمل الخُلـق. ولـيس للعادة فعل إلا تسهيل خروج ما هو بالقوة في الإنسان إلى الفعل. فأما أن تجـذب السجية إلى خلاف ما خلقت له فمحال: السجية فعل الخالق عز وجل والعادة فعـل المخلوق، ولا يبطل فعل المخلوق فعل الخالق.

ويلخص الراغب الأصفهاني ملاحظاته في هذه العبارة قال: "فجعل الخُلـق مرة للهيئة الموجودة في النفس التي يصدر عنها الفعل بلا فكر، وجعل مرة اسـماً للفعل الصادر عنه باسمه. وعلى ذلك أسماء أنواعها نحو العفة والعدالة والشجاعة، فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعاً. وربما تسمى الهيئة باسم، والفعل الصادر عنها باسم، كالسخاء والجود، فإن السخاء اسم للهيئة التي عليها الإنسان، والجود اسـم للفعل الصادر عنها، وإن كان قد سمى كل واحد باسم الآخر من فضله "[1]

هناك إذن ثلاثة وجوه تتحاور لفظ الخُلق استعمالاً. للفظ ":

[1] الراغب الاصفهاني (أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل) ، الذريعة إلي مكارم الشريعة ، تحقيق أبو اليزيد العجمي ، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ، المنصورة ، مصر ١٩٨٧م ص ١١٤.

١. يستعمل اللفظ في معنى " القوة الغريزة " أي "الهيئة الموجودة في النفس التـي يصدر عنها الفعل بلا فكر" وهذا قريب من معنى السجية والطبع caractere .

٢. ويستعمل اسماً للفعل الصادر عن تلك الحالة. وهنا توحيد بين السلوك وبـين " الخلق " دافعه الغريزي.

٣. وقد يستعمل اسماً للهيئة والفعل معاً، مثل العفة والعدالة والشجاعة، " فإن ذلك يقال للهيئة والفعل جميعاً"، ويضيف الراغب الأصفهاني قائلاً: لكن " ربما تـسمى الهيئة باسم، والفعل الصادر عنها باسم، كالسخاء والجود، فإن السخاء اسم للهيئـة التي عليها الإنسان، والجود اسماً للفعل الصادر عنها".

ومن التعريف يمكن تحديد خصائص الأخلاق:

١. المعيارية: أي أنها تحدد للإنسان ما ينبغي أن يكون عليه لا ما هو كائن.
٢. السلوكية أو الطابع العملي: أي أنها تنصب على السلوك .
٣. الاجتماعية: أي انها ذات صفة اجتماعية لا فردية أي أنها جـاءت كحـل لمشكلة الاتصال الحتمي بين الفرد والمجتمع .
٤. تعدد المصادر: أي أن المجتمع يكتسبها من مـصادر متعـددة (الـدين، العرف، العقل)

أهم القضايا التي تناولتها فلسفة الأخلاق

تتناول فلسفة الاخلاق إحدي القيم الثلاث التي تتناولها نظرية القيم (الحق، الخير، الجمال) وهي قيمة الخير، بالتالي فإنها تتناول ذات المشاكل التي تتناولهـا نظرية القيم ولكن علي مستوى الخير فقط، وبناء على هذا فـإن قـضايا فلـسفة الأخلاق هي مشكلة طبيعة القيمة الأخلاقية أو طبيعة الخير، والمقـصود بطبيعـة الشئ تعريفه، وهذه المشكلة يمكن تقسيمها إلى أربعة مشاكل جزئية.

١. الأخلاق ذاتية أو موضوعية

الذاتية لغة اشتقاق من الذات أي النفس واصطلاحاً داخل عقل الإنسان مـن أفكار وأحاسيس وعواطف، عن الوجود المحسوس الذي ما هو إلا ظلال وأشـباح له.

والموضوعية لغة اشتقاق من الموضوع واصطلاحاً ما له وجود مستقل عن وعي الإنسان غير متوقف عليه، وسابق على معرفته كوجود الأجسام المادية.

وذاتية الأخلاق يعني أنها من وضع العقل واختراعه وهو ما قال به عـدداً من الفلاسفة منهم فلاسفة الوجودية في الفلسفة الغربية المعاصرة .

أما موضوعية الأخلاق يعني أن الأخلاق لها وجود مستقل عن العقل الذي يدركها أي أن مصدرها ليس عقل الإنسان بل مصدر (موضوع) خارجه، ويعتبر

أفلاطون أحد رواد القول بموضوعية الأخلاق إذ يرى أن الأخلاق ليست ذهنية لا وجود لها إلا في ذهن الإنسان، بل هي موجودة وجوداً حقيقياً في عالم المثل الذي هو وجود مختلف.

٢. الأخلاق نسبية أو مطلقة

النسبي ما لا يفهم إلا منسوباً إلى مكان معين وزمان معين، وبالتالي يخضع للتغير في المكان والتطور خلال الزمان ونقيضه المطلق أي المطلق عن الوجـود في الزمان والمكان وبالتالي لا يخضع إلى التغيير أو التطور. هنالك من قـال إن الأخلاق نسبية كالسوفسطائية في الفلسفة اليونانية وهنالك من قـال إن الأخـلاق مطلقة كالمثالية الموضوعية ومن أعلامها "أفلاطون" و"هيجل".

٣. ألأخلاق معيارية أم وصفية

المعياري يتعلق بما ينبغي أن يكون، والوصفي ينصب علي ما هو كـائن. وهنالك من يقولون أن الأخلاق وصفية أي تصف السلوك الإنساني كما هو كـائن ومثال لذلك "ليفي برايل" الذي يرى أن الأخلاق وقائع اجتماعية تقبـل الوصـف، وإن لكل شعب أخلاقه الخاصة التي عملت على تحديدها ظروف اجتماعية معينة، أما المدرسة المثالية فترى أن الأخلاق تتعلق بما ينبغي أن يكون.

٤. الأخلاق غاية أم وسيلة إلى غاية أخرى

هنالك من يرى أن الأخلاق مجرد وسيلة إلى غاية أخري، فمذهب المنفعـة يرى أن الفعل يكون خيراً إذا حقق منفعة ويكون شراً إذا أدى إلى ضرر، كما أن هنالك من يرى أن الأخلاق غاية في ذاتها مثل "كـانط" الـذي يـري أن الإرادة الخيرة هي معيار خيرية الفعل والإرادة الخيرة هي إرادة وفقاً لمبـدأ الواجـب لا انتظاراً لمنفعة.[1]

[1] توفيق الطويل - فلسفة الأخلاق ، (ط٤ ١٩٨٥ – ص ٥٣ دار الثقافة للنشر التوزيع الفجالة - القاهرة).

المبحث الثاني

الأخلاق في التفكير الغربي

الأخلاق عند "أفلاطون"(١)

نجد أن "أفلاطون" قد قارع السفسطائيين الذين قالوا إن الأخلاق هي قوانين يصفها المجتمع ثم يوطن أفراده على الخوف منها، وهم يقولون إن الناس يصفون القوانين لأنهم ضعفاء. فهم لو استطاعوا أن يفعلوا ما يرغبون فإنهم لا يلجأون إلى حماية القانون، ولا يسخرونه في الحفاظ علي مصالحهم، فالقوي أقوى من القانون، أما الضعيف فإنه يلوذ إلى القانون كبحاً لجماح قوة الأقوياء، وحفاظاً على مصالحه التي لا يتمكن من حمايتها. ويقال الشئ ذاته عن الصفة التـي هـي فـي نظـر السفسطائيين ستار لقعود همم الضعفاء لأن تحقيق ما يفترض أن تعـف نفوسـهم عنه.

ويؤكد "أفلاطون" أن مرد الأخلاق إلي العقل والطبيعـة ولـيس إلـى مقـولات اجتماعية. وهو يحاول أن يرد على السفسطائيين بلغتهم فيذكرهم بأن الكثرة أقوى من القلة، وما دام الأقوى في عرفهم هو خير من الأضعف، فالكثرة هـي أقـوى بالدليل العقلي من القلة، وخير منها لذا، وجب على القلة أن تنصاع للكثـرة التـي هي أفضل منها.

---

(١) أفلاطون ولد بأثينا وعاش فيها، فيلسوف يوناني تتلمذ على يد سقراط ، من مؤلفاته القوانين وكتاب الجمهورية- انظر الموسوعة العربية الميسره- بيروت دار الجيل للطباعة والنشر ٢٠٠١م ، ج١ ، ص ٢٤٧.

ويتناول "أفلاطون" الفضيلة فيلخصها في مراتب ثلاث: أعلاها الحكمة التي هي فضيلة العقل، وأوسطها الشجاعة التي هي فضيلة الغضبة، وأدناهـا (العفـة) التي هي فضيلة الشهوانية. وهو يرى أن الحكمة هي التي تهيمن علي الفـضيلتين الآخريين، وإنها توجه الشجاعة بحيث تثبت العفة في وجه طغيان الشهوانية، الأمر الذي ينتج عنه توازن في حياة الفرد يسميه أفلاطون بالعدالة. ثم هو يؤكد أن هـذا التوازن في حياة الفرد يؤدي بالضرورة إلى توازن مماثل في حياة المجتمـع لأن الانسان الفاضل هو الذي يحقق التوازن في تعامله مع الآخرين .

ثم إن "أفلاطون" يسلك سلسلة ديالكتيكية أخرى توصل الإنسان إلـى هـذا الوضع من التوازن الذي تهيمن فيه الحكمة وتحقق فيه السعادة. وفي بدايـة هـذه السلسلة نجد الحب محركاً للوثبات الديالكتيكية؛ فهو تعريف "أفلاطون" إشتهاء لغير المتوافر، وحالة غير التوافر هي التي يمكن أن نـسميها بالحرمـان. والمحـروم يحب، فيترك لتحقيق ما اشتهاه بقوة الحب، فإذا ما تحقق له ذلك عنـي بالـصفات الجمالية المتمثلة في مشتهاه؛ فيقوده الحب إلى التعرف على عامة تلـك الـصفات الشاملة فيتوصل إلى أنها ليست أكثر من فيض للنفس العلة دون المعلول، ويقـوده ذلك إلى وثبة أسمى هو عالم الخلود الذي فيه الكمال المطلق الذي ينتظم النفـوس جميعاً ولا تشوبه شائبة. (١)

(1) المجلة الثقافية ، العددان الرابع عشر والخامس عشر ١٩٨٨ – ١٤٠٨هـ . الأخلاق عند ارسطو وافلاطون – ١٤٣- تصدر عن الجامعة الأردنية ، سليم ساكت المعاني ، وكالة الإنباء الأردنية.

الأخلاق عند "أرسطو"[1]

أما " أرسطو" فيقول: إن الأخلاق ليست من صنع الطبيعة، ولا هـي مـن صنع العقل، بل هي مقولات مجتمعية توضع بناء علي التجارب الجزئية، وتتكامل حتي تنتظم الحياة كلها. وهو يري أن البحث في الأخلاق هو بحث نسبي يتحـدد بطبيعة المجال الذي هو قيد البحث؛ فينتظر أن يطلب إلـى الرياضـي أن يـاتي باستدلالات عاطفية علي نظرياته، بينما لا يجوز أن يطالـب الخطبـاء بالإتيـان باستدلالات دقيقة على ما يذهبون إليه. فلكل مقام مقال، ولكل مسألة خصوصياتها.

و يرى أرسطو في هذا العالم العلوي أن الحكمة قمة كل شئ ويراها لـب السعادة وصنوها. أما السياسة التي أوصلت أرسطو إلى هذه الأعالي الرومانـسية فهي قائمة على أركان من أهمها "العدالة". وليس للعدالة عند أرسطو شكل واحـد؛ فمن أشكالها "العدالة التميزية" التي تحتم منحي كل فرد ما يستحقه من تشريف أو تكريم، ومنها العدالة الاصلاحية أو القضائية التي تحتم أن يوقف القضاء المـسئ عند حده، وأن يرد الحق إلى نصابه؛ ثم هنالك العدالة التي يسميها الإنصاف، وهي التي تحتم الخروج علي حرفية القانون عندما يترتـب عليهـا حيـف أو مـساس بالوجدان، فيصار عندها إلى العدالة المطلقة التي تعادل ما سماه اللاحقـون مـن الفلاسفة "بالقانون الطبيعي". ولعل هذه العدالة الأخيرة هي صلة الوصل ما بـين

([1]) أرسطو فيلسوف يوناني تتلمذ علي يد أفلاطون، من مؤلفاته كتاب التحليلات ومن كتبه في العلم الطبيعي السماع الطبيعي – الموسوعة العربية الميسر، ج١، ص ١٦٥.

السياسة الاجتماعية، وعالم روحانية الحكمة المتصل بالسمو الالهي. وهي صـلة لغوية في طابعها غير متجانسة مع المنطقية المادية التـي تتمثـل فـي "العدالـة التميزية" أو "العدالة القضائية" .

ويري " أرسطو " أن كلاً من هذه الضرورات هي مناط اهتمام فـن مـن الفنون، أو علم من العلوم. فالصحة مناط اهتمام الطب، والنـصر منـاط اهتمـام العلوم العسكرية، ثم إن هنالك فنوناً أو علوماً متخصصة في أهـدافها هـي أقـل شرفاً من الفنون أو العلوم العامة لأنها مسخرة في خدمتها مـن جهـة ولأنهـا ، بالتالي، ذات وظيفة أدنى في تحقيق السعادة .

وهكذا نلاحظ أن "أفلاطون" و"أرسطو" يختلفان في نقطة البداية، فيختلفـان في مسار مناقشاتهما للفكر الاخلاقي. فيري "أفلاطون" أن مسألة الأخلاق تعتمـد على جدل متصاعد يبدأ من بدهيات قوامها أن كل إنسان يجب أن يـأتي الخيـر، وأنه لا يختار الشر راغباً فيه، وهو يتفق هنا مع سقراط الذي علـم تلاميـذه أن المعرفة تؤدى بالضرورة إلى الخُلق القويم المتمثل في إتيان أفعال، وإن الجهل أو المعرفة الناقصة يقودان الإنسان إلى الإتيان بالأفعال الـشريرة، وأن المـرء لـو اكتملت معرفته لاتصفت أعماله بالفضيلة [1].

([1]) المجلة الثقافية ، العددان الرابع عشر ووالخامس عشر ، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م ص ١٤٤.

الأخلاق عند "جالينوس[1]"

كان "جالينوس" في الطب أمة وحده، لم يعرف الطب القديم نظيـراً لـه غير سلفه "أبقراط". أما بعده فالجميع عالة عليه إلى العصر الحـديث. علـى أن "جالينوس" لم يهتم بالطب وحده بل كان له اهتمـام بـالعلوم الفلـسفية الأخـري وبخاصة الأخلاق. وفي هذا المجال كان أفلاطوني الاتجاه. وقد فضل "أفلاطـون" لأنه وجد آراءه في الاخلاق أقرب إلى طب أبقراط من آراء "أرسطو". ومن هنـا أخذ على عاتقه ربط نظرية "أفلاطون" في الأخلاق بالطب فوضع لها أساساً علمياً من فيزيولوجيا عصره وهي نفس الفيزيولوجيا التي أسس عليها "أبقراط "صـناعة الطب .

قام "جالينوس" بتطوير هذه النظرية فجعل منها أساساً نظريته في الطب كما شيد عليها ما يمكن وصفه بأنه " فيزيولوجيا الأخلاق"، وهكذا قال بنظرية طبيـة ترجع جميع الأمراض إلى اختلال توازن الأخلاط، فنظر إلى الشفاء بوصفه إعادة هذا التوازن، بواسطة " الاستفراغ " أي التخلص من " فضلات " هـذه الأخـلاط: بالقئ أو بالاسهال أو بالفصد والنزيف. على أن أهم ما أضافه جالينوس إلي نظرية الأخلاط الأربعة هو نظريته في الأمزجة التي شيدها علي نظرية الكيفيات الأربع:

([1]) جالينوس Galenus galien ، ولد سنة ١٣١ بعد الميلاد في مدينة فرغام Pergame الصغري حيث بدأ دراستة ، لينتقل بعد ذلك إلي قبرس وفلسطين ثم إلي الاسكندرية حيث أقام أعواماً للدراسة ليعود بعدها إلي مدينته ليمارس الطب هناك قبل أن يصبح طبيب البلاط في روما .كان جالينوس بحق أكبر الأطباء بعد أبقراط وألف كثيراً في جميع فروع الطب . وقد نقلت كتبه إلي العربية ، أنظر في ابن أبي أصيبعة.

اليبوسة والرطوبة والحرارة والبرودة التي جعل منها جوهر الأشياء، والمـزاج، والأبدان، والأدوية، وغيرها، يتحدد من اختلاف درجة وجود هذه الكيفيات فيهـا. أضف إلى ذلك العوامل الخارجية مثل الإقليم والمناخ وفصول السنة والعمر الـخ، وهي كلها تتدخل في تشكيل المزاج. وهكذا صار " المـزاج " بمثابـة محـصلة التوازن، أو اختلاله، على صعيد الأعضاء، كما على صعيد الإنـسان والمجتمـع ككل. لقد تحولت نظرية المزاج، عند جالينوس وبعده، إلى نظرية أنثروبولوجيـة في تصنيف البشر حسب أمزجتهم وأخلاقهم، مما أعطى لهذه النظرية بعداً سلوكياً، أخلاقياً اجتماعياً وسياسياً[١]

علي أساس هذه النظرة الفيزيولوجية للإنسان شيد "جلينوس" نظريـة فـي الأخلاق عرضها في عدد من الكتب، ترجم منها إلي العربية – حسب مـا ذكـره حنين بن اسحق[٢]- كتابه " الأخلاق " وهو أربع مقالات " وغرضه فيها أن يصف الأخلاق وأسبابها ودلائلها ومداواتها[٣]. وكتابه " كيف يتعـرف الإنـسان ذنوبـه وعيوبه " (مقالتان ترجم حنين بن اسحق واحدة منها والأخرى لم يجدها)، وكتاب "

---

(1) سارتون . جورج . تاريخ العلم . ترجمة حداد وآخرين . دار المعارف . القاهرة ١٩٥٩ ج٢ ص ٢٢٢.

(2) رسالة حنين بن اسحق الي علي بن يحي في ذكر ما ترجم من كتب جالينوس بعلمه وبعض ما لم يترجم أدرجها عبد الرحمن بدوي في كتابه: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب . المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١م ص ١٤٩.

(3) نقل كتاب الأخلاق لجالينوس إلي العربية حبيش تلميذ حنين بن اسحق (الفهرست . فلوجل . ص ٢٩١) .

في صرف الاغتمام " (مقالة واحدة كتبها لرجل سأله ما باله لم يره اغـتم قـط ، فوصف له السبب في ذلك : "بماذا يجب الاغتمام وبماذا لا يجب "، وكتاب " فـي أن الأخيار من الناس قد ينتفعون بأعدائهم (مقالة واحدة)، وكتاب " فـي أن قـوى النفس تابعة لمزاج البدن" (مقالة واحدة) هذا إضافة إلى كتب أخري لأفلاطون منها على الخصوص " جوامع كتاب أفلاطون في السياسة (مختـصر الجمهوريـة) . ويضيف حنين بن اسحق قائلاً: " وليس له من الكتب التي نحا فيها نحـو فلـسفة أرسطو سوي كتاب "المحرك الأول الذي لا يتحرك"، ولـه كتـب أخـرى فـي المنطق"[١]، أما كتبه الطبية وهي الأهم فأكثر من أن تُحصي[٢].

تقوم نظرية "جالينوس" في الأخلاق علـى القـول بتبعيـة قـوى الـنفس (الشهوانية والغضبة والعاقلة) للمزاج. ويحتج لصحة ذلك بما هـو مـشاهد فـي الأطفال الصغار، الذي لم يتلقوا بعد تدريباً ولا تعليماً، وإنما يتصرفون حسب مـا تقتضيه طبيعة البدن فيهم. وهكذا يؤكد أن معرفتنا " أخلاق أفعال النفس وانفعالاتها " كما تظهر في الصبيان. راجعة إلي ما نشاهده من "أن منهم من نجـده جبـاراً، ومنهم جريئاً، ومنهم شرها، ومنهم خلاف ذلك، ومنهم وقحاً ومنهم حيياً" ، وهـذا يعني أن " قوي النفس الثلاث" وأجزائها الثلاثة في الصبيان. (هي) بالطبع مختلفة.

([1]) تاريخ العلم ص ٢٩٢.

([2]) انظر لائحة ما ترجم منها إلي العربية في المرجع نفسه .

أو أن طبيعة النفس ليست لكلهم واحدة بعينها وأعني بالطبيعة: الجوهر (في مقابل العرض).

فجواهر نفوس الصبيان مختلفة بقدر اختلاف أفعال وانفعالاتها ولذلك هـي مختلفة في قواها تابعة للمزاج ونحن نسمي هذه القوي حسب ميل مـزاج الـنفس ككل إلى اشتهاء أشياء بعينها: " فالمشتهي للحق والعلم والتعليم والفهـم والحفـظ والاشياء الجميلة: فهو جزء النفس المسمى على جهة العادة بالفكري. أما المشتهي للجرأة والغلبة والقهر والرئاسة والمدح والكرامة فهـو الجـزء الغـضبي، وأمـا المشتهي للتلذذ بالأكل والشرب والجماع فهو الجزء الشهواني. وليس لواحدة مـن هذه الأنفس الثلاث ما للأخرى. والشهوانية في الكبد، والغضبية في القلب والفكرية في الدماغ[١]

إذا كانت النفس تابعة للمزاج، والمزاج هو نتيجة الأخلاط، والأخلاط ترجع إلـى البدن فهل معنى ذلك أن النفس تفنى بفناء البدن ؟ يجيب "جالينوس": أما "أفلاطون" فقد قنع بأن النفس الفكرية وحدها غير مائتة، وأنا لا أحكم بأنها غيـر مائتـة ولا بأنها مائتة"، ثم يأخذ في شرح وجهة نظره فيلاحظ أنه إذا كان جوهر النفس مزاجاً ما من هذه الكيفيات الأربعة فالنفس الفكرية مائتة، وهي مزاج ما للدماغ. فقـوي النفس توابع للمزاج الذي لجوهر النفس " أما إذا قلنا مـع "أفلاطـون" إن الـنفس

([1]) رسائل لجالينوس . من مقالة لجالينوس في أن قوي النفس توابع لمزاج البدن . نفس المرجع . ص ١٨٣.

العاقلة خالدة غير فانية، وكان الموت، علي رأيه هو نفسه إنمـا يكـون بمفارقـة النفس للبدن ، " فما بال استفراغ الدم الكثير وشرب السم يفرق بينهما وبين البدن؟ وكيف نفهم كون النفس العاقلة تتأثر ببعض المواد التي تدخل البدن إلى درجة تفقد معها جوهرها " فالخمر يخْرج من استعمل منه كثيراً إلى الرعونة وقول وعمل ما لولاه ما قاله وما عمله! وأما من استعمل من هذا الشراب بقدر الحاجة فهو ينفـع في الهضم والإنضاج وتوليد الدم ويخرج من الحزن والهم إلى المـسرة ! وإنمـا يفعل هذا وذاك بتوسط مزاج البدن "، فكيف نفسر هذا وذاك مع القول بأن الـنفس جوهر مستقل عن البدن، خالد لا يفنى ؟!

المبحث الثالث

الأخلاق في التفكير العربي الإسلامي

أنبنا سابقاً عن فلسفة الأخلاق عند قدماء الغربيين، ونريد أن نعقب الحديث عن فلسفة الأخلاق في التفكير العربي في عصر الاسلام، محاولين الكشف عـن أهم مقوماتها، والإبانة عن وجوه الأصالة فيها.

وقد اتفق جمهرة مفكري العرب على اعتبار الرذائل امراضاً نفسية تتطلب العلاج، ومن هنا بدأ وجه الشبه بين علم الأخلاق وعلم الطب، لأنه يعالج الجانب الروحي في طبائع البشر، ومن أجل هذا كان علم الأخلاق صناعة تستهدف علاج الأمراض وحفظ الصحة، وغايته تحقيق السعادة، وهكذا بدأ علم الاخلاق فرعاً من الحكمة العملية يتناول بالدراسة (الفضائل وكيفية اقتنائها لتتحلـي الـنفس بهـا، والرذائل وكيفية توقيها لتتخلي عنها) فيما قال حاجي خليفة نقلا عن ابن صـدر الدين الشرواني المتوفي عام ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧ م.

ومن مفكري العرب من ذهب إلى أن الخلق مغروز فـي طبـائع البـشر، ومنهم من رأى أن من الأخلاق ما يكون فطرياً طبيعياً ثابتاً لا يتغيـر، وبالتـالي تكون وظيفة الأخلاق وصف السلوك وليس هدايته وتقويمـه، ومنهـا مـا يجـئ اكتساباً بالتربية والتعليم، وبالتالي يقبل التغير ويتيسر تهذيب الأخـلاق وإصـلاح

النفوس[1]؛ ومن هنا جاء الحديث الشريف: عن أبي هريرة رضي الله عنه قـال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق".[2]

ومفكرو الإسلام على اتفاق في إقامة المبادئ الخلقية علـى أسـاس مـن الإيمان بالله على نحو ما ورد في القرآن الكريم، ليس لله مكان في الأخلاق عنـد "أرسطو" – أكبر فلاسفة الأخلاق قديماً – لأن الله عنده هـو المفهـوم الأعلـى للوجود، أو هو جنس فوق الأجناس! بل أنه يشير في كتابه إلي الآلهـة مـصرحاً بأنهم يعيشون سعداء في غمرة من السرور ... وعلى عكسه كان " كـانط" إمـام الفلسفة الخُلقية الحديثة – أقام مبدأ من الواجب على ثلاث مسلمات هي الاعتقاد في حرية الإرادة وخلود النفس ووجود الله. وهي المسلمات التي كان قد أنكر إمكـان التدليل عليها عقلياً! أما مفكرو العرب في العصور الوسطى فقد حرصـوا علـي الاعتقاد في أن الأخلاق لا تستقيم قط بغير الإيمان بالله وصفاته التي صدرت عنها المبادئ، والاعتقاد في خلود الروح وعقبى الدار.

بل ذهبوا إلي أن كمال الأخلاق إنما يكون بالتخلق بـأخلاق الله، لأن فـي الذات الآلهية تجتمع كل الكمالات القصوى، والله تعالى يجمع بين الرحمة والمحبة من ناحية، والقوة والجبروت من ناحية أخرى، في تعادل وتوازن، ومن أجل هـذا

---

(1) توفيق الطويل – فلسفة الاخلاق ص ١٦٠.
Cf. carra de vaux , art . Ajhlak in , Encyclopeadia of Islam

(2) الحديث أخرجه البيهقي في السنن الكبرى – كتاب الشهادات – باب بيان مكارم الأخلاق ، ج١ ، ص ٣٢٣، حديث رقم ٢٠٧٨٢، تحقيق محمد عبد القادر عطا، ط٣ ، بيروت دار الكتب العلمية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

جمع في صفاته الحسنى بين أن يكون رحيماً ودوداً محباً غفوراً، وبين أن يكـون قوياً قادراً قهاراً جباراً منتقماً مذلاً شديد الحساب؛ ولهذا يقول تعالي في سورة النحل آية ٦٠ (ولله المثل الأعلى) وفي سورة الروم آيـة ٢٧ (وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم)، ولما كان الله تعالى يعطي ولا ينتظـر مقـابلاً - والمعطي أكرم من الآخذ والمحتاج – بدأ المثل الأعلى عند مفكري الأخلاق مـن المسلمين قائماً في التضحية والبذل والعطاء .. الذي لا ينتظر صاحبه من ورائـه جزاء ولا شكوراً.[1]

بيان حقيقة الأخلاق عند الغزالي

أوضح الإمام الغزالي في بيان علم الأخلاق وأشاراليه في العديد من كتبه.

قال الغزالي: إن الناس قد تكلموا في حقيقة حسن الخلق وأنه ما هو، وما تعرضوا لحقيقته وإنما تعرضوا لثمرته ثم لم يستوعبوا جميع ثمراته، بل ذكر كل واحد من ثمراته ما خطر له وما كان حاضر في ذهنه ولم يصرفوا الغاية إلى ذكـر حـده وحقيقته المحيطة بجميع ثمراته على التفضيل والاستيعاب، وذلك كقول الحـسن: حسن الخلق بسط الوجه وبذل الندي وكف الأذى. وقـال الواسـطي: هـو أن لا يخاصم من شدة معرفته بالله تعالى. وقال شاه الكرماني: هو كف الأذى وإحتمـال المؤن. وقال بعضهم: هو أن يكون من الناس قريباً وفيما بيـنهم غريبـاً. وقـال

[1] توفيق الطويل ، فلسفة الأخلاق ، ص ١٦١.

الواسطي مرة : هو إرضاء الخلق في السراء والضراء. وقال أبو عثمـان: هـو الرضا عن الله تعالى. وسئل سهل التستري عن حسن الخلق فقال: أدناه الاحتمال وترك للمكافأة والرحمة للظالم والاستغفار له والشفقة عليه. وقال مرة: أن لا يتهم الحق في الرزق ويثق به ويسكن إلى الوفاء بما ضمن فيعطيه ولا يعـصيه فـي جميع الإمور فيما بينه وبينه وفيما بينه وبين الناس. وقال علي رضي الله عنـه: حسن الخلق في ثلاث خصال اجتناب المحارم وطلب الحـلال والتوسـعة علـى العيال. وقال الحسين بن منصور: هو أن لا يؤثر فيك جفاء الخلق بعد مطالعتـك للحق.

فنقول الخلق والخلق عبارتان مستعملتان معا، يقال: فلان حسن الخلـق – أي حسن الباطن والظاهر فيراد بالخلق الصورة الظاهرة، ويراد بالخلق الـصورة الباطنة. وذلك لأن الإنسان مركب من جسد مدرك بالبصر ومن روح ونفس مدرك بالبصيرة. ولكل واحد منهما هيئة وصورة إما قبيحة وإما جميلة . فالنفس المدركة بالبصيرة أعظم قدراً من الجسد المدرك بالبصر. ولذلك عظم الله أمـره باضـافته إليه إذ قال تعالى" آية ٧١-٧٢ .الحجـر (إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخـت فيه من روحي فقعوا له ساجدين). فنبه على أن الجسد منسوب إلى الطين والروح إلى رب العالمين. والمراد بالروح والنفس في هذا المقام واحد، فالخالق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر

ورؤية، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي تصدر خلقاً سيئاً. وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقة السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما إشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير رؤية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقة السخاء والحلم.

فههنا أربعة أمور، أحدها: فعل الجميل والقبيح. والثاني: القدرة عليهما. والثالث: المعرفة بهما. والرابع: هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين، إما الحسن وإما القبيح.

وليس الخلق عبارة عن الفعل، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو المانع، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل إما لباعث أو لرياء وليس هو عبارة عن القوة؛ لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء بل إلى الضدين واحد. وكل إنسان خلق بالفطرة قادر على الإعطاء والإمساك، وذلك لا يوجب خلق البخل لا خلق السخاء وليس عبارة عن المعرفة فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد.[1]

---

[1] د. أحمد أمين ، الأخلاق ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٣١م ، مطبعة دار الكتب المصرية .

بل هو عبارة عن المعنى الرابع وهو الهيئة التي بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل. فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة. وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن العينين دون الأنف والفم والخد بل لابد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر، فكذلك في الباطن أربعة أركان لابد من الحسن في جميعها حتي يتم حسن الخلق. فإذا استوت الأركان الأربعة واعتدلت وتناسبت حصل حسن الخُلق وهو: قوة العلم، وقوة الغضب وقوة الشهوة، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث.

أما قوة العلم فحسنها وصلاحها في أن تصير بحيث يسهل بها درك الفرق بين الصدق والكذب في الأقوال، وبين الحق والباطل في الاعتقادات، وبين الجميل والقبيح في الأفعال، فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكمة والحكمة رأس الأخلاق الحسنة – وهي التي قال الله فيها (ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً) البقرة/٢٦٩.

وأما قوة الغضب: فحسنها في أن يصير انقباضها وانبساطها علي حد ما تقتضيه الحكمة، وكذلك الشهوة حسنها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة الحكمة. أي اشارة العقل والشرع.

وأما قوة العدل فهو ضبط الشهوة والغضب تحت إشارة العقـل والـشرع. فالعقل مثاله مثال الناصح المشير. وقوة العدل هي القدرة، ومثالها مثـال المنفـذ المعنى لإشارة العقل والغضب هو الذي تنفذ فيه الإشارة، ومثاله مثال كلب الصيد فإنه يحتاج إلى أن يؤدب حتي يكون استرساله وتوقفه بحسب الإشارة لا بحـسب هيجان شهوة النفس. والشهوة مثالها مثال الفرس الذي يركب في طلب الصيد فإنه تارة يكون مروضاً مؤدباً وتارة يكون جموحاً. فمن استوت فيـه هـذا الخـصال واعتدلت فهو حسن الخُلق مطلقاً. ومن اعتدل فيه بعضها دون البعض فهو حـسن الخلق بالإضافة إلى ذلك المعنى خاصة كالذي يحسن بعض أجـزاء وجهـه دون بعض. وحسن القوة الغضبية واعتدالها يعبر عنه بالشجاعة. وحسن قوة الـشهوة واعتدالها يعبر عنه بالعفة.

فإن مالت قوة الغضب عن الاعتدال إلى طرف الزيادة تسمى تهـوراً، وإن مالت إلى الغضب والنقصان تسمي جبناً وخوراً. وإن مالت قوة الشهوة إلى طرف الزيادة تسمي شرهاً، وإن مالت إلى النقصان تسمي جموداً .[1]

والمحمود هو الوسط وهو الفضيلة، والطرفان رذيلتان مذموتان. والعدل إذا فات فليس له طرفا زيادة ونقصان بل له ضد واحد ومقابل وهو الجور.

---

[1]احياء علوم الدين ، ج٣/ ص ٥٤ الامام أبي حامد ابن محمد الغزالي ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني القاهرة .

وأما الحكمة فيسمي إفراطها عند الاستعمال في الأغراض الفاسدة خبثاً ، ويـسمي تفريطها بلهاً والوسط هو الذي يختص باسم الحكمة.

فإذن الأخلاق وأصولها أربعة: الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. ونعني بالحكمة حالة للنفس بها يدرَك الصواب من الخطأ في جميع الأفعال الاختياريـة. ونعني بالعدل حالة للنفس وقوة بها تسوس الغضب والشهوة وتحملها علي مقتضى الحكمة وتضبطها في الاسترسال والانقباض علـي حـسب مقتـضاها. ونعنـي بالشجاعة كون قوة الغضب منقادة للعقل في إقدامها وإحجامها. ونعني بالعفة تأدب قوة الشهوة بتأديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأصول الأربعة تصدرالأخلاق الجميلـة كلهـا. إذ مـن اعتدال قوة العقل: يحصل حسن التدبير، وجودة الذهن، وثقابة الـرأي، وإصـابة الظن، والتفطن لدقائق الأعمال وخفايا آفات النفوس. ومن إفراطها: يصدر المكر، والخداع، الدهاء. ومن تفريطها: يصدر البله، والغمارة، والحمـق، والجنـون – والغمارة هي قلة التجربة في الأمور مع سلامة التخيل، فقد يكون الإنسان غمـرا في شئ دون شئ. والفرق بين الحمق والجنون: أن الأحمق مقصوده صحيح ولكن سلوكه الطريق فاسد، فلا تكون له رؤية صحيحة في سلوك الطريق الموصل إلى الغرض، وأما المجنون فإنه يختار ما لا ينبغي أن يختار فيكون أصـل اختيـاره وإيثاره فاسدة.

وأما خلق الشجاعة: فيصدر منه الكرم، والنجدة، والشهامة، وكسر النفس، والاحتمال، والحلم، والثبات، وكظم الغيظ، والوقار، والتودد، وأمثالها، وهي أخلاق محمودة. فأما إفراطها وهو التهور: فيصدر منه الصلف، والبذخ، والاستشاطة، والكبر، والعجب. وأما تفريطها: فيصدر منه المهانة، والذلة، والجزع، والخساسة، وصغر النفس، والانقباض عن تناول الحق الواجب.

وأما خلق العفة: فيصدر منه السخاء، والحياء، والصبر، والمسامحة، والقناعة، والورع، واللطافة، والمساعدة، وقلة الطمع. وأما ميلها إلى الإفراط أو التفريط: فيحصل منه الحرص، والشره، والوقاحة، والخبث، والتبذير، والرياء، والهتكة، والمجانة، والعبث، والملق، والحسد، والشماتة، والتذلل للأغنياء، واستحقار الفقراء، وغير ذلك .

فأمهات محاسن الأخلاق هذه الفضائل الأربعة وهي الحكمة، والشجاعة، والعفة، والعدل. والباقي فروعها.

ولم يبلغ كمال الاعتدال في هذه الأربع إلا رسول الله صلي الله عليه وسلم، والناس بعده متفاوتون في القرب والبعد منه، فكل من قرب منه في هذه الأخلاق فهو قريب من الله تعالى بقدر قربه من رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكل من جمع كمال هذه الأخلاق استحق أن يكون بين الخلق ملكاً مطاعاً، يرجع الخلق

كلهم إليه ويقتدون به في جميع الأفعال، ومن إنفك من هـذه الأخـلاق واتّـصف بأضدادها فإنه قد قرب من الشيطان اللعين، فينبغي أن يبعد، فإن الرسول صـلى الله عليه وسلم لم يبعث إلا ليتمم مكارم الأخلاق [1].

وقد بلغت الفلسفة الأخلاقية الإسلامية كمالها عند مـسكويه مـن ناحيـة، وصوفية الإسلام الذين فلسفوا التجربة الروحية التي عاشوها من ناحيـة أخـري، ولهذا آثرنا أن نقف أيضاً عند هاتين القمتين من قمم التفكير الأخلاقي.

التفكير الاخلاقي عند مسكويه[2]

لمسكويه المتوفي عام ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م كتب كثيـرة بعـضها لا يـزال مخطوطاً، ويعنينا منها كتاب " تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق"، وقـد وضـعه لإيضاح الطريق إلى السلوك المستقيم بعد دراسة علمية تجعل التزام هذا الـسلوك سهلاً ميسوراً لا كلفة فيه ولا مشقة، وقسم الكتاب إلى سبع مقالات تحدث فيها عن النفس وقواها، وأبان أن الفضائل أوساط بين أطراف متباعدة – على النحو الـذي ذهب إليه أرسطو من قبل، والخير عنده هو ما يقصده الكل بالشوق، والناس عنده ثلاث طوائف: قلة خيرة بفطرتها، وكثرة شريرة بطبيعتها لا يصيرون إلى الخيـر

---

(1) إحياء علوم الدين / الامام أبي حامد محمد ابن محمد الغزالي ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني ، القاهرة ج٣، ص ٥٥.

(2) هو أحمد بن محمد بن يعقوب الملقب بمسكويه ، الرازي الأصل الأصفهاني المسكن فيلسوف ومؤرخ وأديب من تصانيفه الفوز الأكبر ، تجارب الأمم، تعاقب الهمم، تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- دار مكتبة الحياة ، بيروت د.ت. – انظر معجم المؤلفين ، عمر رضى كحالة ، ج١، ص ٣٠٣.

أبدا، وطائفة ينتقلون من الخير إلى الشر أو من الشر إلى الخير وفقـاً لأسـاليب التربية ومخالطة الأشرار أو مصاحبة الأخيار.

والخير أصلاً عام مطلق هو عين الموجود الأعظم، وهو مقـصد الأخيـار جميعاً ولكن لكل إنسان خيره الخاص أو سعادته التي تختلف باختلاف قاصـديها، وهي عنده تتحقق بتحصيل السعادة الروحية لا السعادة البدنيـة، ومتـى انـشغل الإنسان بعالم الروح بلغ مرتبة الملائكة عن طريق العشق الإلاهي وحقق السعادة القصوى.(1)

ويري مسكويه إن اجتماع الناس بعضهم ببعض ضرورة طبيعية ومن أجل هذا كانت المحبة بين الناس، وهي قوام الفضائل وأساس الواجبات، بل يؤكد فـي كتاب الفوز الأصغر أن من ينزع إلى التزهد يجور على غيـره، لأنـه يطلـب معاونة الناس ثم لايعاونهم وهذا هو الظلم والعدوان، ولا يبلغ الإنـسان كمالـه إلا بالتضامن والتعاون مع أبناء جنسه، ومن أجل هذا استهدف علم الأخلاق الوقـوف على ما ينبغي أن تكون عليه أخلاق الإنسان في المجتمع، وقد أخطأ أرسطو حين ظن أن الصداقة إمتداد محبة الإنسان لنفسه حتي تشمل غيره، إنما هي حب الذات، وهي كغيرها من الفضائل من حيث إن آثارها لا تظهر إلا في حياة الجماعة، ومن هنا جاء خطأ الراهب أو المتوحد الذي يظن وهما أنه وهو في عزلته من الأخيار،

---

(1) تهذيب الاخلاق وتطهير الاعراق – ابن مسكويه ، ص ٦ – ٧.

إن أفعاله قد تكون متمشية مع تعاليم الدين ولكنها من غير شك ليست مسايرة لمبادئ الأخلاق، ومن أجل هذا خرجت من نطاق علم الأخلاق .

وهكذا وضع مسكويه مذهباً فلسفياً في الأخلاق لا يزال له خطره في الشرق حتى يومنا الحاضر فيما يقول المستشرق الهولندي "دي بوير"، وإن كان قد تأثر فيه بتفكير سابقيه – ولا سيما "أفلاطون" و"أرسطو" و"جالينوس" – وإن بعث فيما اقتبسه من مذاهبهم روحاً إسلامية لا تخفى، ونزع في الكثير من نواحي تفكيره نوعة علمية واقعية موضوعيه، استعان في تصويرها بخبراته الشخصية ولا سيما وأن المعروف من سيرته أنه كان في صغره مسترسلاً مع هواه. ولم يعزف عن حياة اللذة إلا في كبره، فنزع إلى غيره بما فاته في صغره، وحرص على أن يرشد غيره إلى طريق النجاة حتى لا يضل في متاهات الغواية.

ومن المستشرقين من يرون أنه لم ينجح كل النجاح في التوفيق بين ما اقتبسه من مذاهب اليونان بعضه مع بعض، ولا بين هذه المذاهب وبين أحكام الشريعة الإسلامية، ومع ذلك يرون محاولته وضع مذهب أخلاقي فلسفي خليقاً بالتقدير؛ لأنه لم يتقيد في هذه المحاولة الجادة بتفريعات أهل الفقه ولا نزاعات الصوفية الزاهدين، وهذا إلى جانب أنه أبدى في عرض مذهبه الجديد سداداً في التفكير وسعة في الثقافة[1]

---

[1] Cf. T.J. De Boor , The History of Philosophy in Islam , Eng. Trans by Edward Jones . 1903 .P. 128 ff .

وقد ترجمة وعلق عليه الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة (فلسفة الاخلاق ص ١٦٣)

الأخلاق عند ابن خادون[1]

يقول ابن خادون: الأصل في التصوف العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زحرف الدنيا وزينتها، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ... وهكذا أريد بالتصوف في أول أمره الزهد والعبادة والفقـر بمعني شدة العناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة، يقول القشيري إن علامـة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى، ويذل بعد العز، ويخفى بعد الـشهرة؛ ثـم تطور معنى التصوف بعد نشأة علم الشريعة إلى ما يناسب الكمال في الدين ونشأ علماً يقابل علم الفقه، وسمي بعلم الحقيقة أو علم الباطن، وفي هذا الـدور أريـد بالتصوف الأخلاق الدينية ومعاني العبادة، وكان قوامه الإرادة فيما قال ابن القـيم المتوفى عام ٧٥٦هـ / ١٣٥٥م وبهذا كانت أولى خطوات التصوف فـي سـبيل تكوينه العلمي تتمثل في أنه أصبح علم الأخلاق الإسلامي؛ ثم تطور التصوف بعد هذا إلي وضع نظرية في المعرفة وطرق تحصيلها، وهي تتحقق عند الصوفية نفثاً في الروع يختص به الأولياء؛ أو وحياً يختص به الانبياء، وهـي تجـئ "بتقـديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة وقطع العلائق كلها والإقبال بكنه الهمة على الله تعالى"، وبذلك ترجع إلى تطهير محض، وتصفية وجلاء ومحاسـبة الـنفس ثـم

(1) ابن خلدون هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن محمد الأشبيلي ، تونسي ، من آثاره العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر – انظر معجم المؤلفين عمر رضى كحالة ، ج٢، ص١١٩.

استعداد انتظاراً للتجلي – فيما يقول الغزالي – ولا نجـئ عـن طريـق الـتعلم والاستدلال العقلي الذي يختص به الأولياء والحكماء[1]

(1) المرحوم الأستاذ مصطفي عبد الرازق في تعليقه علي مادة (تصوف) في دائرة المعارف الإسلامية .(فلسفة الاخلاق) ، توفيق الطويل، ص ١٦٣.

المبحث الرابع
تاريخ الجزيرة العربية

في الجنوب الغربي من آسيا اقليم واسع الأرجاء ، تبلغ مساحته ربع أوربا تقريباً، تساهل الأقدمون فسموه "جزيرة العرب" مع أن الماء لم يحط به من جميـع جهاته.

يتألف غربي هذا الإقليم من جزءين : الحجاز شمالاً ، واليمن جنوباً ، أمـا الحجاز فقطر، مياهه، أوجدت أرضه، واشتدت حرارته، يعتمد أهله على الأوديـة القليلة، والآبار الشحيحة، لم يستطع أن ينتفعوا كثيراً بالماء الذي ينزل من السماء؛ لأنهم لم يبلغوا من الفنون مبلغاً يمكنهم من اختزانه واستخدامه عند الحاجة إليـه، وأشهر مدنه مكة والمدينة والطائف.

وأما اليمن فقد اشتهر قديماً بالغنى والخصب والحضارة، كثـرت أمطـاره وسيوله وعرف أهله، بما أوتوا من فن، أن ينتفعوا بها، فأنشئوا السدود يسيطرون بها على الماء وتصريفاً؛ وأشهر مدنه صنعاء ونجران وعدن. وهذان القطـران، أعنى الحجاز واليمن، أبعد البلاد أثراً في حياة العرب وفـي تـاريخهم الـسياسي والاقتصادي والأدبي .

وإذا وقع نظرك علي "مصور" جزيرة العرب فأبين ما ترى فيهـا وأبعـده مدى صحرائها في داخلها، وهي متنوعة في طبيعتها، فسهلة لينة حينـاً، وصـلبة

انتشرت فيها الحصباء حيناً، ومفروشة بحجارة سوداء، تسمى الحرار، حيناً. وهذه الصحراء في جملتها قفر، تسطع الشمس عليها في الحر فتلفح أرضـها وأهلهـا، ويعتمد ساكنوها على ما تنبته بعض البقاع عقب المطر فترعاه إبلهـم وشـياههم، وهم يأكلون من لحومها، ويشربون من ألبانها، ويلبسون من أصوافها وأوبارها.

إعتاد النسابون أن يقسموا سكان جزيرة العرب إلى أجناس ويـسموا كـل جنس باسم خاص يجمعها فاعتادوا أن يسموا الجنس الذي منه العـرب الجـنس السامي، نسبة إلى سام بن نوح عليه السلام، وعدوا من هـذا الجـنس البـابليين والأشوريين والعبرانيين والفينقيين والأراميين والحبشيين، ولكن هذا كله لا يـزال موضع خلاف بين علماء الأنساب، كما اختلفوا في أصل الجنس السامي الذي نشأ في إفريقية ثم نزح منها إلى آسيا.

وينقسم هؤلاء العرب إلى عرب الشمال (الحجازيين)، وعـرب الجنـوب (اليمانيين). ويذكر النسابون أن عرب الشمال يرجعون في نسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام، ويسمون النزاريين نسبة إلى نزار مـن نـسل اسـماعيل، وعرب الجنوب من نسل قحطان، ويسمون اليمانيين أو القحطانيين، وبـين هـذين النوعين من العرب فروق ترجع في جملتها إلى أن عرب الحجاز تغلـب علـيهم عيشة البداوة، وعرب اليمن عيشة الحضارة . ولسنا نقصد أن عرب الشمال كانوا يسكنون الحجاز فحسب، وعرب الجنوب كانوا يسكنون اليمن ولايتعـدونها، بـل

نعني أن كلا من الحجازيين واليمانيين عنصر يختلف في نسبه ودمه عن العنصر الآخر. ولكن كانت بين العنصرين صلات. ورحل قوم من كل فريق إلى مـوطن الآخر لأسباب يطول ذكرها، فكان في الحجاز عرب من اليمن. وكان في الـيمن عرب من الحجاز.

وكل من اليمانيين والحجازيين ينقسمون إلى قبائل: فاليمانيون يتفرعون إلى فرعين كبيرين: شعب كهلان ، وشعب حمير. فشعب كهلان أشهر قبائلـه طـي، وهمدان، ولخم وكندة، وشعب حمير، أشهر قبائله قضاعة وتنوخ وكلب.

والحجازيون كذلك ينقسمون إلى قسمين كبيرين: ربيعة ومـضر. فـشعب ربيعة أشهر قبائله: بكر، وتغلب. وشعب مضر أشهر قبائله قيس، وتميم، وهذيل، وكنانة، وقريش. وكل قبيلة من هذه القبائل تنقسم إلى بطون وأفخاذ يطول عددها. كان من بين هذه القبائل حتى ما كان منها مـن أصـل واحـد، مـن الحـروب والمنازعات والتهاجي ما ملئت به كتب التاريخ والأدب .

اللغة العربية

وقد ذكرنا قبل أن العرب والعبرانيين ومن إليهم يعدون ساميين فلغاتهم التي يتكلمون بها تسمى لغات سامية، فاللغة العربية إحدى اللغات السامية وقد عرفت، على النحو الذي نعلمه، حول آخر القرن الخامس الميلادي.

ويذهب الباحثون في علم المقارنة بين اللغات إلى أن اللغة العربية من أقرب اللغات إلى اللغة الأصلية التي تفرعت منها اللغات السامية، نظراً لاحتباس العرب في بلادهم وقلة النازحين منها والوافدين إليها، وضعف العلاقة بين أهلها وغيرهم من الأمم.

وعندما انقسم العرب إلى حجازيين ويمانيين، وانقسمت لغتهم إلي مضرية وحميرية. وكانت هناك فروق بين اللغتين عظيمة – في الألفاظ اللغوية؛ وفي الصيغ، وفي التراكيب وفي اللهجات. ولكن حدث قبيل الإسلام أن أخذت لغة الحجاز، وبعبارة أدق لغة قريش، تسود. وما زالت كذلك حتى ظفرت باللغة الحميرية، وحتى صارت لغة قريش هى لغة جزيرة العرب جميعاً، وقد دعا إلى هذه الظاهرة أسباب سياسية ودينية واقتصادية ستأتي الإشارة إليها بعد.

تاريخ الأمة العربية

تاريخ الأمة العربية قبل الاسلام غير معروف لأن أكثرها كانوا أهل بـدو، لم تمكنهم بداوتهم من أن يدونوا تاريخهم أو ينقشوا حـوادثهم، حتـي إن الـذين تحضروا منهم كاليمانيين والحميريين لم يعثر الباحثون إلا على القليل من نقوشهم وآثارهم، وإنما يعتمد الذين يؤرخون العرب قبل الاسلام على هـذا القليـل مـن الآثار، وعلى ما كتبه عنهم أهل عصرهم من الأمم الأخرى كاليونانيين والرومان والمصريين والعبريين والحبشيين، وعلى ما يستنبطون من بعض نصوص أدبية. ولنحصر الآن كلامنا على حالة العرب قبيل الاسلام فإن اللغة العربية التي نعنـي بآدابها وتاريخها إنما عرفت في هذا العصر.

هذا العصر سماه القرآن الكريم "الجاهلية"، ونـسبنا إليـه فقلنـا العـصر الجاهلي والأدب الجاهلي قد يكون اشتقاق هذا الاسم من الجهل وهو ضد الحلـم لما كان يغلب فيه من السفه والفخر بالأنساب والإمعان في سفك الدماء والعـصبية الحادة ونحو ذلك مما كرهه الاسلام ونفر منه، وقد نقل إلينا كثير مما يدل علـى حالة هذا العصر الاجتماعية والسياسية من شعر وأمثال وقصص، ولكنها كلها لـم تدون في الكتب إلا في القرن الثاني للهجرة، فكان بعضها مثاراً لنقـد الناقـدين، وأخذ العلماء والأدباء من قديم يمحصونها ويصححون بعضاً ويكـذبون بعـضاً،

ولكن بجانب ذلك ورد كثير من آيات القرآن الكريم وصحيح الحديث يروي لنا الشئ الكثير عن هذه الحياة الجاهلية ويكشف لنا من غموضها.

يدلنا ما صح من تاريخهم على أنه قد أنشئ على تخوم جزيرة العرب الشمالية إمارتان كبيرتان: إمارة الحيرة في العراق بجوار الفرس؛ وإمارة الغساسنة في الشام بجوار الرومان، وكان يحكم هاتين الإمارتين أمراء من العرب يتبعون في نظامهم نظام الدول المجاورة لهم، فإمارة الحيرة تتبع في كثير من شئونها نظام الفرس، وإمارة الغساسنة تتبع في كثير من شئونها نظام الرومان.

وكان سكان هاتين الإمارتين وسكان اليمن في الجنوب يعيشون عيشة حضارة، ويزرعون ويصنعون، وكثير من سادتهم مترفون، وقد روي لنا الكثير عن ترف أمراء الغساسنة في الشام، وعن حضارة الحميريين.

أما داخل الجزيرة والحجاز، إذا أنت استثنيت بعض سكان المدن المشهورة كمكة ويثرب والطائف – فكانوا أهل بدو يحترفون الزراعة والصناعة والتجارة، ويعتمدون في معيشتهم على الإبل، يوغلون بها في الصحراء يتطلبون منابت العشب ومراعي الشجر وموارد الماء، ويأكلون مما تخرجه الأنعام.[١]

([1]) المجمل في تاريخ الادب العربي (طه حسين – أحمد الاسكندري – أحمد أمين – علي الجارم- عبد العزيز البشري ، وأحمد ضيف) المطبعة المصرية القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٥ – ٦.

حياة العرب الاجتماعية

كان سكان الجزيرة العربية يعيشون عيشة قبائل، فالقبيلة هي الوحدة التـي يبنى عليها نظام حياتهم، وأفراد القبيلة ينتسبون إلى أب واحد، وقـل أن ينتـسب إليها من لم ينسل منها في نسبها إلا عن طريق الحلف أو الولاء.

تسود أفراد القبيلة فكرة فرد يتعصب لقبيلته ويعنى بحفظ نسبه ويفتخر به، ويحنو على من يشاركه فيه، ويسير على منهج قبيلته أصابت أم أخطـأت يقـول دريد بن الصمة:

وهل أنا إلاّ مِن غَزية إن غَوتْ

غَويتُ وإن ترشُد غزية أرشدِ

والقبيلة تحميه من العدوان وتطالب بدمه إن جنى أحد عليه، ولكـل قبيلـة رئيس هو سيدها، وهو مرجع الأفراد في إقامة العدل بينهم على حـسب عـرفهم وتقاليدهم. وعلاقة القبيلة بالقبيلة، علاقة عداء،- غالباً – تغير عليهم وتغـنم مـن مالها ورجالها، والأخري تتربص بها الدوائر لتنتقم منها كما قال دريد ايضاً:[1]

يغار علينا واترين فيشتفي

بنا إن أصبنا أو نغير على وتـر

([1]) الاغاني ج١٠ ص٧ دارصادر بيروت – تحقيق د. احسان عباس.

الواتر: القاتل، والموتور الذي قتل له قتيل فلم يأخذ بدمه ، وواترين حال من الضمير في علينا .

بذاك قسمنا الدهر شطرين قسمةً

فما ينقضي إلاّ ونحن على شطر

ولم تكن للعرب في الجاهلية، عدا من ذكرنا قبل، حكومة تـسيطر علـيهم جميعاً وتشرف علي شئونهم، لأن شرط قيام الحكومة انتساب الأفراد إلى المواطن لا إلى القبائل وانحلال العصبيات وقيام الجامعة الوطنية أو الدينية مقام العـصبية القبلية، وهي أمور لم تتوافر للعرب في جاهليتها .

ولهذا عندما جاءهم الإسلام بحكومته وأحكامه عـدوا ذلـك مـن القيـود والسلاسل كما قال الهذلى:

وليس كعهدِ الدار يا أم مالكٍ

ولكن أحاطت بالرقابِ السلاسلُ

كانت القبيلة تنقسم عندهم إلى أسر، ونظام الأسرة كان في هذا الطور هـو المعروف عند علماء الاجتماع: بطور السلطة الأبوية، إذ كان الأب فيهـا واسـع السلطان نافذ الكلمة على أفراد الأسرة يتصرف في مالهم وفي شئونهم، ويقطع فـي الأمور دونهم، وهو المرجع الأعلى لهم جميعاً، وكان بعض هـذه الأسـر يمتـاز بصفات وأعمال تجعل له الرياسة والشرف كبيت هاشم، وبيت أميـة فـي قـريش، وبيت زرارة في تميم وهكذا.

نري أن أكثر العرب أهل بدو، ولأهل البدو صفات خاصة يمتدحون بهـا ويكثرون في شعرهم من ذكرها والتغني بها، ولعل من خير ما يمثل هذه الصفات ما جاء في قول تأبط شرا، أحد الشعراء الجاهليين إذ يمدح ابن عم له بأنـه قليـل الشكوى من الهم ينزل به، بعيد الهمة واسع الأمل، يسلك له شتى المسالك، حليف الصحراء، يصبح في مفازة ويمسي فى أخرى، يسير وحيداً لا يهـاب، ويركـب المهالك ولا يخشى مواجهتها، عداء يسبق الريح السريعة، إن نام فإنما تنام عينـه ولا ينام قلبه، وإن صحا كانت عينه ديدبان قلبه، وله سيف صارم والمنايا متهللة، ولا يخشى الوحدة بل يأنس بها، ويعرف مسالك الصحراء فلا يضل في سيره كلما لا تضل الشمس، وهذه الصفات كمـا تـرى هـي المثـل الأعلـى للبـدوي لا الحضري[1].

قليلُ التَشكي للمهمِّ يصيبه

كثير الهوى شتى النوى والمسالكِ

يظلُ بموماة ويمسى بغَيرها

جحيشاً ويعروري ظُهور المهالكِ

ويسبقُ وفد الريح من حيثُ ينتحي

بمنخرق من شده المتداركِ

([1]) الديوان ص ٥٢ – ٥٣ ، دار صادر بيروت وموسوعة الشعر العربي ، ج١، ص ١٢٩، المهم: من الهم ، موماة: المفازة ، جحيشاً: منفرداً ، يعروري: يركب عارياً من غير سرج ، منخرق: صفة للفرس ، كالئ: يحميه ويحفظه، شيحان: حازم ، فاتك: يفاجئ غيره بمكروه .

إذا حاص عينيه كرى النومِ لم يزل

له كالئ من قلب شيحان فاتكِ

ويجعلُ عينيه ربيئة قلبه

إلى سلة من حد أخلقَ صائكِ

إذا هزه في عظم قرن تهللت

نواجذُ أفواهِ المنايا الضواحكِ

يرى الوحشة الأنس الأنيس ويهتدي

بحيثُ اهتدت أم النّجوم الشوابكِ

وأما الكرم فمن ما يمثله قول عتبة بن بجير[١]

فقالوا غريب طارقٌ طوحـتْ به

متون الفيافي والخطوب الطوائح

فقمتُ ولم أجثم مكاني ولم تقـم

مع النفس علاتُ البخيل الفواضح

وناديتُ شبلاً فاستجاب وربمـا

ضمنا قِرى عشر لمن لا نصافح

([1]) المجمل في تاريخ الأدب العربي ص٧، الخطوب الطوائح: أي المصائب المهلكة ، وطوحت به جملته علي ركوب المهالك ، شبل: اسم ابنه وقري عشر لبال لمن ليس بيننا وبينه مصادقة توجب مصافحته، أبو ضيف: يريد نفسه ، إلي جذم: متلعق بقام البيت قبله ، ويريد بجذم المال أصل المال وهو النوق التي قد نهكها ، المنائح: جمع منيحة وهي الناقة أو الشاه تدفع إلي الجار لينتفع بلبنها ما دام بها لبن. يقولون إن مالنا قليل فابلنا باركة بفناء الدار انتظارا لضيف وهى ليست كثيرة حتى تصير سارحة ورائحة وذلك لنا من الحمد ما للكثيرين اصحاب المئين.

فقام أبو ضيفٍ كريمٍ كـ ـ ـأنه

وقد جد من فرط الفكاهـةِ مازح

إلي جذم مال قد نهكنا سوامـه

وأعراضنا فيه براقٌ صحائـ ـح

جعلناه دون الذم حتي كأنـ ـه

إذا عد مالَ المكثرين المنائـح

لنا حمد أرباب المئين ولا يرى

إلي بيتنا مال مع الليل رائـح

دِين العرب

كان للعرب في الجاهلية دين ولكنه دين ضعيف، لا يخلصون له ولا يصل إلى أعماق نفوسهم، وحسبنا دليلاً على ذلك أننا ننظر قيما بين أيدينا من شـعرهم فنرى فيه الصيد كثيراً، والخمر والنساء والميسر كثيراً، الفخر والهجاء ووصـف القتال كثيراً، ولكن قلّ أن نرى فيه شرحاً لعاطفة دينية، وقلّ أن نرى فيه ذكر الله وتمجيده، وقلّ أن نرى فيه وصفاً لما كانوا يعبدون. انتشرت اليهودية والنصرانية في بعض بقاع جزيرة العرب، فقد كان فيها مستعمرات يهودية من أشهرها يثرب وهي التي سميت بعد (بالمدينة) وكذلك انتشرت اليهودية في اليمن في أوائل القرن السادس للميلاد، ولكنها كانت في نزاع مستمر مع النصرانية.

وانتشرت النصرانية في مناذرة الحيرة، وفي غساسنة الشام وسائر قبائله وزاحمت اليهودية في اليمن، وكان أشهر مراكز النصرانية في اليمن مدينة نجران، وكان القسيسون والرهبان يردون أسواق العرب يعظون أو يبشرون، ويذكرون البعث والحساب والجنة والنار، واشتهر من شعرائهم وخطابهم عدي بن زيد وقس بن ساعدة، ولكن اليهودية والنصرانية كانتا قليلتين إذا قسنا بالدين السائد في الجزيرة وهو الوثنية. فقد عبد العرب الأصنام، وعظموا الأوثان ونصبوها في الكعبة، وقربوا لها القرابين، وكان أشهر هذه الأصنام اللات والعزي ومناة، وكان تقديسها يكاد يعم قبائل العرب وإن كان ثم أصنام أخرى خاصة ببعض القبائل.[1]

ثقافة العرب

كانت المدن علي تخوم واليمن متحضرة بعض تحضر، فالآثار التي عثر عليها في اليمن والحيرة وما نقل عن اهلها يدل على أنهم كانوا على خط من الفن والعلم غير قليل.وفى قصة سبأ المذكورة في القران الكريم شاهد على ذلك، وفيها إشارات إلى فن الري والزراعة، وفن البناء والمعمار، وفن السياسة والحكم.

فأهل الحيرة تسرب إليهم شيء من علوم الفرس وآدابهم وعلوم اليونان وآدابهم. والغساسنة في الشام تسرب إليهم شيء من حضارة الرومان واليونان

([1]) المجمل في تاريخ الادب العربي ص ١٠.

وآدابهم. واليمن أمة عريقة في المدنية كانت تتصل بـالفرس وتتـصل بالحبـشة وتتصل بالرومان. ولها معهم جميعاً صلات – تجارية – أما ما عدا هؤلاء مـن سكان الجزيرة فكان حظهم من العلم والفن قليلاً. وعلي الجملة كان للعرب معرفة بالأنساب، وبشيء من أخبار الأمم، وبشيء من الطب ولكن ما كان عنـدهم مـن ذلك لم يعد أن يكون معلومات عملية أولية، وتجارب ينقصها الاستقراء، ونظرات عامة يعوزها التعمق والاستقصاء. أما من الناحية الأدبية فكان لهم شعر وقصص وأمثال وقد طبع كل ذلك بطابع عقليتهم التي أنتجها تاريخهم وبيئتهم كما سنرى(١)

الأدب الجاهلي

يكون الكلام جيداً إذا قرأته أو سمعته فأعجبك وأرضاك، وآنست من نفسك شغفاً به ورغبة في أن تعيد قراءته أو تسمعه مرة أخرى. وإنما يعجبـك الكـلام ويرضيك لأنه يلائم ذوقك، ويوافق طبعك ويصور لك الأشياء كما تجـدها أنـت حين تخلو إليها وتفكر فيها.

وملاءمة الكلام لذوقك. وموافقته لطبعك، قد تاتيان من المعاني التي يـدل عليها هذا الكلام. وقد تاتيان من المعاني والألفاظ جميعاً.

([1]) المجمل فى تاريخ الأدب العربي ص١٠.

تكون في المعاني قوة أو رقة فتعجبك لهذه القوة أو الرقة، وتكون الألفاظ فخمة جزلة أو عذبة سهلة فتعجبك لهذه الفخامة والجزالة، أو لهذه العذوبة والسهولة، وتجتمع هذه الصفات كلها أو بعضها في ألفاظ الكلام ومعانيه فيعجبك الكلام كله. ويبعث في نفسك الرضا والاطئمنان، ومتي كان الكلام جيداً على هذا النحو فهو الذي اعتاد القدماء والمحدثون أن يجمعوه ويقيدوه في الذاكرة أو في الكتب ويسموه (أدباً).

تقسيم الكلام إلى شعر ونثر

والأدب ينقسم قبل كل شيء إلي قسمين: أحدهما كلام منظوم يعتمد في لفظه على الوزن والقافية، وفي معانيه على الخيال، والعرب تسمي هذا النوع من الكلام (شعراً) والثاني لا يعتمد في ألفاظه علي وزن ولا قافية، وإنما هو مطلق حر لا يلزم صاحبه قيداً من القيود التي تلزم في الشعر، ولا يعتمد في معانيه على الخيال وحده وإنما أكثر اعتماده على التفكير الصحيح، والمنطق المستقيم، والعرب تسمي هذا النوع من الكلام (نثراً).

وإذا تحدث الناس في حاجاتهم ومصالحهم لم ينظموا الكلام ولم يلتمسوا له القوافي، ولكنهم يرسلونه إرسالاً على سجيتهم، وعلى ما تعول إليه الحاجة والمصلحة، فهذا النحو من الكلام الذي نسميه (لغة التخاطب) ليس شعراً. وهو في

الوقت نفسه ليس هو النثر الذي يحفظ ويروي ويتأدب به، والذي هو أحد قـسمي الأدب، وإنما هو غالباً كلام عادي لم يقصد أصحابه فيه غالباً إلى الإجادة ولا إلي الجمال الفني ولا الإمتاع الأدبي، وإنما أرادوا تأدية ما في نفوسهم مـن المعـاني وتحقيق ما تقتضيه منافعهم من الأغراض.[1]

أسبقية الشعر

فعندنا الآن نوعان من الأدب: شعر، ونثر فني، والشعر أسبق قسمي الأدب إلى الظهور، لأنه كما قدمنا يعتمد في معانيه علي الخيال الحر، على حين يعتمـد النثر على المنطق والتفكير،

وللجماعات وزنٌ وقافية دون أن نجد عندها نثراً فنيـاً صـحيحاً خليقـاً بـالجمع والتقييد. ولأن الشعر متصل بالغناء فالناس يغنون شعراً قبل أن يغنوا نثراً، لأنهم يجدون في الشعر أوزاناً تلائم تقطيع الغناء وأنغامه ومن هنا بدأت الآداب القديمة كلها بالشعر، ولم يظهر فيها النثر الفني إلا بعد أن أخذت الجماعات بحظ قليل أو كثير من الحضارة والرقي العقلي. وبعد أن ظهرت فيها الكتابة، واستطاع النـاس أن يتخذوها أداة للعلاقة فيما بينهم.

---

[1] المجمل في تاريخ الأدب العربي – ص ١١.

تاريخ الشعر

والأمة العربية كغيرها من الأمم القديمة الراقية لها أدب ممتع، فيه الـشعر الرائع والنثر البديع، وهي كغيرها من الأمم القديمة الراقية قد قالت الشعر وبرعت فيه قبل أن تقول النثر الفني وتجيد كتابته. ولاسبيل إلى أن نعرف متى ظهر الشعر في الأمة العربية، لأننا نكاد نجهل كل شيء من تاريخ هذه الأمـة العربيـة فـي عصورها الأولى.

وقد كان القدماء من علماء العرب يجهلون أولية الشعر العربي وينكرون ما يرويه القصاص من الشعر الذي ينسب إلي عاد وثمود وطسم وجديس وغيرها من القبائل البائدة، وكانوا يسلمون بأن أكثر الشعر العربي قبل الاسلام قد ضاع ولـم يصل إليهم منه إلا الشيء القليل، وكانوا يظنون أن ما صح عنـدهم مـن شـعر العرب في العصرالجاهلي لا يمكن أن يؤرخ بأكثرمن قرن ونـصف قـرن قبـل ظهور الاسلام، والواقع أن أكثر الشعراء الجاهليين الذين نعرف لهم شعراً صحيحاً قد أدركوا عصر النبي صلي الله عليه وسلم، ومنهم من مات قبل البعثة، ومنهم من مات بعدها بقليل دون أن يسلم، وكثير منهم دخل في الاسلام وعمر فيـه عمـراً طويلاً أو قصيراً. وربما كان من الحق أن نقول إن أكثر هؤلاء الشعراء عاشـوا في القرن السادس المسيح. ومعروف أن النبي صلي الله عليه وسلم ولد في آخـر الربع لهذا القرن.

والقدماء من علماء العرب لا يتفقون، كما قدمنا، علي أولية الشعر، كماأنهم يختلفون في الشاعر أو الشعراء الذين حملوا لواء هذه النهضة، فبعضهم يقول إنه أمرؤ القيس بن حجر الكندي، وبعضهم يقول إنه مهلهـل بـن ربيعـة التغلبـي، وآخرون يقولون إنه عمرو بن قميئة البكري، واختلافهم هذا فيه وجه من وجـوه الاتفاق هو الذي يحسن أن نحتفظ به ونتخذه وسيلة لنعرف أول النهضة الـشعرية عند العرب الشماليين، فهؤلاء الشعراء الثلاثة الذين سميناهم كانت مواطن قبائلهم في العراق ونجد، وفي العراق ونجد التقت في القرن الخامس والـسادس للمـسيح قبائل من عرب الشمال وأخرى من أهل اليمن، واختلط أولئك وهؤلاء بـالفرس، فليس غريباً أن يكون هذا الاختلاط ومانشأ عنه من جهـاد وخـصومة وتنـافس مصدرنهضة قوية كان الشعر من أقوى مظاهرها، ومهما يكن من شئ فقد شـاع من هذه الناحية وامتد حتي شمل نجداً والحجاز فكثر فيهما الشعراء، ولم تبق قبيلة من قبائل العرب النازلة في هذين الاقليمين ولا مدينة من المدن القائمـة فيهمـاإلا ولها شاعر أو شعراء يذكرون مآثرها، ويتغنـون بمفاخرهـا، ويناضـلون عـن حقوقها، ويذودون عنها حين تحتاج إلى الدفاع.[1]

---

[1] المجمل في تاريخ الأدب العربي – ص ١٤.

مسالك الشعر العربي

وقد سلك الشعر العربي منذ نهضة هذه سبيلاً خاصة لم يسلكها غيره من الشعر الأجنبي القديم، فقد بدأ الشعر الأجنبي القديم دائماً قصصياً يتناول حياة الآلهة والأبطال في قصائد طويلة، فيصفها وصفاً دقيقاً مفصلاً ويصور ماكان بين أولئك الآلهة والأبطال من حرب وسلم، ومن خوف وأمن، وكانت هذه القصائد الطوال شعراً اجتماعياً، بمعني أنها كانت مرآة لحياة الجماعات، لا يكاد يظهر فيها شخص الشاعر المنشيء لها. وكان أصحابها ورواتها ينتقلون بها في المدن ينشدونها أمام الجماعات في شئ من الغناء، وعلى نحو من التوقيع.

حتي إذا تطورت الحضارة وتغيرت نظم الحياة وظهرت شخصية الأفراد وقويت حقوقهم أحس الشعراء أنفسهم، وأنشئوا شعراً جديداً يصف نفوسهم وعواطفهم وشعورهم وحياتهم، وهذا الشعر هو الشعر الغنائي، كان الشعراء أول الأمر يتغنون به أمام الجماعات معتمدين فيه على التوقيع الموسيقى، وقد يعتمدون مع الموسيقى على الرقص أيضاً، وهذا الشعر الغنائي هو الذي أنشأ المدح والهجاء والرثاء والغزل والفخر وما إليها من هذه الفنون التي تصور حياة الفرد تصويراً قوياً.

ثم تطورت عندهم الحضارة بعد ذلك، وخطى الإنسان خطوة أخري بعـدة في سبيل الحرية الفردية والاجتماعية، فنشأ نوع من الشعر جديـد يـصف حيـاة الجماعات كما هي، أو كما كانت أوكما يجب أن تكون، وهذا الشعر يعتمد علـى الحوار والحركة والغناء معاً. كان يوضح في شكل قصة ملهية أومحزنة تمثل أمام النظارة في الملاعب وهو الشعر التمثيلي، وهذه هي السبيل التي سـلكها الـشعر القديم عنداليونانيين والرومان، ثم سلكها شعر القرون الوسطي في أوربا، ثم سلكها الشعر الحديث علي شيء من التطور والاختلاف، وهذه السبل نفسها سلكها الشعر الآري في الشرق كالهند، فقد نشأ قصيصاً ثم استحال غنائياً، ولكنه لم يصل إلـى التمثيل. إلا في عصر شوقي الذى كان رائداً في هذا المجال ومن روائـع شـعره المسرحي "مصرع كيلوباترا" "وقمبيز" و"على بك وعنترة" و"مجنون ليلي".

أما الشعر العربي، كما نعرفه، فقد سلك سبيلاً خاصة، فلسنا نعرف فيـه شعراً قصصياً بالمعنى الذي قدمناه، وإنما أول عهدنا بالـشعر العربـي الـشعر الغنائي، أي هذا النوع الذي يصف حياة الفرد وعواطفه وميوله وأهواه، والذي أن وصف حياة الجماعات فهو لا يهمل في هذا الوصف شخصية الشاعر ولاعواطفه وميوله، فالشاعر فيه مرآة للجماعة في حين أن الجماعة في الشعر القصصي مرآة للشاعر.

ولم يعرف الشعر العربي القديم فن التمثيل، وتطور في حدود النوع الغنائي لم يتجاوزها، وقد تناول الشعر العربي منذ العصرالجاهلي الفنون التـي يتناولهـا الشعر الغنائي عادة: ففيه الفخر بالمآثرالفردية ومآثرالقبيلة، وفيه المدح للأفـراد النابهين وللقبائل، وفيه الرثاء وفيه الهجاء وفيه الغزل. ولكن حظوظ هذه الفنـون من القوة والكثرة ليست متشابهة في هذا العصر، فمنها ما كان ضعيفاً قليلاً لم يقو ولم يكثر إلا بعد الاسلام.

الشعر العربي

والشعر العربي، في هذا العصر الجاهلي وغيره مـن العـصور الأدبيـة العربية قصير بالقياس إلي غيره من الشعر الأجنبي، قوامه القصيدة، وهي مقـدار من الأبيات يطول حتي يبلغ المائة أو يتجاوز بعض التجاوز، ويقصر حتى لا يبلغ العشرة، وربما قصر نفس الشاعر فلم يزد على سـبعة أبيـات، فـسمي شـعره (مقطوعة) والقصيدة أو المقطوعة وحدة مـستقلة تتنـاول موضـوعاً بعينـه أو موضوعات يتصل بعضها ببعض، ولها مشخـصات ثلاثـة: أولهـا المعنـى أو الموضوع، وهو الغرض الذي يحاول الشاعر السعي إليه وتصويره بما يقول مـن شعر: مدح في هذه القصيدة. وفخر في هذه، ورثاء في تلك، وهكذا .والثاني القافية وهي حرف يلتزمه الشاعر في قصيدته أو مقطوعته يختم به أبيات كلها لا يتجاوز ولا يضع مكانه حرفاً آخر، فمطولة امريء القيس لامية لأن صاحبها التزم الـلام

في آخر أبياتها جميعاً، ومطولة طرفة دالية، ومطولة زهيرميمية، ومطولة عمرو بن كلثوم نونية، وعلي هذا النحو. والثالث الوزن، وهو نوع من النظام الموسـيقي يتألف من أجزاء علي نحو خاص. والشاعريلتزمه في القصيدة أو المقطوعة كمـا يلتزم القافية، بحيث متي ابتدأ قصيدة علي نحو من الوزن لم يجز أن يعدل عنـه إلى نوع آخر حتى يفرغ من قصيدته[1]" إلا ما عرف عنـدهم مـن المـسمطات ونحوها إذ لجأوا فيها إلى تنويع القوافي.

وقد عرف العرب في العصر الجاهلي أوزاناً مختلفة نظموا عليها الـشعر ووضع أدباؤها بعد الإسلام لها أسماء تمايز بينها، منها الطويل، والكامل، والوافر، والخفيف، والرجز وغيرها فمطولة امرىء القيس من الطويل، ومطولة عمرو بن كلثوم من الوافر، ومطولة الحارث بن حلزة من الخفيف، ومطولة لبيد من الكامل وهكذا .

والشاعر العربي إذا أراد أن يقول الشعر في غرض من الأغراض لم يهجم على غرضه منذ أول القصيدة عادة، وإنما يسعي إليه في رفق وعلي مهل، فيبدأ بذكرياته الخاصة فيبتغي بها في أبيات تطول أو تقصر، وكأنه يريد أن يـستجمع قواه، وأن ينبه السامعين ويعدهم لما سيقول، وأكثر ما يهتم به الشاعر مـن ذلـك ذكر صاحبته أو إمرأته، وأطلال الدارالتي كانت تسكنها وقد يعني بالـداروأطلالها

(1) المجمل في تاريخ الأدب العربي – ص ١٦ .

أكثر مما يعني بأهلها، حتي إذا أرضى حاجته من ذلك ذكر نفسه وما تعـود مـن سفر ورحلة، وربما ألهاه عن نفسه وصفه للناقة التي يعتمد عليهـا فـي سـفره، وللطريق التي يقطعها على هذه الناقة. ثم ينتقل من ذلك إلى ما يريد فجـاءة فـي أكثر الأحيان، وفي شئ من التخاص والحيلة أحياناً، وهـذا النحـو مـن تكـوين القصيدة ألفه العرب الجاهليون لأنه كان ملائماً لحياتهم وبيائتهم الخاصة، ثم أصبح دستوراً للشعراء بعد ظهور الإسلام يلتزمونه في أكثر الأحيان على أنه أصل من أصول الفن الشعري وأن لم يكن بينه وبين حياتهم وبيئتهم صلة. (١)

أغراض الشعر

وأغراض الشعر العربي في العصر الجاهلي يسيرة ساذجة لا تعقيد فيهـا ولا تكلف، فالشعر كان في ذلك العصر مرآة لحياة أصحابه، وحياة العرب فـي العصر الجاهلي لم تكن معقدة تعقيد الحياة عند الأمم الممعنة في الحضارة، ومـن هنا سهلت أغراض الشعر العربي في هذا العصر، فكان الشعراء ينظمون الـشعر ليصفوا ما يقع تحت حسهم من مظاهر الحياة الطبيعية في بلاد العرب، يـصفون الصحراء وما فيها من حيوانات، يصفون إبلهم، ويصفون ما يـرون مـن نجـوم السماء ويصفون الخيل والسلاح والصيد وأدوات الحرب، وكانوا يقولون الـشعر يصفون به ما يلقون من شدة في حياتهم وفي جهادهم المتـصل لكـسب الأمـن

(١) المجمل في تاريخ الأدب العربي – ص ١٦.

والحياة، وكانوا يقولون الشعر لمدح السادة والرؤساء ورثائهم، وهجاء خصومهم، والفخر بمآثر الأفراد والقبائل، وكانوا يقولون الشعر يصفون فيه النساء وما يثرن في النفوس من لوعة وهوي، وما يسبغن عليها أحياناً من نعمـة ورضـى، ولـم يكادوا يتجاوزون هذه الأغراض .

وكان إذا عرضوا لها قصدوا إلى تأديتها من طريق المعاني السهلة اليسيرة المألوفة في بيئاتهم، ولا يتكلفون ولا يشقون على أنفسهم في التماس المعاني الدقيقة العويصة، كما أنهم كانوا يؤدون هذه المعاني بألفاظ متخيرة، فيها جمال وروعـة، وفيها متانة ورصانة، ولكنها غير ممعنة في الغرابـة والحوشـية. ولا سـيما إذا لاحظنا أن أؤلئك الشعراء إنما كانوا ينظمون الشعر لبيئاتهم وجماعاتهم، لا لبيئاتنا وجماعاتنا، فلا ينبغي أن نتخذ آذاننا مقياساً لآذانهم، فإذا شق علينا لفظ من الفاظهم أو أنكرناه فليس معنى ذلك أن هذا اللفظ قد كان شاقاً منكراً في البيئة التـي كـان يعيش فيها الشاعر ويقول لها الشعر. علي أن كثيراً مما بقي لنا من الشعر العربي الجاهلي سهل سائغ في متانة وشدة أسر، نسمعه فلا نضيق به ولا ننفر منه، وربما كان الشعر الجاهلي المسرف في الغرابة والشعر الجاهلي المسرف في الـسهولة أبعد شئ عن الجاهليين، قد وضع عليهم في عصور متأخرة.

ولا شك أن للقران الكريم أثره الذى لا ينكر فى فهمنا واستمتاعنا بـالأدب الجاهلي فلولاه لأصبح ذلكم الأدب كنزاً محجوباً وثروة مكنونة.

القيم في القصيدة الجاهلية

الحكم علي الشئ فرع من تصوره ولغة الشعر في أهم دلالاتها لغة إيحـاء لما تثيره في النفس من معان كثيرة. ومن هنا برزت فكرة دراسة الانتماء وعلاقته بظاهرة القيم العربية التي تجسدت في القصيدة الجاهلية؛ لأن هناك خيطـاً دقيقـاً يصل بين الأمرين، وهو خيط يستند في معظمه إلي اللغـة الإيحائيـة والـصور الشعرية الحاملة لعدد من الأفكار القريبة والبعيدة. ومـن يتوقـف عنـد الحـدود الظاهرية للكلمة الشعرية فلن يظفر بكبير فائدة عن العلاقة الجامعة بين الانتمـاء والمثل الفاضلة.

وبناء علي ما تقدم يرى د."حسين جمعة" ان الانتمـاء ظـاهرة اجتماعيـة وفكرية ثم فنية تأصلت حين ارتبطت بالقيم التي تواضع عليها العرب طوعـاً أو كرهاً. ولم يكن بصدد الحديث عن ذلك فكرياً أو اجتماعياً وإنما وصل إلـى هـذا وذاك عن طريق قراءة الشعر ذاته. فلغة الشعر شاعت على الألسن بحسن الفطرة، وصارت على لسان الشعراء قوالب تحكي أبعادها النفسية والاجتماعية والفكرية .. وهذا لا يعني أن الشعر المعبر عن حياة الجماعة موضوعاً أصبح شـبيهاً بنـداء الباعة في الأسواق، لأن الشعراء الجاهليين حققوا نجاحاً مبدعاً في فـنهم وعلـي الباحثين أن يتأملوا أسرار ما وصلوا إليه بمجموع دلالاتـه الحقيقـة المباشـرة، والإيحائية غير المباشرة، مع أن عقل الصانع ربما غفل هو نفـسه عـن بعـض

الصور الكامنة في لغته الموحية .. وهي تظل مقبولة إذا كانت موافقـة لمقـاييس العصر آنذاك، وظلت محكومة بإطار وعي الماضـي وتوسـع دلالتـه النـصية المتعددة. فالشاعر المبدع إذا حدثّك هز مشاعرك، وأثار فكرك إلى معانٍ أحـسها، أو اشتمل عليها شعره دون أن يعي ذلك وعياً مباشراً .

ولذلك كله لابد لنا حين ندرس الشعر الجاهلي من أن نضع أيـدينا علـى العناصر الشعرية لما ينطق به الشعر في دلالته المباشرة وإيحاءاته الفكرية البعيدة. وبهذا الفهم لمنطلق دراسة الشعر الجاهلي ندرك أن الانتماء عند الجـاهلي حـس مرتبط بالقبيلة (المجتمع) وبالأرض (الوطن – علي نحو من الأنحاء) وتتصل بها موارد المياه، والمقدسات (الوحدة الدينية الجامعة للقبائل، والتمثلـة بمظـاهر كثيرة) ، يتفاعل معها جميعاً، ويتوق إليها في حله وترحالـه. ولا ننتظـر مـن الجاهلي أولاً ومن الشاعر الجاهلي ثانياً أن يقول لنا: انه منتمٍ؛ فهو بالضرورة منتمٍ إلى قبيلة يشيد بأرومتها وأمجادها .. وينافح عنها بالسيف واللسان ...؛ ومنتمٍ إلى أرض ولد فيها وترعرع فيها يردها ويصدر عنهـا فيبـذل الغـالي والـرخيص لحمايتها؛ لأنها تعني له الحياة .. وهو منتمٍ إلى كل شئ مقدس في أعرافه، سـواء كانت الكعبة أم غيرها .. فالجاهلي – بهذا المفهوم الذي سقناه – لـم يعـد فـرداً معزولاً في أرض دون أرض، او في جماعة دون جماعة، بل غدا في ذاته الفردية جزءاً منصهراً في كيان أكبر يقال له الذات الجماعية وحريته تنتهي عنـد حـدود

مصالحها، ووجودها[١].. فهو يتطلع أبداً إلى العيش فيها، ويـؤمن بأنهـا ثمينـة باعتزازه وهي موئله في الشدة والرخاء يحتمي بقيمها وفـضائلها ويـسعى إلـى التضحية في سبيلها .

قال عامر بن الطفيل[٢]:

وإني وإن كنتُ ابن سيدِ عامرٍ

وفارسها المشهور في كلّ موكبِ

فما سودتني عامر عـن وراثةٍ

أبى الله أن أسـمو بأم ولا أبِ

ولكنّني أحمي حماها وأتقي أذاها

وأرمي من رمـاها بمـنكبِ

ومن هنا فإن منطق العقل في دراسة الانتماء وربطه بالقيم العربيـة فـي القصيدة الجاهلية يؤدي دائماً إلى تشاكل الضدين، فالانتماء الفاعل يرتبط بالصفات المحمودة؛ من حسب شريف ماجد، ونسب أصيل كريم، وعزة ومـروءة ووفـاء

(١) مجلة الآفاق الثقافية والتراث (مقالة ظاهرة الانتماء) العدد ١١ السنة الثالثة – ص ٣٧ ، الدكتور حسين جمعة ، الدوحة – جامعة

(٢) ديوان عامر بن الطفيل – ص ١١٣- ١١٤ هو عامر بن طفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن صعصعة، كان يكنى في الحرب بأبي عقيل وفي السلم بأبي علي له ديوان شعر مطبوع، دار صادر بيروت_ المنكب: في اللسان ص ٣٤٨ في مادة نكأ النكب عن الشيء وعن الطريق ينكب نكب نكباً وتنكب أي تعدل القوم وأيضاً تقال للجماعة من الخيل ، عريفهم: عونهم.السامي : الرافع قال الحطيئة : لا يسمو بها أشعري طرفه سامي.

وقدرة وشجاعة وإخاء، وكثرة عدد وإجارة ونجدة، وفخر بالحِلْم والسيادة ودعـوة إلى الثأر أو إلي السلم. ولكن الانتماء لا ينزع علاقتـه مـن الخـلال المذمومـة كالكذب، والنفاق، والغش، والغدر، والخيانة، والظلم، والفقر، والاغتراب، والبخل. فكل من يسلك بعض مسالك هذه الصفات ربما لا يفقد انتماءه للمجتمع أو الأرض والشعر الجاهلي بهذا الاتجاه وذاك كان مخلصاً للجماعة والعصر؛ لأنه صـياغة جمالية لتجربة وجدانية واجتماعية في ضوء التصور الأخلاقي لأبنائه .

وفي ضوء القيم الفاضلة التي آمنوا بها وجدنا أن كل قيمة خيـرة وحـسنة ضاعفت الانتماء حسناً وفاعلية، ونال الفرد بها مكانة أسمى وأرفع في قبيلته أولاً، وفي نفوس العرب ثانياً، فحاتم الطائي، صار مضرب مثل في الجود عند العـرب قاطبة، فزهت به قبيلته وعلا ذكرها .

وممدحوه قال زياد الأعجم[1] :

إن السماحةَ والمروءةَ والندى

في قبةٍ ضربتْ على ابن الحشرج

وعنترة صار مضرب مثل في الشجاعة لدى القبائل كافـة. وفـي ضـوء الصفات المرذولة وجدنا أن كل سلوك شرير أزرى صاحبه، وهدد انتمـاءه إلـى

([1]) الأغاني ج١٢، ص٢٤، دار صادر بيروت.

قبيلته مهما كانت مكانته فيها ، فعروة بن الورد_العبسي على شرفه ومنزلته فـي قومه وعلى الرغم من دعوته في الصعاليك دعوة إنسانية، فإن عبـساً لـم تكـن لترضى عن سلوكه في اعتراض أرزاق الناس وسبلها في زمرة مـن الـصعاليك الفقراء. وطرفة بن العبد على منزلته في بكر ما كان إسرافه وتبذيره لمال أهله في شرب الخمر ليرضي قومه حتى قال عن نفسه[1]:

ومازال تشرابي الخمور ولذتي

وبيعي وانفاقي طريفي ومتادي

إلى أن تحامتني العشيرةُ كلها

وأفردتُ إفراد البعـــير المعبدِ[٢]

وظاهرة الخلعاء ما كانت لتوجد لو آمنت القبائل العربية بأن الجرائم التـي يرتكبها الخلوع لا تهدد الجماعة والانتماء إليها .وبهذا كله فإن الأفراد إن سـلكوا طريق الصفات المرذولة فقد شوهوا انتماءهم إلى القبيلة والأرض والمقدسات، بل أصبح انتماء مزيفاً. ومهما حاولوا إخفاءه لابد من أن يكتـشَفوا وسـينْبذون فـي جماعتهم .

بهذا الوعي ندرك كيف ينصهر الفرد بالجماعة، وكيف يـصبح المجمـوع عنـد الشاعر المنتمي مساوياً للذات. ولهذا كان الشاعر ملزماً بالدفاع عن قبيلته وقيمها،

([1]) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ، ص ٤٠١- ٤٠٢ الأعلام الشنمتري ، ج١، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع،

([2]) الزوزني- شرح المعلقات السبع – دار صادر بيروت ص ٥٩، طريفي : ماله الذي يكتسبه بنفسه، متاد : ماله الذي يرثه عن آبائه، المعبد : المطلي بالقطران.

وهو التزام أدبي وطوعي. بل ندرك لماذا كانت القبيلة تحتفـل بـشعرائها حينمـا ينبغون فيها، فتقيم الولائم والاحتفالات احتفاءاً بولادتهم، قال ابن رشيق: (كانـت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها، وصنعت الأطعمة واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر، كما يصنعون في الأعراس، ويتباشر الرجال والولدان؛ لأنه حماية لأعراضهم وذب عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم وإشادة بذكرهم. وكـانوا لا يهنئون إلا بغلام يولد أو شاعر ينبغ فيهم أو فرس تنتج)[١]

من هذا النص ندرك أن القبائل العربية على اختلافها تظل متوافقة لاتفـاق الجوهر الأصيل فيهم والمتمثل بانتمائهم إلي جذر واحد وأرض واحده ومقدسـات واحدة علي شدة التنابذ بينهم علي مصادر المياه، لأن المـاء يمثـل لهـم الحيـاة وحياتهم قائمة النجعة. ومن هذه الحياة ولدت لديهم ظاهرة الأحلاف التـي تجمـع عدداً من القبائل ذات الانتماء المشترك (الأصل الواحد) غالباً، لتصبح قادرة على حماية نفسها تجاه الحلاف الأخرى، إذا لا مكان للضعيف، ولهذا امتُـدحت لـديهم القوة والمنعة والقدرة والشجاعة وكثرة العدد.

واحتمى كثير من الأفخاذ والعشائر الصغيرة تحت جناح الانتماء الأكبر أو القبائل الكبرى، وشاع ذلك بين القبائل. ولما تنازعوا على الوجود كانوا يـدركون

([1]) ابن رشيق- العمدة في محاسن الشعر وادابه ونقده - تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد دار الجيل بيروت ط٥ ١٩٨١م ، ج٢ ص ١٢.

انهم من أصل انتمائي واحد. ولكن لابد مما ليس منه بد. مع العلم أنهم لم يهتـدوا إلى مصطلح لغوي واحد جامع لأصولهم إلا قبيل مجئ الرسالة الإسلامية.

وفي ضوء ما تقدم من فهمنا لظاهرة الانتماء وعلاقتها بالقيم العربية، علينا أن نتتبع جملة من الأشعار التي تحمل في طبيعتها اللغوية الإيحائية صوراً كامنـة لها.

وعلينا اقتناص الأسرار المختبئة فيها والوصول إلي الأشياء التي تكتن في نفوس أصحابها وعقولهم ... فتحول الدلالة اللغوية من كلمة إلى أخرى ومن بيت إلي آخر تحولاً غير عرضي، وإنما هو انتقال يستند إلى الغاية التي يسعى إليهـا الشاعر. وفضلاً عن هذا فهو محكوم بالإيحاء المعنوي. وإلا فما سر التقاء الفـن بالحياة في صميم القصيدة الجاهلية على تعدد انتماء شعرائها؟ ومـا سـر التقـاء الجاهليين على لغة شعرية واحدة اصطنعوها في بواديهم وحواضرهم؟ وما سـر التقاء مفهوم الانتماء في أذهانهم، علي شكل واحد؟ وما سر التقاء القيم العربيـة المحمودة والمرذولة علي صفة متماثلة علي شدة التنازع فيما بين القبائـل التـي سكنت أرضاً واحدة أو أراضي متباعدة ؟ السر يكمن في حس الانتماء المـشترك إلى الجوهر الواحد نسباً وأرضاً ومقدسات. والشعر قيثارة العرب، تغنـوا فيـه بانتمائهم الذي ازدان بالمثل العليا أينما ارتحلوا وحلّوا.[1]

([1]) مجلة الآفاق للثقافة والتراث (مقالة ظاهرة الانتماء) العدد ١١ السنة الثالثة – ص ٣٨- ٣٩.

أشهر شعراء الجاهلية

وقد اشتهر من الشعراء في العصر الجاهلي قوم كثيرون من قبائل مختلفة وفي أقاليم متباينة، ولكن القدماء من العرب، بعد الاسلام على الأقل، كانوا مجمعين على تفضيل أربعة من هؤلاء الشعراء يعدونهم زعماء الشعر وقادته وأساتذته النابغين فيه وهم: امرؤ القيس بن حجر، زياد بن معاوية المعروف بالنابغة الذبياني، وزهير بن أبي سلمى، وقيس بن ميمون المعروف بالأعشى، وكان القدماء يختلفون في تقديم بعض هؤلاء الشعراء علي بعض؛ كان لكل واحد منهم أنصار من أهل البادية والحاضرة ومن العلماء، يقدمونه ويرونه زعيم الشعر، وكانوا يقدمون بعد هؤلاء الشعراء جماعات أخرى نذكر منها: طرفة بن العبد ولبيد بن ربيعة، عمروبن كلثوم التغلبي، وعنترة أبن شداد العبسي، الحارث بن حازة اليشكري، وعبيد بن الأبرص.

واختار القدماء بعد القرن الأول للهجرة عشر قصائد لهؤلاء الشعراء العشرة سموها(المطولات) ثم سميت بعد ذلك بالمعلقات، والناس يعنون بهذه القصائد العشر عناية خاصة، فيجمعونها ويفسرونها ويفردون لها الكتب، ويحفظونها، على أن هناك شعراء آخرين ليسوا أقل من هؤلاء العشرة حظاً من الشعر ولهم نباهة شأن فيه، وليس هنا مكانا لوقوف عند شعراء العصر الجاهلي للدرس المفصل والتحليل الدقيق، وإنما الذي نقصد إليه إنما هو أن نعطي من

الشعر في هذا العصر صورة صحيحة موجزة بقدر الاستطاعة، تتخذ نماذجاً لمـا كان شائعاً فيه من الشعر .

هذا، وقد قُسموا الشعراء إلى طبقات كما فعل محمد بن سلام الجمحي فـي كتابه طبقات فحول الشعراء وكانوا يعتمدون الكثرة والجودة جميعاً ولقـد يـزري ببعضهم أن ليس لهم إلا واحده.

المبحث الأول

مقدمـةعن القـيم

مما يميز الثقافة العربية في العصر " الجاهلي " أنها كانت " ثقافة أميـة" فـي الأساس. وهذا لا يعني غياب الكتابة غياباً مطلقاً في المجتمع الجاهلي، وإنمـا "غيـاب الكتاب". ومعروف أن العرب قد وصفوا في القرآن ب " الأميين " لكونهم لم يكن لهم " كتاب " وذاك في مقابل " أهل الكتاب " من اليهود أصحاب التوراة والنصاري أصحاب الإنجيل. ويجب أن لا نتوقع وجود كتب أخرى في مجتمع جل سكانه يعيـشون علـى الترحال في صحراء قليلة العمران. ومع ذلك فغياب الكتاب لا يعني بالضرورة غيـاب "المؤلف" ولا غياب "القراء".

وكان الشعراء والخطباء والناطقون بـ "الأمثال" و"الحكمة" مـؤلفين وناشـرين للقيم، ولم تكن وسيلتهم في تبليغ ما "يؤلفون" من كلام منظوم أو منثور، ألسنتهم وحدها، فهده كانت تخبو كما يخبو كل صوت بعد موت صاحبه، بل كانت وسيلتهم في " النثر " رواة أدبهم وسيرهم. ففي مجال الشعر " كثيراً ما كان يتتلمذ – الشاعر الناشئ – علـى شاعر آخر أرسخ منه قدماً في الشعر فيختص به ويصبح راويته الموكل بحفظ شـعره وإذاعته، وإلى جانب هذه الرواية المتخصصة وجد في الجاهلية وصدر الاسـلام رواة كثر لم يكونوا يقصرون على شاعر واحد بل يروون جيد الشعر العربي مهما اختلـف قائلوه.[1] والشعر العربي يتميز بكونه يجمع في قصيدة واحدة بين عدة موضـوعات أو

---

[1] أمجد الطرابلسي، نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب ، ج١ ، الجامعة السورية . ١٩٥٦ ، ص ٨٣-٨٤.

أغراض. وقد لا تخلو القصيدة الجاهلية من مقدمة في الغـزل والوصـف ليـأتي الغرض الرئيسي بعد ذلك مدحاً، أو فخراً، أو هجاء، أو رثـاء، ولابـد أن يـأتي الحكمة بعد ذلك أو أثناء ذلك و"الحكمة" في هذا المجال تعني القول الـذي يحمـل قيمة اجتماعية أو إنسانية مطلقة، صالحة لكل زمان ومكان. وقد كان هنـاك مـن اشتهر بغلبة " الحكمة " في شعره مثل زهير بن أبي سلمى، والسموؤال، وعدي بن زيد، وأمية بن أبي الصلت الخ. ولا شك أنه كان هناك إلي جانب رواة الشعر من كانت له عناية مماثلة، أو مقاربة، بالخطب والأمثال والحكم.

ومهما يكن من شأن درجة الصحة في هذه الروايات فالمهم عندنا هـو أن الرائج من المرويات كان يحمل قيماً معينة، بل يمكن القول إن رواج هذا القول أو ذاك، شعراً كان أو نثراً، كان يتوقف علي مدى " القيمة الأدبية " التـي يحملهـا، وهي القيمة التي كانت توزن بمدي جمعه بين " اللفظ الجميل " والمعني الشريف"، بين ما ينتمي إلى أدب اللسان وما ينتمي إلى أدب النفس. وكان تأثير القول الجامع بين القيمتين، اللغوية والأخلاقية، عظيماً إلي درجة أنه كان الاستـشهاد بـه فـي مجالس السمر والمناظرة والجدل بمثابة الضربة القاضية، أي أنه " فصل الخطاب " ولكي نقدر مبلغ تأثير هذا النوع من الاستشهاد في توزيع القيم والتـرويج لهـا، وتكريسها وبالتالي فرض سلطتها، يكفي أن نلاحظ دوره في حياتنا المعاصرة فمن

منا لم يستشهد بينه وبين نفسه أو من أجل إقناع مخاطبيه لزهير بن أبي سلمى أو لطرفة بن العبد أو للمتنبي الخ.

ومن أن جميع من يذكرون من الشعراء والخطباء العرب وغيـرهم ممـن ينسب له شئ من الشعر أو النثر هم مبدئياً مرجعيات معتمدة في الموروث العربي الخالص، بما في ذلك الذين عاشوا في صدر الاسلام والعصر الأموي، فإن هناك رجالاً ونساء يعتبرون مشخصين لهذه القيمة أو تلك (فضيلة كانـت أو رذيلـة)، لكونهم بلغوا بها مبلغ مضرب المثل. يقول ابن عبد ربه تحت عنوان " من َضرب به المثل من الناس " قالت العرب : أسخي من حاتم، وأشجع من ربيعة بن مكدم. وأدهي من قيس بن زهير، وأعز من كليب بن وائل، وأوفي من السموؤال، وأذكي من إياس بن معاوية، وأسود من قيس بن عاصم، وأمنع من الحارث بـن ظـالم، وأبلغ من سحبان بن وائل، وأحلم من الأحنف بن قيس، وأصـدق مـن أبـي ذر الغفاري، وأكذب من مسيلمة الحنفي، وأعيا من باقـل، وأمـضي مـن سـليك المقانب، وأنعم من خريم الناعم، وأحمق من هبنقة، وأفتك من البراص " أما " من يضرب به المثل من النساء " فيذكر أنه " يقال أشأم من البسوس، وأحمق من دغة،

وأمنع من أم قرفة، وأقود من ظلمة، وأبصر من زرقاء اليمامة[1]. ولكل من هؤلاء، رجالاً ونساء، قصة أو حادثة تحكي السبب الذي من أجله ضرب به المثل في هذا الخلق أو ذاك.

لقد طبعت الصحراء العرب الذين كانوا يتقلبون بين أرجائها بطابعها العميق، هذه الصحراء التي تجمع بين الحر الشديد والبرد الشديد، والتي يجودها المطر أحياناً فيغير فترة قصيرة من طبيعتها القاحلة القاسية، والتي تتعاقب عليها الأفاعيل الجوية من النقيض للنقيض فجأة فيكون لها أثرها .

فالعربي لذلك فيه كرم وإيثار، ونهب وسلب؛ وفيه مروءة ورأفة ورحمة وشدة وجفاء وغلاظة؛ وفيه لين العريكة والرضى ما كانت الحياة طيبة والكرامة موفورة، والغضب البالغ إذا الشر أبدي ناجذيه له .

والعربي أيضاً وهو يعيش في نطاق محدود بجزيرته، ولم تتشعب أمامه سبل الحياة، ولم تتنوع أمامه المظاهر، كان محدود الخيال؛ فلم يحاول، أو لم يستطع، أن يفكر في حياة خيراً من حياته التي يحياها، ولم يحاول أو لم يفكر في

---

[1] ابن عبد ربه. المجلد الثاني، الجزء الأول . ص ٨ . وما دمنا بصدد البحث في القيم فنلاحظ أنه باستثناء زرقاء اليمامة التي ضرب بها المثل في قوة البصر، وهي صفة جسمية، فإن امرأة واحدة هي التي ضرب بها المثل في خصلة محمودة : الامتناع للرجل . أما الباقيات فقد اقترفت بهن صفات غير محمودة ؟ النحس ، الحمق ، القوادة والزنا بينما انصرفت الخصال الحميدة (السخاء ، الشجاعة ، العزة ، الوفاء ، الذكاء ، والبلاغة ، والحلم والصدق) إلي الرجال وحدهم . وهذا يعطينا فكرة عن " قيمة " المرأة في المجتمع العربي الجاهلي) والملاحظ أنه لم يذكر أكثم بن صيفي الذي يصفه ابن عبد ربه نفسه في مكان آخر بأنه " حكيم العرب " .

أن يكون له مثل أعلى، ولم يحاول او لم تتهيأ له الأسباب لتكون له فلسفة أو تفكير فلسفي.

ومع ذلك كله، فالباحث يستطيع، من التعمق في دراسة آثارهم الأدبيـة، أن يستشف من بعضها لونا من التفكير الأخلاقي، وأن يتبين أنهم عرفوا شـيئاً عـن النفس الإنسانية وما فطرت عليه من طبائع، كلما يعرف في سهولة ويـسر أنهـم هدوا بدافع الفطرة السليمة إلى كثير من الفضائل التـي كـانوا يتواصـون بهـا ويفخرون بتوارثها.

إني أرجح أن يكون من العرب في تلك الفترة من حياتهم من عرف وثاقـة الصلة بين العلم والفضيلة، أو على الأقل من حام حول هذه الفكرة، فمـن عـرف الخير في عمل اندفع إليه بباعث من المعرفة. أرجح هذا جداً، وقد يرجحه معـي كثيرون، حين أقرأ قول زهير بن أبي سلمى(١)

ومن يوفِ لا يذمم ومن يفض قلبه

إلى مطمئن البر لم يتجمجمِ

فإني أفهم منه أن البر متي عرف يقيناً أن هذا العمل خير، وإطمأن قلبه إلى ذلك و لم يتردد في الأتيان به. وهذا فيما نرى ما ذهب إليه "سقراط" حين أكـد أن

---

(1) الزوزني شرح المعلقات السبع ص ٨٧، اوفى بالعهد ومن يوفى بعهده لم يلحقه ذم ، يتجمجم: لم يتتعتع فى اسدائه وإيلائه.

هو زهير بن ربيعة الملقب بأبى سلمى وهو من شعراء الطبقة الأولى من الجاهلية وكان يتألف ويتعفف فى شعره واعجب بشعره عمر بن الخطاب.

الفضيلة هي العلم أو المعرفة وإن كان زهير لم يفلسف هذه الفكرة ولم يطبقها مثل سقراط.

كما حاول بعضهم، وهو طرفة بن العبد، أن يرسم لنا الحياة التي يراها مثلاً أعلى له، إذ يقول في معلقته: [١]

ولولا ثلاثٌ هن من عيشةِ الفتى

وجدك لم أحفل متى قام عودِي

فمنهن سبقى العاذلاتِ بشربةٍ

كميتٍ متى ما تُعلَ بالماءِ تُزبدِ

وكري اذا نادى المضافُ محنبا

كسيد الغضى[٢] نبهته[٣] المتوردِ[٤]

([1]) الزوزني - المعلقات السبع ص ٦٠-٦١. معلقة طرفة بن العبد (شاعر جاهلي وشاب جمع الى فتوة الشباب وطيشه حكمة الشيوخ وتفكيرهم) الجد:البخت ، الحفل:المبالاة ،العود: جمع عود من العيادة.

([2]) الكر: العطف والكرور الانعطاف، المحنب:الذى بيده انحناء، سيد: الذئب الغضا: شجر.

([3]) الدجن: الباس الغيم أفاق السماء. البهكنة: المرأةالحسنة، الخلق:السمينةالناعمة،المعمد: المرفوع العمد.

([4]) يقول : لولا ثلاث وهى الاولى:سبق العواذل بشربة من الخمر.

وتقصير يوم الدجن[١] والدجن معجب

ببهكنة تحت الخباءِ المعمدِ[٢]

فإنه يؤكد أنه لا يكترث بالموت لولا ثلاث لذات يراها خير اللـذات هـي سبقه العواذل بشرب الخمر، وإسراعه بحصانه إغاثة للملهوف، ومتعتـه بـالمرأة الحسناء.

على أننا حين نتكلم عن العرب عامة، لا عن طرفة بن العبد فحسب، نجـد أن ما عرفه الأخلاقيون فيما بعد بالمثل الأعلى كان عندهم ما يصح أن نطلق عليه كلمة واحدة، هي: (المروءة) التي تقوم علي الشجاعة والكرم، هاتـان الفـضيلتان اللتان هما جماع الفضائل في رأيهم ومناط الفخر لديهم، ذلك بأن حياة العربي غير المستقرة أو المطمئنة، الحياة التي يتقلب فيها بين شظف العيش ونعيمـه، كانـت تدفعهم دفعاً عنيفاً إلى تقدير الشجاعة تقديراً خاصاً، إذ كانا أهـم وسـائل الحيـاة والدفاع عن كيانهم وأحسابهم، وبهما يكون المجد وحسن الذكر.

ويقول الأستاذ الدكتور جواد علي: "وتتمثل المثـل الجاهليـة العليـا فـي المروءة، وقد فسرت المروءة بأنها كمال الرجولية. ومن المروءة الحلم والـصبر، والعفو عند المقدرة، وقرى الضيف، وإغاثة الملهوف، ونصرة الجـار، وحمايـة

([1]) والثانية :اغاثةالمستغيث واعانته الاجئ اليه .

([2]) الثالثة: تقصير يومالغيمبالتمتع بالمرأةالحسنة.

الضعيف. والمروءة عند الجاهليين الدين عند المسلم . وقـد ورد أن المـروءة ألا تفعل سراً أمراً وأنت تستحي أن تفعله جهراً فهي أقصى ما يكون من أخلاق فـي الرجل الكامل الشجاع. وقد أقرها الإسلام في جملة ما أقره من فضائل الجاهلية[1]، وورد في الحديث الشريف: "الدين المروءة، ولا دين إلا بمروءة ".

وقد كان لهم مع هذا حكم[٢] تدور على ألسنتهم نثراً وشعراً، وآداب عمليـة يأخذون أنفسهم بها ويحرصون على أن تنتقل من جيل إلى جيل. وإنه وإن كانـت هذه الحكم والآداب والأخلاق مما ذخرت به كتب الأدب ودواوين الـشعر، وممـا يجده الباحث علي حبل الذراع في هذا التراث المجيد قد يكون من الخير أن نمثـل لذلك بمثل معدودة من الشعر وقليلاً من النثر.

فمنه قول زهير بن أبي سلمي في الكرم، والوفاء بالعهد، وأن معرفة الخير تؤدي إلى عمله، وأنه حري بالمحسن أن يعرف موضع الصنيعة، وضـرورة إصـلاح النفس مما قد يكون فيها من فساد خلقي مخافة أن يظهر للناس يوماً ما:

ومن يجعل المعروفَ من دون عِرضه

يفره[٣] ومن لا يتق الشتم يشتم

([1]) تاريخ العرب قبل الاسلام - مطبعة المجمع العلمي بالعراق ١٩٥٧ ج٦ ص ٣٢٦.، يفره: أي يشد صنه.

([2]) الشهرستاني يقول عنها أنها فلتات الطبع وخطوات الفكر.

([3]) الزوزني – المعلقات السبع ص ٨٧ ، يفره :يوفره يكثره.

ومن يك ذا فضلٍ فيبخل بفضـــــلهِ

على قومه يستغن عنه ويذمــمِ

ومن يوف لا يذمم ومن يهد قلـــبه

إلى مطمئن البر لا يتجمجـــمِ

ومن يجعل المعروفَ في غير أهلــهِ

يكن حمده ذماً عليـه وينْـدمِ

ومهما تكُن عند أمرئ من خليقـَــةٍ

وإن خالها تَخفى على الناس تُعلمِ

ومنه أيضاً قول عامر بن الظرب العدواني:

الرأي نائم والهوى يقظان، من جمع بين الحق والباطل لم يجتمعا له، وكان الباطل أولى به، إن مع السفاهة الندامة.

وقول أكثم بن صيفي وقد عاش في الجاهلية وأدرك الإسلام يوصي قومه: " لن يعدم المشاور مرشداً، والمستبد برأيه موقوف على مداحض الزلل، ومن سمع سمع به، ومن سلك الجدد[١] أمن العثار، ولن يعدم الحسود أن يتعب قلبه ويـشغل فكره ويؤرث غيظه ولا تجاوز مضرته نفسه، والصبر علي جرع الحلم أعـذب من جناة ثمر الندامة، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم، وكلم اللسان أنكى من كلم السنان".

([1]) الجدد: الطريقة ومنه قول الله تعالي(ومن الجبال جدد بيض) فاطر/٢٧ .

وفي الكرم نجد ذا الأصبع العدواني يقول في وصية لولده أُسيد: "واسمع بمالك، وأعزز جارك، وأعن من استعان بك، وأكرم ضيفك، وصن وجهك عن مسألة أحد شيئاً ".

كما يقول عن قصيدة يفخر فيها على صاحبين له :

إن تزعما أنني كبرتُ فلم

ألفَ بخيلاً نِكْساً[١] ولا ورعا[٢]

أجعلُ مالي دون الدنا[٣] غرضاً

وما وهى ملأمور[٤] فانصدعا

([1]) المفضل بن محمد بن يعلى الضبى - المفضليات تحقيق احمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون، ص ١٥٤ ، النكس: الردئ،

([2]) الورع: جباناً.

([3]) الدنا: الدنس والعيب.

([4]) ملأمور: من الأمور.

ونجد حاتماً الطائي يقول لغلامه وقد قرس البرد:[1]

أوقد فإن الليلَ ليلَ قِـر

والريح يا موقد ريح صِر

علّ يرى نارك من يمر

إن جلبتَ ضيفاً فأنتَ حر

وكما كانوا يمتدحون بالشجاعة والكرم، كانوا كذلك يمتـدحون بـضروب مختلفة من الفضائل، ومنها الوفاء.

ومن المثل الرائعة الفذة في هذا ما كان من حنظلة بن أبي عفراء الطـائي، الذي ضمن شريك ابن عمرو لدى المنذر بن ماء السماء وقد طلع عليه يوم بؤسه، فأطلقه عاما يرجع بعدة إليه ليقتله وفاء بنذر سابق له. فلما انتهـى العـام وأيقـن النعمان وصحبه أن حنظلة لن يعود وقد نجا وهم بقتل شريك جزاء بـضمانه، إذا بحنظلة يصل وفاء بعهده وقد كادت الشمس تغيب، فعجب لذلك ومن عليه وأكرمه، فأنشأ يقول:(٢)

ولقد دعتني للخلافةِ ضالّتي

فأبيتُ غير تمجدي وفِعالي

إني امرؤ مني الوفاء سجيةُ

وجزاء كل مكارم بـَـذّال

---

(1) ابن عبد ربه الاندلسي - العقد الفريد ، ج١ ، ص ١٩٧.تحقيق د. احمد أمين وزميليه مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ط٣ ١٩٦٥.

(٢) شاعر جاهلي عرف بالوجاهة والزعامة كان على دين ابراهيم بنى ديرا عرفت بدير حنظلة.

كما أن قصة مثال الوفاء في العرب السمؤل بن عادياء، الذي رضي أن يـذبح ابنـه وهو ينظر على أن يخفر ذمته ويسلم أدرع امرئ القيس– وقد كان استودعها عنده حين خرج إلى قيصر الروم - لغيره أو ورثته، هذه القصة الرائعة معروفـة، وفيها يقول السمؤل: (١)

وفيتُ بأدرع الكندي إنني

إذا ما خَان أقوام وفيتُ

وفي الوفاء أيضاً حتى الموت، يقول بشامة بن عمرو من عطفان يحرض قومه على نصر حلفاء لهم ضد قوم من عطفان هموا بهم، فضل له ولقومه الموت مـع الوفاء وإن كانوا سيحاربون قوماً منهم:

خِزى الحياةِ(٢) وحرب الصديق(٣)

وكـــل أراه طعاماً وبيـــلاً

فإن لم يكن غير إحداهـــما

فسيروا إلى الموتِ سيراً جميلا

---

(1) ديوانا عروة بن الورد والسمؤال بن عاديا ، ص ١٧.

(2) المفضليات ص ٥٩ – خزي الحياة : إن خذلوا حلفاءهم.

(3) إن حابوا غطفان مع حلفائهم.

وفي الحلم، نتذكر قيس بن عاصم المنقري، وهو مخضرم، وهـو جـالس محتبياً يحدث قومه إذ جئ له بابن أخيه وقد قتل ابناً له، فلم ينقض حبوتـه ولـم يقطع حديثه، وأمر بفك وثاق ابن أخيه، ولم يزد على أن ذكره بأنه نقص عـدده، وأوهن عضده، وأشمت عدوه، وأساء قومه. ثم أمر بدفن ابنه وبـدفع ديتـه إلـى والدته مواساة لها ، وقال :

إني أمرؤ لا يعتري خلـــقي

دنَس يفنـــده، ولا أفـــن[١]

من منقرٍ في بيتِ مكـــرمةٍ

والغصن ينبتُ حوله الغُصـن

وهذا جزء من قصيدة لعبد قيس بن خفاف، أنشأها ليسوس بها أبنه جبيـل، فكانت سجلاً لكثير من الخلق العربي ولما وصل إليه بتجاربه ونظره عن بعض ما كان يراه العرب في الجاهلية من فضائل وأخلاق كريمة: [٢]

والضيفَ أكرمه فإن مبيتـه

حق ولا تك لعنةً[٣] للنُزل

([1]) افن من الافن وهو الحمق.

([2]) المفضليات ، ص ٣٨٥/٣٨٤.

([3]) من يلعنه الناس كثيراً.

واعلم بأن الضيفَ مخبر أهلِـهِ

بمبيتِ ليلته وإن لم يسـ ـأل

واترك محل السوء لا تَحلَّل بـهِ

وإذا نَبا بك منزلٌ فتحـ ـول

وإذا هممتَ بأمر شر فـأتئِـد

وإذا هممتَ بأمر خيرٍ فأفعل

وإذا تَشَاجر في فُؤادك مـرةً

أمران، فاعمد للأعف الأجمل

علي أنه مهما عرف العرب من فضائل ومكارم أخلاق، فلا ينبغي للباحث أن ينسى الإشارة إلى أنهم في هذه الحقبة من تاريخهم لم يكونوا يفعلـون الخيـر لذاته فحسب، بل واتقاء للذم، واجتلاباً للثناء، ومحافظة علـى الحـسب والمجـد، وطلباً لحسن الأحدوثة.

ولهذا كان فيهم عفة، واعتدال، وزهادة في اللذات إن كان فيها مـا يخـل بالمروة، والأمثلة لذلك جد كثيرة، تقدم بعضها ونذكر بعضاً آخر.

يقول حاتم الطائي: (١)

أيا ابنةَ عبد الله وابنةَ مـالكٍ

ويا ابنة ذِي البردين والفَرس الوردِ

([1]) ديوان حاتم ، ص ٤٣ كرر كلمة ابنة والمراد واحدة وذلك لاختلاف المضاف اليه والقصد تفخيم امرها وذى البردين هو عامر بن احيمر بن بهولة.

إذا ما صنعتِ الزاد فالتمسي له

أكيلاً ، فإني لستُ آكلُه وحـ ـدِي

أخاً طارقاً أو جار بيتٍ فإنـ ـني

أخافُ مذماتِ الأحاديثِ من بعدِي

ويقول قطبة بن محصن الملقب بالحادرة: [1]

إنا نعف فلا نريب حليفنـ ـا

ونكف شح نفوسنا في المطمـ ـع

ونقي بآمن مالنا احسابنـ ـا

ونجر[2] في الهيجاء الرماح وندعي[3]

وقد تقدم أن عمرو بن الأهتم يؤكد أنه شفيق على الحسب الرفيع، وأن كل كريم يتقي الذم بالقري. وأخيراً في هذه الناحية نذكر قول المثقب العبـ دي، وهـ و عائذ بن محصن بن ثعلبة، من قصيدة فيها الوصاة بكثير مـ ـن الخلـ ـق الكـ ـريم، والوفاء، وإكرام الجار، والحلم، وتجنب الرياء:

([1]) المفضليات ، ص ٤٥. يقول نمنع انفسنا من البخل عند طمع الطامع فى معروفنا.

الحادرة هو قطبة بن اوس بن محصن شاعر جاهلي يلقب ايضاً بالحويدرهة ذكره بن سلام في الطبقة التاسعة من شعراء الجاهلية.

([2]) من الأجرار، وهو ترك الرمح في المضروب ليكون ذلك أعنت له.

([3]) ندعى: ننتسب عند الضرب.

أجعلُ المالَ لعرضِـي جنةً

إن خير المال ما أدى الذمـم

كما نذكر أيضاً قول علقمة بن عبدة، وهو من فحول شعراء الجاهلية: [1]

والحمد لا يشتَري إلا له ثمن

مِما تضن به الأقوام معلـ ـوم

والجود نافيةٌ للمـ ـال مهلكةٌ

والبخلُ باقٍ لأهليه ومذْمـ ـوم

وقال تأبط شراً: [2]

عاذلتي إن بعض اللؤمِ معنفة

وهل متاع وإن أبقيته باق

على أن هذا لا يعيب العرب في شئ، فقد يرون الخير على سائر ضروبه وألوانه أمراً جميلاً ممدوحاً، ثم يفعلون – كما قلنا – محافظة علي المجد والحسب، وطلباً للمجد وحسن الذكر، وهذه غاية أو لذة معنوية شريفة سامية، وليس فيها أي عاب. فإن العرب قبل الإسلام كانوا كما رأينا على شئ من التفكيـ ـر الأخلاقـ ـي، ومعرفة بالفضائل وعمل بها. ، أن منهم من حام حول فكرة "الفضيلة والمعرفـ ـة" معاً. وبعد هذا الايجاز نريد أن نفصل القول مبينين كل فضيلة.

(١) المفضليات ص ٤٠١.

(٢) المفضليات، ص ٣٠ معنفة: من العنف والعاذلة: اللائمة وفي الديوان ص ٥١ دار صادر بيروت طلال حرب ، تأبط شرا كان احد لصوص العرب المغيرين .

المبحث الثاني

الكـــــرم

قال بن سيدة: "الكرم هو نقيض اللؤم يكون في الرجل نفسه، وإن لم يكـن له آباء"[1] وقال الفراهيدي: "الكرم: شرف الرجل "[2]، ويعنـي الـصفات التـي يشرف بها المرء، والتي تصنع لصاحبها مكانة اجتماعية راقيـة تجعـل الجميـع ينظرون إليه بعين التقدير والإعجاب: وهو أيضاً من صفات الكمال الخلقي التـي يتحلى بها إلى مكارم الأخلاق. والكرم خلق وسجية وطبع يـنم عـن إرادة قويـة وعزيمة لا تقهر، لأن الذي تتعلق به تلك الصفات، يكون علي قـدر كبيـر مـن الصبر عليها، لأنها تقاوم عوامل البخل والشح في نفس الإنسان وتعلو فوق مطلب الأثرة الضيقة. والكرم أيضاً من صفات الخير التي يجب أن يجعل بها، كما قـال حصن بن حذيفة يوصي إبنه: " .... وعجلوا القرى فإن خيره أعجلـه، وأعطـوا على حسب المال)[3] والكرم عند العرب هو تقديم القرى للضيف. أي أنه عطـاء مقصود به إكرام الضيف وقضاء حاجته، وإيناس وحشته، وتبديد همه وكربه، وقد ورد في كتاب تاج العروس أن "الكرم لا يقال إلا في المحاسن الكبيـرة، كإنفـاق مال في تجهيز غزاه وتحمل حمالة يوقى بها دم قوم. قيل الكرم إفادة ما ينبغـي لا

---

[1] لسان العرب لابن منظور، مادة كرم ج١٢ص٥١٠، دار صادر بيروت بدون تاريخ.

[2] كتاب العين: الخليل بن احمد الفراعيدي،ج٥، ص٣٦٨ تحقيق مهدى المخزومى.

[3] المعمرون والوصايا لأبى حاتم السجستاني . ص ١٣٣ تحقيق عبد المنعم عامر دار احياء الكتاب العربية-مصر ١٩٦١م.

لغرض، ضمن وهب المال لجلب نفع أو دفع ضرر أو خـلاص مـن ذم فلـيس بكريم". [1]

إذن الكرم من الخصال المعروفه التي لا يرجو المرء من وراء فعلها جزاء ولا شكورا، وإنما يقوم بها بدافع حب الخير للناس وما تمليه عليه نفسه من القيـام بالواجبات الانسانية تجاه الغير. من أجل ذلك فـ (الإكرام والتكريم: أن يوصـل إلي الإنسان بنفع لا تلحقه فيه غضاضة، أو يوصل إليه بشئ شريف) فلا من ولا تقتير، ولكن بذل للندى والقرى بنفس طيبة تدل على السماحة والأريحية. وقد سئل بعض الأعراب عن الكرم فقال: "طعام مبـذول، ونائـل موصـول، ووفـاء لا يحول"[2].

والكرم من الأفعال المحمودة، وتصفه العرب بأنه من أشرف ملابس الدنيا، به يجلب الحمد، ويرفع الذم، ويستر العيب، ويحمي العرض، والجيب، كما قـال الشاعر[3]

نُدافع عن أحسابِنَا بلحومِها

وألبانِها ، إن الكَريم مدافع .

([1]) السيد محمد الزبيدي- تاج العروس، ،ج٩، ص٤١، تحقيق د. مهدي المخزومي ود إبراهيم السمراني.

([2]) الراغب الأصفهاني - محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، ج١، ص ٦٤٧، مكتبة الحياة بيروت.

([3]) الحماسة لأبي تمام، شرح الأعلم الشمنتري، ج٢، ص ١٠٠٨، تحقيق د. علي المفضل حمودان، مركز جمعة الماجد بدبي، ط١، ١٩٩٢م.

فالكرم خلق حميد من مكارم الأخلاق، لذلك حفل الأدب العربي بذكر الكرم والكرماء، يمتدح خصالهم ويعلي ذكرهم، ويضفي عليهم من آيات الشكر ما يعبي اللسان، ويحقر كل بخيل مقتر على نفسه، وقلة شأنه بين أفراد القبيلة، وهـو مـن الفضائل العليا التي يفاخر بها العرب، ويعد من خصال السيادة عندهم وقد أغـرى به حكماؤهم وخطباؤهم، وحثوا على التحلي به، والقيام بأمره، يقـول أكـثم بـن صيفي: "ذللوا أخلاقكم للمطالب، وقودوها للمحامد، وعلموها المكارم، ولا تقيمـوا على خلق تذمونه من غيركم، وصلوا من رغب إليكم، وتحلـوا بـالجود يكـسبكم المحبة، ولا تقتعدوا البخل فتتعجلوا الفقر"[1]. وجاء في كلامهم إن الكرم الحقيـق، إنما يكون مع الإقلال في المال، لذلك قال حكماؤهم: القليل من القليل أحمـد مـن الكثير. وقالوا: جهد المقل أفضل من غنى المكثر[2]، وقيل أيضاً الـضعيف إلى القليل العاجل أحوج منه إلى الكثير الآجل[3] ومنه قول الشاعر:

جهد المقِلّ إذ أعطاك نَائِله

ومكثر فِي الغَنى سِيان فِي الجودِ[4]

([1]) العقد الفريد ، ابن عبد ربه، شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين أحمد الزين وإبراهيم الأبياري. لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٤٨م، ج١، ص ٢٢٦.

([2]) السابق ٢٣٥/١.

([3]) السابق ١/ ٢٣٥.

([4]) محاضرات الأدباء ٦٥١/١.

فالسماحة في الكرم أن تجود وما عندك قليل، لهذا دعا الشعراء إلى الكـرم والبذل وعلى قلة الأموال، لأن الإنفاق من الفضول ليس من السماحة في شئ، وقد أحسن الشاعر بقوله[١]

تلك ابنةُ العدوى قالتْ باطلاً

أزرى بقَومِكَ قِلةُ الأمـوال

إنّا لعمر أبيكِ محمد ضيفُنَــــا

ويسود مقترنًا على الإقلاّل

يقول ابن منظور: "الكريم من صفات الله وأسمائه، وهو الكثير الخير الجواد المعطي الذي لا ينفد عطاؤه، وهو الكريم المطلق .. والكريم الجامع لأنواع الخير والشرف والفضائل.. والكريم اسم لكل ما يحمد، فالله عز وجل كريم حميد الفعال ورب العرش الكريم العظيم .. والكريم الصفوح"[٢]، ونورد كلامـاً للفـراء فيمـا يتعلق بمعنى الكريم، فيقول : "العرب تجعل الكريم تابعاً لكل شئ نفت عنه فعـلاً تنوي به الذم"[٣]. ومن خلال ما أوردناه نري أن الكريم شخص موهـوب يتمتـع بنقاء روحي لا يوجد لدى جميع الناس، ومن ثم يمكننا أن نقول إن الرجل الكـريم شخص حبته الطبيعة بحاسة مرهفة تسمو به فوق حدود النفس الـضيقة. وذكـر

---

(1) الحماسة شرح الشمنتري ٩٧١/٢.

(2) لسان العرب، ج١٢، ص ٥١٠، ٥١٢.

(3) المرجع السابق، ص ٥١٣.

صاحب تاج العروس إن الكريم : "الصفوح عن الذنب "[١]. لأنه عندما يتكرم عن الشئ، فهذا يعني ترفعه عما يشبه، حرصاً على سـلامة نفـسه مـن الاتـصاف بالصغائر والدنايا ومما ذكره الراغب الأصفهاني في تحديد معني الكـريم، قـول بعضهم : "السخي من كان بماله متبرعاً، وعن مال غيره متورعاً "[٢]. والـسخي هو الكريم، لأن السخاء والكرم والجود كلها ذات معنى واحد، وفي هـذه العبـارة يوصف الكريم بالعفة والترفع عن سؤال غيره، وفي الوقت الذي يبذل فيه ماله في سبيل الآخرين .

وقد ركز الشعراء علي وصف الكريم بالشهامة والمروءة والنجدة، وذلـك لما لمسوه من رغبته الصادقة في تقديم يد العون لكل محتاج حتي ليبلغ مدي الظن به إذ يحرص على قضاء وتلبية حاجة المتقي أكثر من حرص صـاحب الحاجـة نفسه، وعادة ما يؤثر غيره علي نفسه، طاوياً بطنه من الجوع، وهذا قمة التفضل على الآخرين، فالكريم إذاً رجل فاضل يحب الخير للناس ويتلف ماله في الكـلام والبذل والعطاء لإشباع رغبة تتململ في داخله بأن يكرم، لذلك يوصف بأنه نـدى الكف، يجود كما يعبث، وللبذل والندى في نفسه طعم ومذاق خاص، فلا غـرو إذا تواتر الناس على القول بأن الكرام هم أسياد الدنيا ، وأنهم قلة بين اللئـام وبـاقي البشر.

([1]) تاج العروس ، ج ٩ ، ص.١٤.

([2]) محاضرات الأدباء ، ج١ ، ٦٤٨ .

كما قال الشاعرالسموأل بن عاديا: [١]

تعيرنا أنّا قليلٌ عديدنا

فقلت لها إن الكرام قليلٌ

ولعل لدى الجاهلي أن أبرز صفات السيادة في القبيلة، صفة الكرم، فالكرم يتمتع بوضع اجتماعي فتميز بين عشيرته، واضح النفوذ، مسموع الكلمة يستـشار فيما يهم القبيلة من أمور، من أجل هذا حرص العرب على حيازة هـذه الـصفة، والبعد عن الاتصاف باللؤم وهذا يبرز في قول حاتم :

يقولون لي أهلكتَ مالك فاقْتصد

وما كنتُ لولا ما تقولون سيدا[٢]

بمعني أن جوده وكرمه جعلاه في مقدمة أهل القبيلة حيث تبوأ مكاناً عالياً. وقالت العرب: "من تمام الضيافة: الطلاقة عند أول وهلة"[٣]، ويعتبـر الترحيـب بالضيف ومقابلته ببسط الوجه أولي مراحل الكرم. وفي هذا يقول حاتم :

سلي الجائع الغرثان يا أم منذِر

إذا ما أتاني بين ناري ومجزري

([1]) لعقد الفريد ج١ ص١٩٢، والحماسة مختصر شرح التبريزي ، ج١ ، ٥١.

([2]) ديوان حاتم ، ص ٧٥ .

([3]) الجاحظ- البيان والتبيين ، تحقيق عبدالسلام هارون بيروت ط٤ د.ت. ج١ ، ص ٣٣ ، الغرثان : لا يملأه الحضر وكأنه غرثان قال والحراس در ووشحاً غراثى وفي الحديث كل عالم غرثان على علم أي جائع.

هل أبسطُ وجهي إنه أول القِرى

وأبذلُ معروفي له دون منْكري[1]

وهذا يؤكد عند الجاهلي أن المقابلة الطيبة أمر لابد منه لأنه علامة الكـرم الحقيقي، ولا يعني عنه كثرة المأكول، يقول شاعرهم في ذلك:

أُضاحك ضيفي قبلَ إنزال رحـْـــلِهِ

ويخصِب عندي والمحل جدِيب

وما الخِصب للأضيافِ أن يكْثُر القِرى

ولكنما وجه الكريمِ خصيـب[2]

ويقول أعرابي:

نَقْريهم الوجه ثم البذلُ يتبعـُــه

لا نَتْرك الجهد منا قل أو كثُرا[3]

وقال آخر :-

أبسطُ وجهي للضيوفِ النزل

والوجه عنوان الكريمِ المفضل[4]

([1]) الجاحظ - البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣. تحقيق عبدالسلام هارون بيروت، ط٤ د.ت.

([2]) البيان والتبيين ، ج١ ، ص ٣٤ .

([3]) محاضرات الأدباء ، ج١ ، ص ٦٥٤

([4]) محاضرات الأدباء ، ج١ ، ص ٦٥٤

وأروع ما قيل في ذلك قول زهير في هرم بن سنان :

تراه إذا ما جئته متـ ـهللاً

كأنك تُعطيهِ الذي أنتَ سائلُه(١)

ويدخل أيضاً في إكرام الضيف الحديث إليه واعتبار البيت بيته والفـراش فراشه وكلهم تمثل عندهم كمال الكرم وتمام الضيافة كما قال عروة :

فراشي فراشُ الضيفِ والبيتُ بيتُه

ولم يلهني عنه غزالٌ مقنَع

أحدثه إن الحديثَ من القـ ـ ـرى

وتعلم نفسى أنه سوفَ يهجع(٢)

وهذا ما يدل على اهتمامهم بالضيف وعدم انشغالهم عنه حتى لـو كانـت هناك أمرأة كالغزال في الحسن والجمال، وأيضاً يدل على هذا قول الشاعر :

وإنا لمشاؤون بين رحالنـ ـ ـ ـا

إلى الضيفِ منا لاحقٌ ومقيم

فذو الحلمِ منّا جاهلٌ دون ضيفِهِ

وذو الجهل منّا عن أذاه حليـم(٣)

---

(1) ديوان زهير ص ٦٨.

(2) الحماسة ، مختصر شرح التبريزي ، ج٢ ، ص ٣١٤ .

(3) الحماسة ، مختصر شرح التبريزي ، ج ٢ ، ص ٢٤٧.

دوافع الـكرم

الظروف الطبيعية التي عاشتها البادية، كانت من أهم بواعث الكـرم عنـد الجاهليين، وكان عامل الرحيل والانتقال في بطون الـصحراء، وعـدم وضـوح مسالكها، واحتمالات الضياع بين قطعانها، مما مكن لهذه الفضيلة أن ترتكز فـي نفوسهم بدرجة كبيرة فالعربي كان يكرم ليكرم ويعطِم ليطعم، ويعطي ليعطى، لأن حياة الصحراء غير مأونة وقد يتعرض لنفس الموقف الذي يتعرض لـه طالـب القري، فالكرم هنا واجب إنساني، وتقليد عربي حرص عليه العرب في العـصر الجاهلي، والجزيرة العربية أكثر ما تعاني من الأزمات في وقت الشتاء، ولكـنهم يشيدون بالكرم إذا جابت الأرض وكفت السماء، لأنه كرم فـي وقـت تحـرص النفوس فيه على البقاء والإحتفاظ بالمال فهو كرم جدير بالثناء(١) يقـول الـشاعر (أعشى قيس) في ذلك:

إذا احمر آفاقُ السماء وأعصفتِ

رياح الشتَاءِ واستهلّت شهـــورها

ترى إن قدري لا تزال كأنّـها

لدى الخائف المقرور أم يزورهـا(٢)

---

(١) الحياة العربية، الحوفي ص ٣١٣.

(2) الديوان ص ٦٧ ،دار صادر بيروت ١٩٩٦م

وقال زهير بن أبي سلمي :

من لا يذاب له شحم السديف إذا

زار الشتاء وعزت أثمن البدن

وقد بالغ طرفة بالإشادة بكرم قومه حين الشتاء، ونزول الصقيع، وإحمرار آفاق السماء، حتى كان الثلج في نزوله شحم دقيق كالذي يرى على الأمعاء :

وإنا إذا ما الغيم أمسـى كأنه

سماحيقُ ثربٍ وهي حمراء حرجفُ

تبيتُ إماء الحي تطهي قدورنا

ويأوي إلينا الأشعثُ المتجـرفُ[١]

وكان العرب أكثر إهانة لأموالهم في زمان السوء أو حين يعـنن بـالزاد، حيث تكثر الأموال والشدائد وأسباب الموت والفناء، ومن ثم يكون لكرمهم معنـى أعمق. قال الأعشى:

المهينين مالهم في زمان السـوء

حتى إذا أفاق أفاقـوا

وإذا ذو الفضول ضن على المولى

وصارت إلى خيمها الأخلاقُ

---

(1) ديوان طرفة ، ص ٦٨ ، دار صادر ، بيروت ١٩٦١ ، تقديم كرم البستاني ،

سماحيق: القطع الرقاق من الغيم، الثرب: الشحم الرقيق، الاشعت المتجرف:المغبر الرأس الذى جرفت السنون ماله.

ونرى العربي بطبعه يميل إلى مكارم الأخلاق، وإلى ما علا من شـأنه أن يعلي من ذكرهم في أوساط العرب ومجالسهم، وقد جمعت العرب أخلاق الـسيادة في مجموعة من الخصال، كأن أهمها الكرم ولأن الصحراء يكثر حينهـا المـوت والهلاك والجوع، فإن البذل والعطاء أحوج ما يكون في تلك الظـروف والبخـل والقصور عن أداء الكرم خطيئة، بل رذيلة لا يغرفها المجتمع العربي ، فـدخلت المبالغة إلي الكرم حتى عد اداؤها حماية للعرض من الذم، أي أن الكـرم أصـبح خلقاً اجتماعياً وفضيلة من الفضائل التي يعرضها النظام القبلي في مثل ذلك قـال حسان بن ثابت[1]:

المالُ يغشى رجالاً لاطباخ بهم

كالسيل يغشى أصولَ الدندن البالي

أصون عرضي بمالي لا أُدنسه

لا بارك اللهُ بعد العِرض في المال

أحتالُ للمال إن أودى فأجمعه

ولستُ للعِرض إن أودى بمحتال

الفقر يزري بأقوامٍ ذوي حسب

ويقتدي بلئامِ الأصل أنـــــذال

([1]) مختصر شرح الحماسة، ج٢، ص ٣٠٠ – ٣٠١.

وقال حاتم[1]:

وإني لأخزى أن تُرى بي بطنةٌ

وجاراتُ بيتي طاويات ونُحفُ

وإني لمذموم إذا قيل حاتـ ـم

نبأ نبوةً إن الكريم يعنـ ـ ـفُ

وأجعلُ مالِي دون عِرضِي إنني

كذلكم مما أفيـ ـد وأتلـ ـ ـفُ

وقال تأبط شراً :[2]

إني زعيم لئن لم تتْركوا عذلي

أن يسئل الحي عني أهلُ آفاق

إن يسئل القوم عني أهل معرفة

فلا يخبرهم عـ ـن ثابت لاق

سدد خلالك من مال تجمعه

حتي تلاقي الذي كل امري لاق

([1]) الديوان، ص ١٠١ – ١٠٢.

([2]) تأبط شراً ، الديوان، ص ٥١ ، المفضليات، ص٣٠، [زعيم: كفيل ومين، ثابت: يقصد نفسه، الخلاف: الحاجة والقصر وبالفتح: الخصال].

وقال ربيعة بن مقروم:[١]

وأبني المعالي بالمكْرمات

وأُرضي الخليلَ وأُروي النديما

ويحمد بذلي لــه معتف

إذا ذم من يعتفيــــــهِ اللئيما

والجاهلي شديد الولع بحسن الذكر وطيب الثناء؛ لذلك كان حرصــه علــى إكرام ضيفه حتى يفوز بذلك الشرف بين قبائل العرب يقول حاتم: :[٢]

أماوي إن المالَ غاد ورائح

ويبقى من المال الأحاديثُ والذكر

وقال عمرو بن الأهتم : :[٣]

ذريني فإن البخلَ ياام هيثم

لصالح أخلاق الرجال سروقُ

ذريني وحطي في هواي فإنني

على الحسبِ الزاكي الرفيع شَفِيقُ

([1]) المفضليات، ص ١٨٣، [الخليل: الصاحب، المعتف: المعترض من غير مسألة.]

([2]) ديوان حاتم، ص ٨٣.

([3]) المفضليات، ص ١٢٥، هو عمر بن سنان هو الأهتم كان سيداً في قومه لقب بالمكحل، كان شريفاً جميلاً بليغاً وشاعراً.

وقال لبيد : :[١]

أقي العِرض بالمال التلاد واشتري

به الحمد إن الطالب الحمد مشتري

وكم مشترٍ من مالِهِ حسن صيتِهِ

لأيامه في كل مبدي ومحضِرِ

وتلتمس دافع من وراء هذا الشعر وهذا استشراق البدوي إلى إنقـاذ حيـاة طالب القرى، والحفاظ على حياته، وكأنما يريد بذلك أن يصل أسباب الحياة حتى لا تتقطع، وإلا فما معنى أن يحرم نفسه من الزاد والزاد حاضر، ويبيـت هـضيم الكشح، مضطمر الحشا تاركاً لغيره هذا الزاد مع إمكان مشاركته فيه. ويتضح هذا المعنى في قول حاتم:[٢]

أما والذي لا يعلم الغيب غيره

ويحي العظام البيض وهي رميم

ألف بحلسي الزاد من دون صحبتي

وقد آب نجم واستقل نُجـــوم

[1] ديوان لبيد، ص ٦٧، دار صادر بيروت ، التلاد: المال الموروث ، العرض: طيب الثناء.

[2] الحماسة، ج١، ٤٧٧، مختصر شرح التبريزي أمين عبد العزيز ١٩٥٥، مطبعة علي صبيح بمصر، وديوان حاتم ، ص ٨٦، دار صادر بيروت. رميم: بالية آب : غاب، واستقل: ارتفع – ما يوضع على الدابة تحت السرج.

وقال دريد بن الصمة في رثاء أخيه:[١]

تَراه خميص البطن والزاد حاضر

عتيداً ويغدو في القميص المقدِدِ

وإن مسه الإقواء والجهد زاده

سماحاً وإتلافاً لما كان في اليد

وقال آخر:

وزاد رفعت الكف عنه تكرماً

إذا ابتدر القوم القليلَ من البقل

وقال حاتم :[٢]

وإنك مهما تُعطِ بطنَك سؤله

وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا

أبيتُ خميص البطن مضطمِر الحشا

حياءً أخافُ الذم أن أتضلعا

ونري من خلال هذا الشعر أن الكرم من خصال السيادة في المجتمع العربي القبلي؛ لذلك كلف به العرب إلى حد بعيد، وجعلوه في مقدمة الفضائل

---

(1) الأغاني ، ج١٠، ص٥، هو دريد بن الصمة شاعر فحل فارس وشجاع وجعله محمد بن سلام أول شعراء الفرسان.

(2) ديوان حاتم ، ص ٩٩.

الخلقية، التي حرص عليها العرب؛ لأنها تمثل مكارم الأخلاق، وجمال المرؤة من ذلك قول الطائي[١]

يقولون لي أهلكتَ مالك فأقْتصِد

وما كنتُ لولا ما تقولون سيدا

وقال عمرو بن الأهتم[٢]

مكارم يجعلن الفتى فِي أرومة

يفـــاع وبعض الوالدين دقيقُ

مظاهر الكرم

نلتمس من مظاهر ذلك الكرم ومدى وضوح الدلالة على الفعـل، ودرجـة تأصله في النفوس، حتى صار علامة بارزة عرفت بها أمة بأجمعها .

ولعل من أبرز تلك المظاهر، فرح العرب الشديد بالـضيف والاستبـشار بمقدمه وحلوله. وقد بالغ العربي في الاهتمام بضيفه والعناية إلى أقصى حد. وكان هذا الاهتمام نابعاً من أن "الامتناع عن إكرام الضيف، أو الإضرار به بعد قبولـه يعتبر جريمة من الجرائم ضد مبادئ الأخلاق والشرف المعترف بها في الباديـة "[٣]؛ لذلك أخلصوا القيام بواجب الضيافة حتى صاروا له كالعبيد

---

(1) ديوان حاتم ، ص ٧٥.

(2) المفضليات، ص ١٢٧.
الأرومة: أصل الشيء ومعظمه – اليفاع: المرتفع .

(3) عصر ما قبل الإسلام، محمد مبروك نافع، طبعة القاهرة، ص ٢١٠، ١٩٨٤م.

يقول حاتم[1]:

وإني لعبد الضيف ما دام ثاوياً

وما فيَّ إلا تلك من شيمة العبدِ

ومن شدة عنايتهم بالضيف صاروا يوصون بالاهتمام بـه وإكرامـه؛ لأن الإخلال بذلك يعني نقصاً في المروة وما يتبع ذلك من سوء الـذكر فـي أوسـاط العرب، والاتصاف باللؤم، وفساد النفس. من أجل ذلك حرصوا على أن يـذكروا بطيب الثناء في مجالسهم.

ومن البيت يفهم مدى حرص العربي على سلامة عرضه مـن الـشتم أو إساءة الظن به، لما عنه يخبر الضيف الذي ينزل به، ونلمح أيضاً في البيـت أن الكرم انتقل من مجرد عادة أو فضيلة ليتصف بها العربي، إلى واجب يفرضـه المجتمع القبلي، فلا مناص من القيام بها وأدائها وإلا سـارت الركبـان بخبثـه ولؤمه.ومن الوصايا المأثورة في شأن العناية بالضيف قول ذي الأصبع العدواني لأبنه: [2]

إبني أن المالَ لا يبكِي

إذا فقــد البخيـــلا

---

(1) ديوان، حاتم، ص ٧٧.

(2) الأغاني، ج٣، ص ٩٥ ، ٩٦ دار الثقافة بيروت ١٩٦٥م. ذو الاصبع العدواني اسمه حرسان شاعر جاهلي وفارس قديم وهو من الحكماء يقال انه عاش ١٧٠ عام.

وابسطْ يمينك بالندى

وامدد لها باعاً طويلا

وابذُل لضيفِك ذاتَ رحلِك

مكرماً حتى يـزولا

واحللْ على الإيفاع لِلْ

عافين واجتنب المسيلا

وقال القلمس، وهو عوف بن أمية: "أوصيتكم بالضيف، فإن كلا لا يـسمع منه حتى يقول الضيف فلا يخرجن من عندكم وهو يستطع أن يقول فيكم"[1] ومن المبالغات الطريفة في أمر إكرام القرى، التي تصور منتهى الكرم ومدي سـيطرة تلك الروح على العرب، قول حاتم[٢] :

قدوري بصحراء منصوبة

وما ينبح الكلاب أضيافه

وإن لم أجد لنزيلي قِرى

قطعتُ له بعض أطرافه

([1]) المعمرون والوصايا، أبو حاتم السجستاني تحقيق عبد المنعم عامر، دار إحياء الكتب العربية بمصر ١٩٦١م، ص ١١١.

([2]) ديوان حاتم، ص ١٣.

ومن مظاهر الكرم أيضاً الإنفاق علي ذوي القربى والرحم، وإتلاف المـال على الجيران والسائلين. من ذلك قول منصور بن مسجاح الضبي[(١)]:

ومختبط قد جاء أو ذي قرابةٍ

فما اعتذرتُ عليه ولا نفسي

حسبنا ولم نسرح لكى لا يلومنا

على حكمة صبراً معودة الحبس

وقال حاتم: [(٢)]:

لا تعذليني على مالٍ وصلت به

رحما وخير سبيل المال ماوصلا

وقال الأبرص:

إني وجدك لو أصلحتُ ما بيدي

لم يحمد الناس بعد الموت إصلاحي

أشري التلاد بحمدِ الجار أبذله

حتى أصير رميماً تحت ألـ ـواح

([1]) الحماسة بشرح الشمنتري، ج٢، ص ١٠١٢، ومختبط: طاب المعروف والكسب اللسان ص (١٣) مادة خباط، صبرا: جمع صبيرة وهو شاعر جاهلي (منصور).

([2]) ديوان حاتم، ص ٤٠، تحقيق وشرح د. حسين نصار، شركة ومكتبة البيتاي الحلبي.

وقال لبيد:

وإذا شَتَوا عادت على جيرانهم

رجح تُوفيها مـــرابع كُــوم

وقال حجر بن حية العبسي(١)

ولا أدوم قدري بعد ما نضجت

بخلاً لتَعام مــــا فيها أثَافِيها

ولا أحرم الجارةَ الدنيا إذا اقتربتْ

ولا أقــدم بها في الحي أخْزيها

وأكثروا من الإنفاق علي المحتـاجين والـسائلين، وغمـروهم بعطـائهم وفضلهم، لا سيما في وقت الأزمات وزمان العسرة، فصاروا يمتدحون بذلك، يقول حسان بن ثابت(٢)

إذا ما ليد الحي لم يسقى شربةً

وضن عليه بالصبوح مراضعه

وراحت جلاد الشول حدباً ظهورها

إلى مسرح بالجو جدب مراتعه

---

(1) الحماسة ، السمنتري ،ج ٢ ، ص ١٠١٤ تدويم : تسكين القدر بالماء

(2) ديوان حسان بن ثابت' ص ٣٢٠ ، ضبط وتصحيح عبد الرحمن البرقوقي ، دار الاندلس للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨٧م .

شربة: الواحدة من الشرب، الصبوح: اللبن اوالخمر صباحا، مراضعه: جمع مرضع، جلاد الشول: النياق القوية، المسرح:المرعى، الجو:الارض الواسعة.

ألسنا نكب الكوم وسط رحالنا

ونستصلح المولى إذا قلّ رافعه

وقال أبو ذؤيب الهذلي إنهم إذا أتى الشتاء وأجدبت الأرض وضاق الناس، ينحرون الإبل، ولكنهم لا ينحرون واحدة، بل ينحرون مجموعة من الإبل، ما بين العشرين إلى الثلاثين وذلك كناية على عظم كرمهم وإسرافهم في بذل المعروف[١].

لنا صرم ينحرن في كل شتوةٍ

إذا ما سماء الناس قل قطارها

وتعد الخنساء كرم أخيها صخر، في السنين المحارد التي لا مطر فيها، عندما تكون الرياح شديدة البرودة والسماء متكثفة الغيوم ويكون كرمه، في الوقت الذي يمسك غيره خشية الإنفاق[٢] :

المستضاف من السنين

إذا قسا منها المحارد

حين الرياح بلائل

نكب هوائجها صوارد

([1]) شرح أشعار الهزليين، السكري، ج١، ص ٧٨، [الصرمة : جسم الإبل ما بين ١٠ -٢٠ ويقال لجماعة الناس، صيغة أبي سعيد الحسن السكري ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج راجعه محمود حمد شكار ، ج١، مكتبة دار العروبة القاهرة.

([2]) ديوان الخنساء، ص ٣٥، دار صادر بيروت ١٩٦٣م، تقديم كرم البستاني ، المحاردم : حاردت السنة قل ماؤها ومطرها، الصرد: البرد وقيل شدته.

ينفين عن ليط السماءِ

طلائلاً والماء جامد

مزقاً تطردها الرياح

كأنها خرقٌ طرائد

والمال عند ذوى البقية

والغنى خذم شرائد

ومن دلائل الكرم عند الجاهليين، العناية بالايتام والأرامل الذين غالهم الدهر، ففقدوا من يعولهم، فامتدت اليهم أيدي المحـسنين فانتـشلتهم فقـال زهير(١):

أليس بفياض يداه غمامةٌ

ثمال اليتامى في السنين محمدٍ

صور الكرم

من خلال الشعر الجاهلي الذي يعكس حياة الجاهلي نري أن المال عنـدهم وسيلة لا غاية وسبب في جلب المحامد، ودفع المذمات، وأيضاً سـبب فـي أداء الواجبات التي تمليها الظروف البيئة التي يحياها العرب في تلك البوادي الفقيـرة، وكان إنفاق المال في رأيهم واجباً غير مظنون به، وإنما هو عن الصواب، لـذلك نجد الشعراء يرفعون ملاحاة أزواجهم لهم، ولومهم بإتلاف المال في الكرم، حيث

---

(1) ديوان زهير، ص ٢٣..

لكن يصفنهم بالضلال مرة وبالسفاهة وفصل الرأي مرة أخري. وفي ذلـك يقـول حاتم: (١)

وعاذلة هبت بليل تلومنـ ـ ـي

وقد غاب عيوق الثريا فعـردا

تلوم علي إعطائي المالَ ضِنة

إذا ضن بالمال البخيلُ وصـردا

تقول إلا أمسك عليك فإنني

أرى المالَ عند الممسكين معـبدا

ذريني وحالي إن مالك وافر

وكل أمرئٍ جار على ما تعودا

ذريني يكن مالي لعِرضي جنّةً

يقي المالُ عرضي قبل أن يتبددا

أريني جواداً مات هزلاً لعلني

أري ما ترين أو بخيلاً مخَـ ـلدا

وقال أيضاً : (٢)

وإنا نهين المالَ فى غير ظِنة

وما يشتكينا فى السنين ضريرها

([1]) ديوان حاتم، ص ٧٤.

([2]) ديوان حاتم، ص ٩٣

والمال في نظره[١]

يفك به العاني ويؤكلُ طيباً

ويعطى إذا من البخيلُ المطردا

والبيت يؤكد أن دافع الكرم هو وجوه الخير وإغاثة الضعيف المحتاج وليس في الشهوات والملذات.

وكما نعلم أن الصحراء مهلكة متلفة، قليلة الزاد كثيرة المخاطر، الشئ الذي ألهب مشاعر النخوة والكرم عند العرب ، لا سيما في زمان الـشدة والأزمـات، حيث يكون لإطعامهم أبلغ المعاني وأتمها وتقول جنوب أخت عمر ذي الكلب: [٢]

وليلة يصطلي بالفرث جازرها

يختص بالنقرى المشرين داعيها

لا ينبح الكلب فيها غير واحدةٍ

من العشاء ولا تسـ ـرى أفاعيها

أطعمت فيها على جوعٍ ومسبغةٍ

شحم العشـ ـ ـ ـار اذا قام باغيها

([1]) ديوان حاتم، ص ٧٠

([2]) شرح اشعار الهذليين لعسري ، ج٢ ، ٥٨٢ . النقري : أي يدعو واحداً ومن ذلك قول الشاعر:

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلفّ على خيشومه الذنبا

ويفتخرون بتقديم الأبل الجيدة لإكرام ضيفهم السمينة فيقول تميم بن مقبل:[1]

ونطعم الضيف معبوط السنام إذا

ألوت رياح الشتاء الهوج بالخطر

وقال حسان : [2]

وإنّا لنقري الضيف إن جاء طارقاً

من الشحم ما أضحى صحيحاً مسلماً

وافتخروا بالقدر التي يطهي عليها الأكل والجفان.

قال حاتم :

وأبرز قدري بالفضاء قليلُها

يرى غير مضنون به وكثيرها

(١) ديوان تميم بن مقبل، ص ٩٠ . (تميم بن مقبل هو شاعر جاهلي ادرك الأسلام واسلم).

(٢) ديوان حسان ، ص ٣٢١ من غير علة ولا مرض .

وقال عوف بن الأحوص :[١]

ترى أن قدري لاتزال كأنها

لذى الفروة المقرور أم يزورها

مبرزة لا يجعل الستر دونها

إذا أخمد النيران لاح بشيرها

قال المثقب العبدى[٢]:

مترع الجفنةِ ربعي النـــــدى

حسن مجلسه غير لُطُـــم

وكان من كرمهم أيضاً تقديم الخمر للضيفان فكانت عادة يفتخرون بها

ويصف هذا طرفة في شعره إلي يقول[٣].

كـــريم يروي نفســه في حياتِهِ

ستعلم إن متنـــا غداً أينا الصـــدي

أري قبر نحام بخيـــلٍ بماله

كقبر غوي في البطالـــةِ مفســد

([1]) المفضليات ، ص ١٧٦ ، ١٧٧ ذو الغروة: السائل المستجدل، وفروته: جعبته، المقرور: الذي أشتد به.

([2]) المفضليات ، ص ٢٩٤ المترع: الملآن، الربعي: المتقدم في الكرم أي كرمه قديم وأصل الرييعي: ما ولد في الربيع وقيات للرجل إذا ولد له في شبابه ، ولطم : فتح الطاء: صيغة مبالغة من اللطم وبالضم لا يتلاطم في مجلسه.

([3]) شرح المعلقات السبع ، الزوزني ، ص ١٠٧. وفي الديوان ص٣٣ التى مطلعها:

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم في ظاهر اليد

نحام:البخيل الحريص يقول هويمت ريان لكرمه في الدنيا وعاذله يمت عطشان.ويرى قبر البخيل الضال الحريص على ماله كقبر الضال في بطالته المفسد لماله.

ويفتخرون أيضاً بأنهم يكرمون الضيف من شريف مالهم لا من مال الميسر يقول لبيد. [1]

وجزور أيسار دعوت لحتفها

بمغالق متشابه أجسامـُـــــها

أدعوبهن لعاقـرٍ أو مطفـلٍ

بذِلَتْ لجِيران الجميــع لِحامهـا

فالضيفُ والجار الجنيب كأنما

هبطا تبالةَ مخْصِباً أهضامهـــا

وإننا نلتمس في شعر حاتم بذل المال والإنفاق، لا للفخر، بل مخاص لـه، لذلك فقد ربح في كسبه، وأكرم به من ربح، وتظهر ومضاته الإيمانية منها :

كلوا الآن من رزق الإله وأيسِروا

فإن على الرحمن رزقكُم غدا

ولا يفوتني أن أذكر في أبيات بسيطة في الفروق بـين الكـريم للـشهرة والكريم من أجل الفضيلة أي الفرق بين أصحاب المال المكثرين وبـين الكرمـاء المقلين .

وأني لعف الفقر مشترك الغنــي

وودك شكلٌ لا يوافقهً شكلِــي

---

[1] ديوان لبيد، ص ٧٥.

وشكلي شكلٌ لا يقوم لمثلِـــــه

من الناس إلا كلُّ ذي نيقةٍ مِثلـي

ولي نيقةٌ في المجدِ والبذل لم تكن

تأنقَها فيما مضى أحد قبلـــى

وقال زهير : (١)

على مكْثِريهم رزقُ من يعتَريهم

وعند المقلين السماحةُ والبذلُ

وقول الأعشي :(٢)

ما النيلُ أصبح زاخراً من مدهِ

جاءت له ريح الصبا فجرى لها

يوماً بأجود نائلاً منه إذا

نفس البخيل تجهمتْ لسؤالها

الواهب المئةَ الهجان وعبدها

عوذاً تزجى خلفها أطفالُها

والقارح العدا وكل طمرةٍ

ما إن تنال يد الطويل قذالها

([1]) ديوان زهير ، ص ٦٢.

([2]) ديوان الأعشى ، ص ١٥٢- الفارهة: الناقة الكريمة، نكد:الضيق والعسر، المعكاء:الغلاظ الشداد، سعدان:نبت تسمن عليه الابل، فنقها: نعم عيشها، الهواجر: الحر الشديد، الجرد: الموضع الذي لا ينبت فيه شئ ، عوذا: الحديثان النتاج ، القارح: الحمل الذي اكتملت أسنانه ، قذافها : مؤخرة رأسها ، العدا: شديد العدو، خلفها: الفرس الخفيفه.

وقول النابغة:[١]

أعطي لفارهةٍ حلوٍ توابعهــا

من المواهب لا تُعطى على نَكَدِ

الواهب المائةَ الأبكار زينهـــا

سعدان توضح في أوبارها اللبدِ

والراكضاتِ ذيولَ الريطِ فنقها

برد الهواجر كالغزلان بالجردِ

ولعل أبرز من ذاعت شهرته في هذا المضمار، كما ذكرنــا، هــو حــاتم الطائي، فهو أكثر منذ الجاهلية فكرة ينسب إليه فيقال جود حاتمي، وتارة يــضاف إليه فيقال: حاتمي الجود، فهو أسطورة الكرم قال عنه ابن الأعرابي: (كان حــاتم من شعراء العرب، وكان جواد يشبه شعره جوده، ويصدق قوله فعله، وكان حيثما نزل عرف منزله، وكان مظفرا، إذا قاتل غلب، وإذا غنم انهب، وإذا سئل وهب، وإذا ضرب بالقداح فاز، وإذا سابق سبق، وإذا أسد اطلق، وكان يقسم بالله ألا يقتل واحد مه، وكان إذا أهل الشهر الأمم الذي كانت تعظمه في الجاهلية، ينحر كــل يوم عشرة من الإبل، فاطعم لناس واجتمعوا إليه).[٢]

([1]) ديوان النابغة ، ص ٢٣، تحقيق وشرح كرم البستاني دار صادر للطباعة والنشر، ١٩٦٠م – ١٣٧٩هـ.

([2]) الأغاني ، ج١٧ ، ص ٣٦٦ ، دار الكتب العلمية بيروت شرح الاستاذ عبد علي مهنا ، ط٢ ، ١٩٩٢م

والمشهور عن كرمه كان طابعاً وغريزة، وقد عرف بالـشجاعة وعـزة النفس والترفع عن الدنايا ، والتمسك بأكرام الخلال، وأسمي العواطف الإنـسانية وكان ذا روح اشتراكية واضحة لمسناها في شعره من خلال مما اوردنا.

وجاء في كتاب الأغاني أن عبد الملك بن مروان قال : (من زعم أن حاتماً أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد)[1]

ويعتبر عروة الشخصية الثانية التي اشتهرت بين الناس بالكرم، فقد كـان رائعاً في كرمه، يؤثر غيره علي نفسه ويعرض نفسه للمخاطر لأجـل أن يطعـم الجوعي، فهو كان يعطي اتباعه دروساً في الكرامة والحياة الحرة الشريفة، وهـو شاعر من شعراء الجاهلية وفارس من فرسانها وصعلوك من صـعاليكها، وكـان يدعي الصعلوك، لجمعهم أياهم وقيامهم بأمرهم. وكان من شـدة إيثـاره لغيـره، واشراك الآخرين معه الزاد أن شحب وجهه، وهزل جسمه، وكان يشرب المـاء البارد علي الجوع، فيقول في سخرية لاذعة مخاطباً بخيلاً.

اتهزأ مني أن سمنتَ وإن ترى

بوجهي شحوب الحق والحقُ جاهد

وإني امرو عافي إنائي شركـة

وأنت امرو عافي إنائك واحـــد

([1]) الأغاني ، ج٣ ، ص ٧٣ (عروة بن الورد من بنى عبس وكان يقال له عروة الصعلوك وله ديوان شعر مطبوع).

أقسم جسمي في جسوم كثيرة

وأحسو قراح الماء والماء بارد[١]

ومن كرماء الجاهلية أيضاً، عبد الله جدعان اليمني، (وكان من مشاهير الأجواد وممن سارت بجوده الأمثال، في الأقطار والبلاد، وكان يسمي بحاس الذهب، لأنه كان يشرب في إناء من ذهب وقالوا في المثل: (أقري من حاسي الذهب) وكان من قريش وكان صعلوكاً في بداية حياته وكان يشرب الخمر كثيراً فحكي عنه ذات مرة أنه سكر ليلة حتي جعل يمد يديه ويقبض علي ضوء القمر ليمسكه، الأمر الذي أضحك جلساه، فأخبر بذلك من الغد، فحلف أن لا يشربها، فكان بذلك ممن حرم الخمر في الجاهلية علي نفسه[٢].

أما هرم بن سنان المري - الذي قام مع الحارث بن عوف بتقديم ديات قتلي بن عبس وذبيان، في حربهم التي اشتهرت ب " داحس والغبراء " – فقد كان أحد كرماء الجاهلية العظام، ومضرب المثل في ذلك وقد استأثر بمدائح زهير بن أبي سلمي، الذي أُعجب به غاية الإعجاب، حيث يقول :

إن **البخيلَ ملوم حيثُ كان**

ولكن الجواد على علاتِهِ هرم

([1]) ديوان عروة ، ص ٤٩.

([2]) محمود شكري الالوسى - بلوغ الأرب فى معرفة احوال العرب – تحقيق محمد شكري بهجة الأثري- الناشر دار الكتب العلمية ج١ ، ص٩٠.

هو الجواد الذي يعطيك نائلـه

عفواً ويظلم أحياناً فيظـ ـلِـ ـم(١)

ويقول حبيب بن أوس:

يجود بالنفس إن ضن البخيلُ بها

والجود بالنفس أقصى غايةِ الجودِ

وكان أيضاً ممن يضرب بهم المثل في الكرم، كعب بن مامة الإيادي قـال عنه صاحب العقد الفريد: (وأما كعب بن مامة الإيادى فلم يأت عنه إلا ما ذُكـر من إيثاره رفيقه النمرى بالماء حتي مات عطشا ونجا النمرى وهذا أكثر منكل ما أثني لغيره)(٢)

وقد وردت أسماء كثيرة عن الكرماء في كتب الأدب والتاريخ منهم قيس بن سعد، وقتادة بن مسلم الحنفي، وعبد الله بن حبيب العشيري، ولبيـد بـن ربيعـة الشاعر المشهور، وعبدة الكلبية وهي امرأة اشتهرت بالكرم ومـنهم أيـضاً أزواد الركب، وهم مسافر بن أبي عمر بن أمية بن عبد شمس وزمعة بن الأسـود بـن المطلب بن أسد بن عبد العزي، وأبو أمية بن المغيرة عبد الله بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وسموا بذلك لأنهم يتحملوا مؤون الزاد إذا رحلوا مع أناس(٣).

---

(1) ديوان زهير، ص ٩١.

(2) العقد الفريد ، ج١ ، ص ٢٠١ تحقيق محمد سعيد العريان – دار الفكر.

(3) بلوغ الأرب ، ج١ ، ص ٩١، ٩٢، ٩٣ . وأيضاً المجد لأبن حبيب ، ص ١٣٧.

وبالرغم من هذا نجد أن هناك عدد من الكرماء الذين قست عليهم الحيـاة وحرمتهم من ممارسة عاداتهم أو هوايتهم في الإنفاق والبذل والعطـاء، فـصاروا يرسلون حنينهم وأشواقهم إلي امتلاك المال حتي يتمكنوا من اداء أحب الأشياء إلي قلوبهم إكرام الضيف والقيام بواجبه. وقليلاً ما تجود عليهم الحياة بذلك، فيكتفـون بالكلام عن النية والقصد الذي باتت معطلة عن أداء مهمتها نتيجة علي العدم الذي طرأ علي حياتهم ونلمح ذلك في قول الشاعر:

إني وإن لم ينل مالي دون خلقي

فياض ما ملكت كفاي من مال

لا أحسن المال إلاّ ريث أتلفـه

ولا تغيرني حال إلي حـــال(١)

وقال آخر :

فإلاّ اكن عين الجواد فإنني

على الزاد في الظلماء غير شتيم(٢)

وإذا أردنا ان نحصر العدد في كرماء الجاهلية فهذا يصعب علينا ولكننـا اخترنا الفئة المشهورة التي كانت مضرب المثل إلي يومنا هذا وستظل إلي الأبـد، وقد ذهب ابن عبد ربه في عقده الفريد إلي أن الذين انتهي اليهم الجود في الجاهلية

---

(1) الحماسة ، مختصر شرح التبريزي ، ج٢ ، ص ٣١٩.

(2) الحماسة ، مختصر شرح التبريزي ، ج٢ ، ص ٣٣٠ ، ٣٣١.

ثلاثة نفر: حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي، وهرم بن سنان المري، وكعب بن أمامة الأيادي، ولكن المضروب به المثل حاتم وحده[1]

من خلال ما رأينا نجد أن الغاية والقصد من موضوع الكرم صارت واضحة حيث تأكد لنا أن الفخر بالكرم كان يهدف إلي معني أكبر من مجرد المباهات والفخار الاجتماعي، وأنه قد انتقل من مجرد خلف يتصف به ذوو النفوس العالية. وأصحاب المواهب النفسية المتأصلة، إلي واجب وحق مفروض تحتمه الظروف القاسية وأحوالها السيئة، فالكرم سبب لجلب السعادة للآخرين، وإعانة لهم علي التغلب علي عوامل القحط والهلاك، ومحاولة لطرد شبح الفقر الذي كان يسيطر علي حياتهم بصورة مفزعة. والكرماء كانوا يمثلون الملجأ والملاذ لاؤلئك الذين ضاقت عليهم الدنيا، ورمت بهم إلي صداع عنيف من أجل البقاء وقد عبر الشعراء عن عطاء ممدوحيهم وموئلهم للأرامل واليتامي في أجمل تعبير ومورد الشاربين ومأوي العفاة والضيفان.

(1) العقد الفريد ، ج١ ، ص١٧٠.

المبحث الثالث

الشجـاعة والاقـدام

مفخرة العربي وحياته شجاعته يلبسها وتلبسه سواء كـان غنيـاً أم فقيـراً وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع بعيدون عن الحماية يعيشون في العراء غير محتمين بأسوار أو جدران أو أبواب، فهم يقومون بالدفاع عـن أنفـسهم ولا يكلونه إلى سواهم يحملون السلاح دايما ويتجافون عند الهجوع. وهم يعرفون جيداً ان حياتهم أصبح فيها البأس خلقاً والشجاعة سجية يرجعون إليها متى دعـاهم داع أو استنجد بهم صارخ.(١)

وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معـه وإن شب وكبر وهي تتمشى في دمه. وكيف لا وقد ربي في بيئـة تتمـدح بالبطولـة والإقدام. وحسن البلاء في حماية الذمار والأخذ بالثأر، وبالـصبر علـى أهـوال الحروب وآلامها. فطالما فزع العربي طفلاً علـى قعقعـة الـسلاح وصـيحات المقاتلين, وسمع الحكايات عن المقاتلين وشجاعتهم في القبائل نمـت فـي نفـسه وترسخت في نفسه الحروب وحبها .

وكان العربي يشجع إلى أن يلقى بنفسه في التهلكة راضياً مختاراً، إذ كـان يحمي بذلك المرأة ويصونها من الأسر أو المهانة، وكثيرا ما كانت النساء تصحب

(1) العلامة عبدالرحمن محمد بن خلدون - مقدمة ابن خلدون، ص ١٠٥.دار الجيل بيروت .

الرجال إلى المعارك لتشجيعهم على خوض أهوال الحرب دفاعاً عنهن، وخوفاً من العار الذي يلحِقُهم لو وقعت في الأسر. قال عمرو بن معد يكرب: (١)

لما رايتُ نسـَـ ـاءنا	**يفحصن بالمعزاءِ شدا**
وبدت (لميس) كأنهـا	**بدر السماء إذا تبـ ـدى**
وبدت محاسنُها التي	**تخفي وكان الأمر جدا**
نازلتُ كبشَهم ولـ ـم	**أرمن نزال الكبش بدا**
هم ينذرون دمي وأنذر	**إن لقيـ ـت بأن أشـدا**
كم من أخ لي صالح	**بوأته بيـ ـ ـدي لحـدا**
ما إن جزعـتُ ولا هلعت	**ولا يرد بكاي زنـ ـدا**
ألبسته أثوابـ ـ ـَـه	**وخُلقت يوم خُلقت جلدا**
أغني غناء الذاهبيـن	**أعـد للأعـداء عـدا**

وقد تنوعت مظاهر شجاعتهم فمدحوا الموت في ظـلال الـسيوف وتحت خفق البنود وهجووا الموت على الفراش وسـموه المـوت حتـف الانوف. قال السمؤل بن عاديا.(٢)

وما ماتَ منّا سيد حتفَ أنفِهِ

ولا طلّ منّا حيثُ كان قَتيلُ

تسيلُ على حدِ الظباةِ نُفُوسنَا

وليستُ على غير الظباةِ تسيلُ

---

(١) عمر فروج - تاريخ الادب العربي ص ٢٧٧ج١: وكبش: رئيس القبيلة اوالقوم قال الشاعر:

وإنالممن يضرب الكبش ضربة   على رأسه تلقى اللسان من النعم

تيممت كبش القوم لما رأيته   وجانبت شبان الرجال الصعالكا

(٢) ديوان عروة بن الورد والسمؤال بن عاديا ص ٩١- دار صادر بيروت للطباعة والنشر١٩٦٤.

وقال عمر بن شأس:

لسنَا نموتُ على مضاجِعِنَا

بالليل بل أدواؤُنا القتـ ـ ـْلُ

وقد رأى العرب أن الإقدام لا يدني الأجل وأن الحياة الجديرة بالبقيا إنمـا هي حياة الفتوة، والمجد، والشجاعة فمن العار أن يفر المحارب من لقاء أعدائـه لأن فراره موت له،

قال الحصين بن حمام: (١)

تأخرتُ استبقي الحياةَ فلم أجد

لنفسي حياةً مثلَ أن أتقدما

فلسنا على الأعقابِ تُرمى كَلومنا

ولكن على أقدامِنا تقطُر الدما

ويقول أيضاً في هذا المعنى عنتر بن شداد:(٢)

بكرتْ تُخَوِفُني الحتوفُ كأنّني

أصبحتُ عن عرضِ الحتُوفِ بِمعزِل

فأجبتُها أن المنيةَ منهـ ـلٌ

لابد أن أسقـ ـى بكـ ـ ـأس المنُهـ ـ ـل

([1]) تاريخ الأدب العربي – عمر فروج ص٢٦٧ ج١. الحصين بن همام يعد من اوفياء العرب وكان سيد قومه وعده ابو عبيـدة في الثلاثة الذين اتفقوا على انهم اشعر المقلين فى الجاهلية.

([2]) ديوان عنتر بن شداد ص ٨٩- شرح د.يوسف عيد – دار الجيل.

فاقني حياءكِ لا ابالك وأعلمي

أني امرؤ سأموتُ إن لم أُقْتَل

وافتخروا بصبرهم عند اللقاء وإن كان لقاء عنيفاً حتى ينتصروا، قال نهشل بن حري :

ويوم كأن المصطلين بحرهِ

وإن لم تكن نار قيام على جمر

صبرنا له حتى يبوخَ وإنما

تفرج أيام الكريهةِ بالصبر

وقد استطابوا الموت في المعارك وعدوه من مفـاخرهم, وافتخـروا بـأن الموت يعرفهم ويعرف بيوتهم فيقصدهم دون سواهم, كما قال حارثة بن بدر:

وشَيب رأسي واستخف حلومنا

رعود المنايا فوقَها وبروقُها

وإنا لتَستَحلِي المنايا نفوسنا

وتَتْرك أُخرى مرةً ما تَذُوقُها

ويقول معاوية بن مالك بن جعفر: (١)

إني **امرؤ من عصبة مشهورة**

حشد لهم مجد اشم تليد

---

(1) المفضليات ، ص ٣٥٥. حشد: الذين يحشدون لضيفهم وجارهم ، ثقلها: ما ينوبها من الحملات.

ألفوا أباهم سيداً وأعانهم

كرم وأعمام لهم وجدود

نُعطي العشيرةَ حقَها وحِقِيقٌها

فيها ونغفر ذنْبها ونَسود

وإذا تُحملُنا العشيرةُ ثِقْلَها

قُمنا به، وإذا تعود نعود

ومن أجل هذا قال معتذراً عمرو بن معد يكرب عن سكوته في الدفاع عن قومه بأن قومه لم تنطقه شجاعتهم يفخر ويشيد به: (١)

فلو أن قومي أنطقتني رماحهم

نطقتُ ولكن الرماح أجرت

وكان من محامد القبيلة أن يكثر في الحرب قتلاها؛ لأن هذا دليل على أنهم ألفوا الحرب وألفتهم , قال بشامة بن مزن النهشلي. ويرونها للمرقشى الأكبر: (٢)

إني لمِن معشرٍ أفنى أوائلُهم

قيل الكماة ألا أين المحامونا ؟

لو كان في الألف مِنّا واحداً فدعوا

من فارس خالهم إياه يعنُونا

(1) الأصمعيات، ص ٨٦، حميد طراد – دار الفكر العربي، انطقتني رماحهم: جعلتني امتدح بلادهم في الحرب، أجرت: جرت على العيب والسكوت على العار..

(2) المفضليات، ص ٣٥٥. [معاوية بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن هوازن هوفارس مشهور ولقب بمعود الحكماء.

وقد كان بعض شجعانهم يبحثون عن الموت بحثاً. ولا يخـافون عواقـب الحروب, فهذا أبو سليط طريق بن تميم يأنف أن يموت وهو لا يفعل كمـا يفعـل الناس مخافة أن يغتالهم أعداؤهم, ولا يبالي أن يعرفه جميع فرسان العرب.

فعندما أقبل حميصصة الشيباني يتأمله قال له طريف:

أو كلما وردتْ عكاظَ قبيلةٌ

بعثوا إلي عريفَهم يتوسم ؟

فتوسمونـ ـ ـي أنني أنا ذاكم

شاك سلاحي في الحوادث معلم

تحتي الأغر وفوق جلدِي نثره

زغفٌ ترد السيفَ وهـ ـ ـو مثلّم

فالشجاع الصنديد يعلم نفسه بشارة أو نحوها كأنه يتحدى أعداءه ويقول لهم هانذا.

ومن ضروب شجاعتهم اعتبارهم أن القتل في الحرب شرف لقبيلة القتيـل يعتذرون به, ولذلك لا يصح أن تنوح النساء على قتيل الحرب؛ لأنهن تعـودن أن يفقدن فى الحرب أعزاء؛ ولأن النواح على قتيل الحرب ينبئ أن دمه مطلول، قال عمرو بن كلثوم : (١)

([1]) الديوان ص١٩٠- ديوان الحارث وعمر بن كلثوم- شرح مجيد طراد- دار الجيل بيروت.

معاذَ الإله أن تنوح نساؤُنا

على هالكٍ أو أن تضج من القتل

وكانوا يستعينون على بث الشجاعة في نفوسـهم بـشرب الخمـر حينـاً، وباصطحاب النساء والذراري في المعارك حيناً آخر. على الرغم من أن بعـض حكمائهم كدريد بن الصمة عاب هذا وعده مجازفة. فالـشجعان شـرابهم الخمـر والجبناء شرابهم المرق . قال عمر بن جبلة بن بلعث في يوم ذي قار:

يا قومِ لا تَغْرركُم هذى الخِرق

ولا وميض البيض في الشمس برقْ

من لم يقاتلْ منكُم هذا العنق

فجبنوه الراح واسقوه المـ ـ ـ ـرقْ

ومما يتصل بشجاعتهم شهادتهم لأعدائهم بالشجاعة إذا أبدوا فيها ما يعجب، قال عباس بن مرداس السلمي ينصف أعداءه ويشيد ببطولتهم: [(١)]

فلم **ار مثل الحي حياً مصبحاً**

ولا مثلنا لما التقينا الفوانسا

أكرم وأحمي للحقيقة منهم

وأضرب منا بالسيوف قَرانِسا

([1]) الأصمعيات، ص ١٤٦، المصبح الذي شنت عليه الغارة صباحاً ، للحقيقة: أملاك ، الثر: الهجوم. قوانس: جمع قونس وهو أعلى البيضة.

إذا الخيلُ جالت عن صريع نكرها

عليهم فما يرجعن إلا عوابسا

يتحدث امرؤ القيس عن نفسه وشجاعته وقطعه الفيافي الموحشة المصاحبة للوحوش المتأبدة وليس هذا في إمكان رجل آخر إلا أن يكون صنديداً شجاعاً: [١]

وَوادٍ كجوفِ العير قفرٍ قطعتُه

به الذئب يعوي كالخليع المعيل

فقلت له لما عوى إن شأنَنَـا

قليلُ الغِنَى إن كُنْتَ لما تُمول

كلانا إذا ما نالَ شيئاً أفاتَه

ومن يحترثْ حرثي وحرثَك يهزل

ويقول أيضاً ممتدحاً بالفروسية والشجاعة ويساعده فرسـه القـوي الـذي وصفه وصفاً دقيقاً:[٢]

وقد اغتدي والطير في وكناتِها

بمنجردٍ قيدِ الأوابد هيكل

مكـ ـر مفر مقبل مدبر معـ ـ ـا

كجلمودِ صخر حطه السيلُ من عل

([1]) المعلقات السبع- ص٢٨/ ٢٩ شرح الزوزني.

([2]) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٣٦ الشمنتري.

وتمثلت الشجاعة عند طرفة بحيث أنه يرى أن كل نداء على شجاع موجهاً إليه وحده فيطير للنداء مستجيباً غير متبلد ولا كسول: (١)

إذا القوم قالوا من فتى خلتُ أنني

عنيتُ فلم أكسل ولـــم أتبلــــدِّ

ويخبر عن نفسه بأنه يقطع الصحارى التي لا يقدر عليها إلا الشجاع والتي يجزع منها الناس لما يخشون من الهلاك الذي يتعرضون له فيها فيقول: (٢)

على مثِلها أمضي إذا قال صاحبي

ألا ليتني أفديك منها وأفتدي

وجاشت إليه النفس خوفاً وخاله

مصاباً ولو أمسى غير مرصد

وفي الاعتقاد أن خوض المعارك والشجاعة مكتوبة على الشجاع يقول طرفة : (٣)

ألا أيها اللائمي أحضر الوغَى

وأن أشهد اللذاتَ هلْ أنْتَ مخْلِدي

فإن كنتَ لا تَسطيع دفع منيتي

فدعني أبادرها بما ملكتْ يدِي

([1]) اشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٤٦، والديوانص ٢٩ دار صادر بيروت. اتبلد

([2]) اشعار الشعراء الستة الجاهليين ٤٦ والديوان٢٩.

([3]) اشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٤٠٢. الزاجري:اللائمى،الوغى:الحرب، مخلدي:البقاء. لا مفر من للموت فلا معنى للبخل.

ويقول طرفة أن قلة اللحم هي من صفات الشجعان فهو قليـل اللحـم؛ لأن كثرة اللحم تعوق الحركة؛ ولذا مدح العرب الرجل بقلة لحمه لأن ذلك أعون لـه على لقاء الأبطال، وسرعة إغاثة الملهوف والقدرة على قطع الفلوات. وأيضاً صفة الشجاعة في نظره شدة الحذر كأنه رأس حية في توقره وشـدة تيقظـه. وأيـضاً ملازمة الشجاع سيفه لا يفارقه أبداً يقول: (١)

أنا الرجلُ الضرب الذي تعرفونَه

خشاشٌ كراس الحيةِ المتَوقدِ

فآليتُ لا ينفك كشحي بطانةً

لعضبٍ رقيق الشفرتين مهنّدِ

ويقول أيضاً:

حسام اذا ما قمتُ منتصراً بـ ـ ـه

كفى العود منه البدء ليس بمعضدِ

أخي ثقةٍ لا ينْثَني عن ضريبةٍ

إذا قيلَ مهلاً قال حاجزه قـ ـ ـدي

إذا ابتدر القوم السلاح وجدتَني

منيعاً إذا بلت بقائمهِ يـ ـ ـ ـ ـَدي(٢)

([1]) اشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٤٠٦. الديوانص٣٧.الضرب: الخفيف اللحمز.

([2]) الزوزني العلقات السبع ص ٦٦-٦٧ ، الشفرتين:حدالسيف، معضد:سيف يقطع به الشجر، شبه نفسه من خفته سرعةحركة الحية وشدة وقده.

ويوصي طرفة ابنة أخيه يقول: أذا مت فابكيني وأشيعي خبر هلاكي بالثناء الذي استحقه واستوجبه، ولا تسوي بيني وبين رجل لا يكون همه كهمي في طلب المعالي ولا يشهد الوقائع مشهدي لها، ولا تجعليني كرجل يبطئ عن الأمر العظيم ويسرع إلى الفحشاء، وكثيراً ما يدفعه الرجال باجماع أيديهم لذله ومهانته. (١)

فإن مت فأنعيني بما أنا أهلُه

وشُقي علي الجيب يا ابنةَ معبدِ

ولا تجعليني كامرئ ليس همه

كهمي ولا يغْني غنائي ومشهدي

بطئٍ عن الجلى سريع إلى الخنَى

ذلولٍ بأجماع الرجال ملهـــد

فلو كنتُ وغلاً في الرجال لضرني

عداوةُ ذي الأصحاب والمتوحد

ولكن نفى عنى الرجال جراءتي

عليهم وإقدامى وصِدقي ومحتدي

ومن شجاعة العربي تشبيهه بالاسد يقول في هذا زهير واصفاً حصين بـن ضمضم:

(1) شرح المعلقات السبع ص ٦٩/٦٨ الزوزني والديوان ص ٣٩.انعيني:اشيعي خبر موتي،مشهدي:يشهد المواقع، بطئ: ضدالعجلة، الجلى:الامر العظيم، الخني:الفحش، الوغل: الضعيف.

لدى أسدٍ شاكي السلاح مقذف

له لبد أظفاره لـ ـم تُقلـ ـمِ

جرئ متى يظلم يعاقب بظلمه

سريع وإلا يبد بالظلم يظلـ ـم

ويطلب زهير أن يكون كل الناس شجعان حيث يقول: (١)

ومن لم يذُد عن حوضِهِ بسلاحِهِ

يهدم ومن لا يظْلِم الناس يظْلَمِ

ويقول لبيد في وصف الناقة وهى سبب إقدامه ويحمدها على ذلك: (٢)

وأحب المجاملَ بالجزيل وصرمِهِ

باقٍ إذا ضلعتْ وزاع قوامهـا

بطليح أسفـارٍ تركـ ـ ـ ـن بقيةً

منها فأحنقَ صلبها وسنَامهـ ـا

ويتحدث عن شجاعته ويتسأل عن حبيبته وما تعرفه عنها يقول: (٣)

أولم تكُن تدري نوار بأنّني

وصال عقد حبائل جذامهـ ـا

ترَاك أمكنة إذا لم أرضها

أو يعتَلِق بعض النُفوس حِمامها

([1]) ديوان لبيد، وأحب: أعطي ، المجامل: يجامل يظاهرالمودة ، صرمة: القطيعة ، زاع: مال ، قوامها: عمادها.

([2]) الديوان، ص ١٦٧ دار صادر بيروت. .

([3]) المصدر السابق، ص ١٧٥ ، جذام: قطاع.

ويقول أيضاً : (١)

ولقد حميتُ الحي تحملُ شكتي

فرط وشاحي إذ غدوت لجامها

فعلوت مريغاً على ذى هبوةٍ

حرج إلى إعلامهن قتامهـ ـا

والحياة عند المتلمس هي الحرية ورفض الضيم والمذلة، فإذا ما استلبت الحرية امتهنت فلم يعد للبقاء أو للحياة في نظره أي مبرر أو قيمة أو معنى، ما دام الإنسان صائرا لا محالة إلى الموت: (٢)

ألم تَر أن المرء رهـ ـن منيةٍ

صريع لعافي الطير أو سوفَ يرمس

فلا تقبلن ضيماً مخـافةَ ميتَةٍ

متن بها حـ ـرا و جلد أمـ ـ ـلس

وما الناس إلا ما رأوا وتحدثُوا

وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسـوا

([1]) حميت: مبغت ، شكتي : سلامي، فرط : سريعة ، لجامها: أحمل اللجام في يدي لسرعة استعماله ، مريغاً : موضع الارتغاب، [في اللسان ، ص ٥٩ مادة مرغ ، المرغ :لعاب الشاه والمرغ سال لعابه ومرغ : كثير الكلامٍ هبوة: غبار، إعلامهن : ثابت معهن، قتامها: غبارها.

([2]) شعراء النصرانية- يوسف شيخوج اليسوعى ١ص ٣٣٢، لبنان بيروت ١٩٩٩م.

أو كما في قوله: [1]

إن الهوان حمار القوم يعرفُه

والحر ينكره والرسلـ ـةُ الأجـ ـد

ولن يقيم على خَسفً يسام بـ ـ ـه

إلا الأذلان: عيـ ـر الحـ ـي والوتِد

ويقف صخر الغي وحيداً متحدياً أعداءه الذين يهددونه ويتوعدونه ويريدون إخضاعه وإرغامه:

ولستُ عبداً للموعدين ولا

أقبلُ ضيماً أتَى به أحد

أما عمرو بن براق، فإنه كغيره من الجاهليين يرفض المراغمة والإكراه ويتحدى خصومه مهما جر عليه ذلك من نتائج: [2]

كذبتم وبيتُ الله لا تأخُذُونَها

مراغمةً ما دام للسيفِ قائم

متى تجمع القلب الذكي وصارماً

وأنْفاً حمِياً تجتَنِبك المظالم

---

(1) المجاني الحديثة – المطبعةالكاثوليكية بيروت ص ١٩٢.

(2) الأغاني ص ٨٣٨ مطبعة دار الشعب [مراغمة : في اللسان ص ١٨٦ مادة رغم هجران وتباعد والمباغضة وعبد المراغم: المضطرب على مواليه.]

إنها شاعرية المجابهة والمواجهة والإرادة الحرة.. شاعرية كم نحن بحاجة إلى أن تصل إلى أسماعنا ووجداننا؟

وليس الغرض من الشهادة للعدو بالشجاعة أن يتخذها الشاعر سلماً للفخار المضاعف بأنهم هزموا الشجعان وإنما شهادة منبعثة عن إعجاب بالشجاعة وتقدير للشجعان وإنصاف حتى ولو كانوا من الأعداء .

وقد أصبحت الشجاعة عند العرب مضرب الأمثال في العالمين, ولقد كان العربي في الجاهلية يسترخص أغلى ما يملك، وهو حياته، في سبيل حريته وفي سبيل الحفاظ على حرمته وكرامته، وسارع العرب إلى النيل من حاول النيل منه بالقول أو الفعل، ثم تشعل نار الحرب فتأكل الاخضر واليابس، وتلك هي الحياة التى علمتهم الشجاعة والصبر على مكاره القتال، إذا كان صبيانهم يشبون في بيئات ملأت صدور أهلها الأحقاد وتخضبت جنبات أرضها بالدماء فلا يسمعون إلا صهيل الخيول وصليل السيوف في ميادين الوغى. ولا يرون إلا الثأر لأبنائهم وإخوانهم وعشيرتهم, ولذاك كانت الشجاعة أهم ما يتصف به ويتميز به العربي وكما كانت نجدة المستنجد بهم ضريبة عليهم لأنهم في كثير من الأحيان ينظرون إلى الاستنجاد بغيرهم ليعينوهم على دمائهم التي يريدون الثأر لها، وحقوقهم التي يعملون على استخلاصها من أيدي أعدائهم.

وإذا نظرنا إلى جميع الشعر الجاهلي نجد أن الشجاعة تحتل مكاناً بارزاً فيه فهو ملئ بالحديث عن الحرب في المجتمع الجاهلى، ووصف السلاح وأدوات القتال، والحديث عن الحرب في حقيقته وصف للبطولة التي حصلوها في تلك الحروب والشجاعة وحسن البلاء في لقاء الأبطال، والصبر على تلك المشاق التي تلازم الطعن والنزال.

ويتمادون فى تطويل الحروب لخلق الشجاعة التي كانت تجري في دمائهم وربما كان العناد المتولد عند الشجاعة الذي أودى بحياة الألوف من العرب في الجاهلية هو الذي عطل نهضة الجزيرة العربية، وعاق تقدمها المادي قبل الإسلامـ وصرف الناس عن العمل الجاد الذى يحصلون منه على أرزاقهم وينهض بهم إلى مستوى أفضل مما كانوا عليه، تلك هي الشجاعة والصبر في المجتمع الجاهلي تمثل قيمة خلقية عاش على تقديسها عرب العصر الجاهلي ثم أقرها الإسلام بعد ذلك.

المبحث الأول

الحـكم والأمثـال

جاء في القاموس المحيط: حكمه عن الأمر: رجعه ومنعه مما يريد وأحكمه وأتقنه فاستحكم ومنعه من الفساد[1].

وجاء في أساس البلاغة: حكمة: صفة مما يريد: وحكمة الدابة لانها تنزلها لراكبها وتمنعها الجماح، ومنه اشتقت الحكمة لأنها تمنع صاحبها من الآثام والرذائل[2].

والحكمة قول بليغ موجز صائب يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكماً سليماً تقبله العقول وتنقاد له النفوس والمشاعر، وهي صورة لكلام تصل إلى الغاية القصوى في البلاغة من حيث ايجاز اللفظ واصابة المعنى وحسن البيان.

وأيضا: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم. والحكيم يجوز أن يكون بمعنى الحاكم مثل قدير بمعنى القادر[3].

---

(1) لسان العرب : لابن منظور ، مادة حكم ، ج١٢ ، ص ١٤٠.

(2) أدباء العرب في الجاهلية وصدر الاسلام ٨٠/١ – ٨١ (المؤلف بطرس البستاني – ط١ – دار الثقافة) .

(3) الحكمة في الشعر العربي ، مختارات من روائع الشعر العربي من العصر الجاهلي الي العصر الحديث . عبد الستار السطوحي دار الاعتصام ، ص ١٢.

وكما بينا سابقاً ان الحكمة تكون شعراً ونثراً ولكن في النثر أوفر عـوداً وأكثـر دوراً، ولقد فاضت الحكمة على ألسنة كثير من العرب لما أفاضه الله علـى هـذه الأمة في بداوتها من سلامة الفطرة ورجاحة الفكرة, فكان قولهم مرضياً وحكمهـم حتماً مقضيا.

وقد بينا سابقاً من اشتهروا بالحكمة في العصر الجاهلي.أما المثل فقد عرفه المبرد بأنه: قول سائر يشبه مضربه مورده.

وعرفه المزود بأنه: جملة من القول مقتضية من أصلها أو مرسلة بذاتها تتم بالقبول وتشتهر بالتداول. فتنتقل عما وردت منه إلى كل ما يصح قصده منها مـن غير تغيير يلحقها في لفظها[١]

وتعريف المرزوقي قد سار عليه ابن رشيق والميداني وأبو هلال العسكري وغيرهم. وهذا التعريف يجمع بين الحكمة والمثل وغاية ما يمكن أن تفرق به بين الحكمة والمثل أن المثل لا بد له من مضرب أي حادثة أصلية قد وقعت بالفعل.

إذا كان المثل حقيقياً أو قد يفرض له ذلك الأصل فرضاً على لسان حيوان أو نبات أو جماد, إذا كان المثل فرضياً. وإذا اشتهرت الحكمة بين الناس تـصبح مثلاً وهي تكسب الكلام سحراً وجمالاً وبلاغة يقول الشاعر: (٢)

ما أنت إلا مثل سائر

يعرفُه الجاهلُ والخابر

([1]) الحماسة المغربية، باب الحكم والأمثال ، ص ١٢١٥.

(٢) ابن عبدربة - لعقد الغريد ج٣ ص٢.

والأمثال كما تكون نثراً تكون شعراً كذلك، وهي كثيرة، كثرة جعلت بعض العلماء يفردون لها مؤلفات خاصة كأبي هلال العسكري في جمهرة الأمثال.

والميداني في مجمع الأمثال وقد اختلطت الحكمة بالمثل عند هذين المؤلفين وجاءت فيها الحكم والأمثال الشعرية والنثرية على السواء.

ومن الأمثال في النثر: "آخر الدواء الكي"

وقولهم: "إن اخاك من واساك" وقولهم: "إن البلاء موكل بالمنطق"

وفي الشعر قالوا:

لا تقطعن ذنب الأفْعى وتُرسِلُها

إن كنتُ شهماً فاتبع رأسها الذنبا

والمثل يمتاز بشهرته ودقة معناه وإصابة الغرض المنشود منـه. والمثـل الغرضي يقال للتحذير من استبداد المستبدين وطغيانهم, وهو وسيلة للنقد والسخرية والتهكم.

والحكمة والمثل كلاهما أصدق شيء يتحدث عن أخـلاق العـرب ويبـين عاداتها وتقاليدها وكلاهما يصور المجتمع وحياة أهله ومشاعرهم أتم تصوير.

وصور لنا حكيم الشعراء وداعية السلام زهير بن أبى سلمى الحكمة تصويراً

بارعاً في معلقته التي مطلعها[1] :

أمِن أمِ أوفى دمنةٌ لم تُكلمي

بحومانة الدراج فالمتثلم

يقول[2]:

سئمتُ تكاليـفَ الحيـاةِ ومن يعـش

ثمانين حولاً – لا أبالك – يسأم

وأعلم علـم اليـومِ والأمـس دونـه

ولكنني عن علمِ ما في غدٍ عمي

رأيت المنايا خبطَ عشواء من تُصب

تُمته و [من] تخطئ يعمر فيهرم

ومن لم يصانـــع في أمـور كثيـرة

يضرس بأنيابٍ ويوطأ بمنسـم

ومن يجعل المعروفَ من دون عرضه

يفره ومن لا يتقي الشتم يشتـم

ومن لا يذد عن حوضـه بسلاحــه

يهدم ومن لا يظلمِ الناس يظلم

---

(1) الحماسة المغربية- باب الحكم والامثال ص ١٢١٥.

(2) المختار من شعر زهير من معلقته (ديوان زهير بشرح الأعلم : ٩ – ٣٠)

ومن هـاب أسـباب المنيـ ـة يلقـها

ولو رام أسباب السماء بسلـم[1]

ومن يعص أطراف الزجـاج فإنـ ـه

يطيع العوالي ركبت كل لهـذم

ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبـَه

إلى مطمئن البر لا يتجمـ ـ ـجم

ومن يغترب يحسب عـدوا صديـقه

ومن لا يكرم نفسه لا يـكـرم

ومهما تكن عند امـرئ من خَليقـة

وإن خالها تخفى على النّاس تُعلم[2]

ومن لا يزلْ يستحملُ الناس نفسـَ ـه

ولا يغنها يوماً من الدهـر يسـأم

---

[1] يقول من خاف اسباب المنية نالته ولورام الصعود الى السماء فراراً منها.

[2] الخليقة: السجية والطبيعة. يقول مهما كان للانسان من خلق فظن انه يخفى على الناس علم ولم يخف.

وقال أيضا:[١]

وهل ينبت الخطي إلا وشيجه

وتُغرس إلا في منابتِها النخـ ـلُ

وقال أيضا: [٢]

والستر دون الفاحشات وما

يلقاك دون الخير من ستر

وامرؤ القيس يبين لنا أن البر هو أفضل شئ يحمله الرجل والطلب من الله هـ و أنجح المطالب:[٣]

الله أنجح ما طلبت به

والبر خير حقيبة الرحل

وقال أيضا[٤] :

إذا المرء لم يخزن عليه لسانَه

فليس على شيء سِواه بخزان

ويرى عنترة أن الحكمة في عزة النفس فيقول:[٥]

---

(1) الديوان ص ٤٤.

(2) ديوان زهير ص ١٢١ (الفاحشات أي بينه وبين الفاحشات ست من الحياة وتقى الله ولا ستر بينه وبين الخير يحجبه عنه.

(3) ديوان امرئ القيس ، ص٢٣٨.

(4) السابق ص ٩٠ ، خزن لسانه : أمسكه من الكلام الجالب

(5) ديوان عنترة ، ص١٣٥ . [ديوان عنترة للخطيب التيريزي ، بيروت ، الطبعة الأولي ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م]

لا تسقني ماء الحياةِ بذلةٍ

بل أسقني بالعز كأس الحنظل

ماء الحياةِ بذلةٍ كجهنـمٍ

وجهنم بالعز أطيب منزل

ويقول عروة بن الورد بين الغنى والفقر إن النـاس يـزدرون الفقيـر ولا يجعلون له وزنا في محبتهم ولو كان عاقلا فاضلاً، ورآهم يعظمون الغنى مبالغـة في إطراء فضائله متناسين عيوبه ومايقترف من ذنوب، فقال يخاطب امرأته(١):

دعيني للغنى أسعى فإني

رأيتُ الناس شرهم الفقير

ويبقيه الندي وتـزدريه

حليلتُه وينهره الصـغير

ويلقى ذو الغنى وله جلالٌ

يكاد فؤاد صاحبه يطـير

وتناول الحكمة أبي حمام العيسى في وجوه الحياة الاجتماعية المختلفة مـن علاقات بين الأفراد فقال:(٢)

ولست بهيا بٍ لمن لا يهابني

ولستُ أرى للمرء ما لا يرى ليا

---

(1) ديوان عروة : ص ٦٣ بيروت ، الطبعة الأولي سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، قليل ذنبه والذنب جم.

(2) حماسة بن تمام (تحقيق سيلان) ٢٣٥/١ [الحماسة لأبي تمام حبيب بن اوس الطائي – تحقيق عبدالله عبدالرحيم عبدالله سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م]

إذا المرء لم يحببك إلا تكرها

عراض العلوق لم يكن ذاك باقيا(١)

ونرى عمر بن قمئية يوجه شعره حكماً لكل مغرور في هذه الحيـاة بـأن يتعظ بمن قبله، ولا تغره الحياة ونعيمها مهما كان، فالناس أجمعون إلى التـراب مهما تغيرت الممالك والأمم واختلفت العصور، فالمصير واحد والنهاية معروفـة، والموت هو الكأس التي يتقاسمها الجميع. يقول(٢):

قد كان من غسان قبلك أم

لاك ومن نصر ذوو نعـم

فتتوجوا ملكاً لهم همم

ففنوا فناء أوئل الأمـــم

لا تحسبن الدهر مخادكم

أو دائما لكم ولم يـــدم

لو دام دام لتبع وذوي الـ

أصناع من عادٍ ومن إرم(٣)

---

(1) العلوق: الناقة ترام ولدها فاذا اراد ان يرضع منها خدشته.

(2) ديوان عمرو بن قمئة – شرح وتحقيق كامل الصيرفي – ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م – ص ١٨٩ . (نصر هو : نصر بن ربيعة بن عمر بن الحارث بن مسعود بن مالك) ، غسان : ماء باليمن ، لاك : جمع ملك وهو رئيس القوم (بحر الكامل).

(3) لديوان ، ص ١٩٠ . تبع : واحدة التابعة وهم ملوك حمير وحضرموت.

فهو عندما يتعرض لحتمية الموت وتفاهة الحياة، يتعظ بمصائر من قبله من الأمم القديمة ذات البأس والشدة.[١]

فالإنسان في هذه الدنيا كالشهاب، مهما اشتد فيه وسطع نوره فـإن الخمود نهايته يقول:

ما عيشُ الفتى في الناس إلا

كما أشعلتَ في ريحٍ شهابا

فيسطع تارةً حسناً سـناه

ذكي اللون ثم يصير هابا[٢]

ونجده أيضاً مؤمناً بما هو مقدر ومكتوب، فالإنسان مهما سعى فلن يصيبه غير ما قدر له يقول:[٣]

فما ليث يوماً يسابق مغنم

ولا سرعة يوماً يسابقُه الردى

ونجد أن الكوفة كانت داراً لكثير من الصحابة والزهـاد والتـابعين وأكابر العلماء وكثير من الشعراء من عاش في هذا الجو الروحاني تـأثراً بالزهاد.

([1]) انظر مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي ، د. انور أبو سويلم ص ١٧٥ ، دار عمار ١٩٩١م.

([2]) الديوان ص ١٨٧ : [تحقيق حسن كامل الصيرفي – مطابع دار الكتاب العربي] [البيت من بحر الوافر].

([3]) السابق ، ص ٦.

وهذا أعشى حمدان في الورى يقول وهو أحـد الفقهـاء والقـراء يقول:[1]

وبينما المرء امسى ناعماً جذِلاً

في أهله معجباً بالعيش ذا أنَق

غدا ابيتح له من جيبه عرض

فما بكيتُ حتى مات كالصعق

يبكّى عليه وأدنَوه لمظلمة

تعكر جوابتها بالسرب والغلق

ونجد حكمة القول عند ابن الخطيم في حفـظ الأسـرار، ولبنـاء علاقات سليمة، ومجتمع أفضل يسوده الود والأمنـ بعيدا عـن العـداوة، ويحذر من إذاعة الأسرار، ومغبة إفشائها التي تؤدي لـى سـوء الظـن وغياب الثقة يقول:

إذا جاوز الاثنين سر فإنه

ينتشر وتكثير الحديثِ قمين[2]

(1) انظر الأغاني : ج٦/٤١.

(2) ديوان ابن الخطيم ص ١٠٥ (عن بن السكيت وغيره حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد) – مكتبة دار العروبة القاهرة-١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

ويتخذ ابن الخطيم النفس الإنسانية مقياساً للغنى والفقر، فمن اغتنت نفسه على ضيق معيشة – كان غنياً ومن افتقرت نفسه كان فقيراً على سعة ثراءه، يقول:

غني النفس ما استغنى غنى

وفقر النفس ما عمرتْ شقاء[1]

كما يشير ابن الخطيم أيضا إلى ان الغنى لا يتحقق بالحرص الشديد علـى المال، ولكنه قد يتحقق مع الجود والكرم.

فلا يعطى الحريص غنى لحرص

وقد ينَمى لِذى العجز الثراء[2]

ويقول ابن الخطيم إن التيه والتعالي ضلالة، ومن يسرف في الضلالة ينشأ جاهلاً، فهو خاوي العق ميتاً قبل أوانه فيقول:

كثير المنى بالزاد لا خير عنده

إذا جاع يوماً يشتكيه ضحى الغدِ[3]

نشا غمراً بوراً شقيا ملـ ـعنا

ألد كأن رأسه رأس أصيدِ[4]

([1]) الديوان ، ص ١٠١.

([2]) ديوان بن الخطيم، ص ١٠٠.

([3])المنى : بضم الميم جمع المنية وهي الأمنية أي ما يمتلك الانسان .

([4])الديوان ص ٧٣ – ٧٤ . الضمر : الجاهل الذي لا تجربة له.

ويرسل ابن الخطيم حكمته في ثوب من الفخر فهو لا يـسعى إلـى تتبـع عورات الاخرين وترصد عيوبهم ولا يسدي نصيحة لغيره وهو لها أحوج يقول:

وإني لأغنى الناس عن متكافٍ

يرى الناس ضلالاً وليس بمهتدي(١)

وأبو الأسود الّدؤلي صور لنا واقع الحياة الاجتماعيـة، وعالجـه معالجـة حكيمة عندما قال:(٢)

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه

فالقـوم أعـداء له وخُصوم

كضرائر الحسناء قُلن لوجهها

حسداً وبغـضاً إنّه لذمـيم

والوجه مشرق من الكلام كأنه

بدر مـشرق والعـيون نجوم

وكذلك من عظُمت عليه نعمة

حساده سيفٌ عليه صـروم

فتناول الدؤلي ظاهرة الحسد ليس لديه أسباب سوى تلك المكانة التي يسمو لها ذلك الغني، وقصد أولئك الحاسدين عن الارتفاع إلى درجته ويشبههم في ذلـك

(1) الديوان: ص ٧٣، ديوان قيس بن الخطيم. تحقيق ناصر الدين الأسد، مطبعة مدني، الطبعة الأولى القاهرة ١٩٦٢م.

(2) ديوان أبو الأسود الدؤلي : ص ١٢٩ – ١٣٢ : اختلاف كبير في ناظم هذه القصيدة ونسبها البغدادي في الخزانة . للدؤلي وقد وردت هناك بكاملها وعنها . كما وردت غير منسوبين في البيان والتبيين ٢٥٩ ، انظر هامش الديوان ص ١٢٩.

بصورة مأخوذة من الحياة الاجتماعية [كضرائر الحسناء] فيصفنها بالقبح والدمامة من غير أن تكون كذلك بدافع الحسد والبغض.

وقال الدؤلي في النصح عن الابتعاد عما يشين:

إذا أنت حاولتَ البراعةَ فاحتسب

حراً كل أمر تعزيه المـ ـعاذر

فقد شتم المرء المعاذر للـ ـردى

فيردى وقد تُردي البري الحرائر[1]

قال ينصح زوجته:

خُذِي العفو مني تَستديمي مودتي

ولا تنطقي في سورتي حيث أغضب

فإني وجدتُ الحب في الصدر والأذَى

إذا اجتمعا لم يلبثِ الحب يذهب

فنراه في هذه الأبيات متأثرا بطريقة القران في إقناع القارئ بصحة دعواه، واثباتها عقلياً ومنطقياً، فهذه الأبيات كتبها بعد إسلامه فنرى روح الإسلام متمكنه في نفسه.ومن حكمة الدؤلي المشهودة كلمته:

---

[1] الديوان ص ٥٩ – ٦٠ . ديوان أبو الأسود الدؤلي ، تحقيق : الشيخ محمد الحسن الي ، مطبعة المعارف بغداد ، ١٩٦٤م الطبعة الثانية.

فما كلُّ ذي لبٍ بمؤتيك نُصحه

وما كلُّ مؤتٍ نُصحه بِلبيبِ

ولكن إذا ماالستُجمِعا عند واحد

فحقٌّ له من طاعةٍ ونصيب[١]

وعندما نقرأ في شعر النابغة نجد حكمة اكتسبها من تجاربه وترحاله الدائم فقال[٢]:

ركبتُ الأمور صعبها وذلولُها

وقاسيتُ أياماً تُشيب الحزورا

وطوفتُ في الرهبان أعبد دينَهم

وسيرت في الأخبار ما لم يسيرا

والحياة لاتبقى على حال، فإن سرك منها شيء ساءتك منها أشياء. فقال:[٣]

وعشت بعيشين إن المنون

تلقى المعايش فيها خساسا

فحيناً أصادف غـ ـ ـ ـراتها

وحيناً أصادف منها شماسا

([1])الديوان ص ٣٦ . ديوان النابغة ، تحقيق : كرم البستاني ، دار بيروت ١٩٦٠م. – الحزور : هي الغلام الجلد الفتي.

([2]) الديوان ص ٩٩

([3])الديوان ص ٧٨.

وهو يرى الشر أكثر فيقول:(١)

كذاك لعمري الدهر يومان فاعرفوا

شرور وخير لا بل الشر أكثر

ويقول النابغة إن نيل النجاح والسعادة في الرفق والأناة:(٢)

فالرفق يمن والأناةُ سعادةٌ

فاستأن في رفقٍ تلاق نجاحا

وقال أيضا:(٣)

حلفتُ فلم أترك لنفسك ريبةً

وليس وراء الله للمـرءِ مذهـب

ولست بمستبقٍ أخاً لا تلُمـه

على شعثٍ أي الرجال المهذب؟

وقال طرفة بن العبد في عدم مسألة الناس عن الاخبار وترك معرفتها للايام: (٤)

ستُبدِي لك الايام ما كنتَ جاهلاً

ويأتيك بالأخبار من لم تُزودِ

---

(1) الديوان، ص ١٩.

(2) السابق ، ص ١٣ ، منشورات دار مكتبة الحياة بيروت، يمن: البركة والخير.

(3) السابق ١٧ – ١٨. ريبة: شك ، تلمعه: تجمعه ، شعث: التفرق.

(4) ديوان طرفه ص ٤١ يقول ستظهر لك الأيام ما كنت جاهله ويأتيك بالأخبار من لم تسأل عنها

وقال أيضاً [١]:

عن المرء لا تسأل وسلْ عن قرينِهِ

فكلُّ قرينٍ بالمقارن مقْتدِي

وقال أيضاً [٢]:

وإن لسان المرء مالم تكن له

حصاة على عوراتِهِ لدليل

وقال الحطيئة [٣]:

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرفُ بين اللهِ والناس

وقال أيضاً [٤]:

ما كلّفَ اللهُ نفساً فوقَ طاقتِها

ولا تجود يد إلا بما تَجِدِ

وقال المرقش [٥]:

فمن يلق خيراً يحمد الناس أمره

ومن يغوِ لا يعدم على الغي لائما

---

(1) السابق ص ٤٤ ، قرين الانسان : مصاحبه.

(2) السابق ص ٨١ ، ماله حصاة : لسان الفتي دليل علي عوراته ، إن لم يكن له عقل يرشده ويدله

(3) ديوان الحطيئة ص ٥١.

(4) السابق ، ص ٥٧.

(5) الأغاني ج٦ ص١٣٢(المرقش الأصغر شاعر جاهلي اسمه: ربيعة بن سفيان وهو عم طرفة.

وقال أبو ذؤيب نفس الإنسان في يده وهو قادر أن يرغبها في القليل أو الكثير[1]:

والنفس راغبةٌ إذا رغّبتَها

وإذا تُرد إلى قليلٍ تقنَع

ويقول طرفة أن بالإمكان تقويم الشئ في بدايته ولكن لا يمكن ذلك في النهاية:[2]

قد ينفع الأدب الأحداثَ في مهلٍ

وليس ينفع بعد الكبرةِ الأدب

إن الغصون إذا قومتَها اعتدلتْ

ولن تلين إذا قومتَها الخشب

وقال عمرو بن معدي كرب عليك بعمل الممكن عمله ولا تحاول مالايمكنك[3]:

إذا لم تستطع شيئاً فـــــدعه

وجاوزه إلى ما تســـتَطيع

([1]) ديوان الهذليين ص ٣ ، الأبيات من قصيدة في رثاء أولاد له خمسة ماتوا في طاعون جارف.

([2]) لم يرد البيتان في ديوان طرفة ولكن وردت في الحماسة البحترية ص ٢٣٥.

([3]) ديوان عمر بن معدى كرب ص ١٣٣ – (وهو البيت الذي أشار به الخليل للفراء عندما أعياه العروض وطلب النحو فأصبح فيه آية.

المبحث الثاني

العـــفة والغـــيرة

لقد كان من أصعب الأمور على النفس الإنسانية في العـصر الجـاهلي أن يهجر الإنسان مألوف قومه، وينبري لقضية فردية يدافع عنها حتى اذا آمـن لـه قومه وعلت كلمته بينهم وأصبحت تتسم بسمة الإنسانية ووعتها أفئدتهم، ورددتهـا ألسنتهم وهم لها فرحون، حتى أقبل بعضهم على بعض يتساءلون ما جدوى هـذا الجديد الذى ساقه إلينا هذا الشاعر، فإذا اطمأنت أنفسهم إليه رددوه وجاهدوا القوم دونه، ونجد أن الشاعر الجاهلي الذي ألف قومه يهرعون إلى أول نداء له وكأنهم في نظره:

لا يسألون أخاهم حين يندبهم

في النائبات على ما قال برهانا

اخذاً لثأر أو رداً لمظلمة، أو إغارة لمغنم يأخذونه، رأى أن مـن واجبـه الإنساني الأمثل أن يدعوهم للعفة وهجرها عند الآخرين والترفع عن ذلك، فينصب نفسه داعية للخير والتحكم في النفس الأمارة بالسوء ويحول وجهتها الشريرة إلـى خير دائم، ويهتف بهم أن اتركوا مغانمكم الزائلة، وروضوا أنفـسكم علـى حـب الخير وإلفة العفة والتسامي فوق الدنايا محققاً قول الحق تبارك وتعالى " قد افلـح من زكاها" الشمس[1].

فيالها من بطولة نفسية حين يستطيع تغيير مسار حياتهم ويأخذ بأيديهم لمـا فيـه نفعهم وصلاح أحوالهم، فهذا عبيد بن الابرص يباهي قومه بعفة النفس ويدعو إليها كدليل على كرم الخلق وحميد الخصال(١)

لعمرك إنني لأعف نفسي

وأستر بالتكرم من خصاص

ويأتي الشاعر الشنفري ذلك المتصعلك والذي نحل جسمه من قلة الطعـام حتى غدا هيكلاً مخيفاً، ولكنه بعفة نفسه يقهر الجوع حتى يميته قبل أن يقضي هو عليه، أو يسأل الناس ما عندهم ليسد حاجته، ويفضل ان يستف تراب الأرض ولا يتفضل أحد عليه بكسرة خبز، فهو عفيف النفس يترفع عما يشنيها مـن معـايرة الناس له بفقره الظاهري، ويهتف بقناعة النفس وعفتها مفتخراً(٢)

أديم مطالَ الجوع حتى أُميتـُـــه

وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل

واستفُ ترب الأرض كيلا يرى له

علي من الطول امرؤٌ متــطول(٣)

فعفة نفسه جعلته يفرض إرادته ساعة يصارع هذا الجوع، ويتحداه حتى لو دفعه ذلك ن يأكل التراب. ويأتي الشاعر أبو خراش الهذلي فيهتف بعفة نفـس أن

([1]) ديوان عبيد – ص ٨٦- دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.(الخصاص: الفقر)

([2]) ديوان الشنفري/ ص (٢٨).

([3]) المطال:مأخوذه من المماطله وفي رواية أخرى :أُطيل :مطال – اذهل : انساه. أميتة : أضرب عنه صفحاً ، صفحا فأذهل: أعرض عنه وأتركه. واستف : التهم التراب ، الطول: المنوالتمنن ، متطول: الممتنن.

يصارع الجوع حتى يمله ويتركه ولا يدنس نفسه بسؤال بخيل طعاماً، فهو شجاع متحكم في غرائزه ويؤثر عياله على نفسه ولا يقبل الذل والضيم ويفـضل عليـه الموت، فأي إرادة عفيفة تلك التي جعلته

يقول:[1]

وإني لأثوي الجوع حتى يملني
فيذهب لم يدنس ثيابي ولا جرمي

واغتبق الماء القراح فأنتـهي
إلى الزاد أمس للمزلج ذا طـعم[2]

أرد شجاع البطن قد تعلمينـه
فأوثر غيري من عيالك بالطعـم

مخافةَ أن أحيا برغم وذلـة
وللموت خير من حياة على رغـم

ويدور الشاعر ذو الأصبع العدواني في لوحة من حميد الخصال يتبين فيها أنه عفيف النفس عفيف اللسان وبخاصة على الاقربين ، فيعف نفسه عـن فحـش القول وفاجره، وليس ذلك عن ضعف واستكانة، وإنما هو الشجاع المقـدام متـى ناداه واجب الحق دفاعاً، ولكنه البطل الجسور الذي يكبح جماح نفـسه وينتـصر

(1) ديوان الهذليين /ج٢/ ص ١٢٧
(2) المزلج : البخيل

عليها حتى لا يلام بإثم ليس من خلائقه؛ فالعفة تدعوه إلى تقدير العواقب وتبين له النتائج وهو مؤمن بأن:[١]

ولا لساني على الأدنى بمنطلق

بالفاحشاتِ ولا فتكي بمأمون

عف يؤوس إذا ما خفتُ من بلد

هوناً فلستُ بوقاف على الهون[٢]

كل امرئ راجع يوماً لشيمته

وإن تخلق أخلاقاً إلى حين

وعفة النفس تورث الإنسان الحلم والرفق ولين الجانب، وحتى لو طلب الإنسان نوال الآخرين فلا ينبغى له أن يتساقط أمامهم ذلة ومهانة، فيكفي أن ينال نوالهم بترفع وإباء، فلا عفة مع الضعة أو ذل النفس، وفي هذا الموقف يصور لنا الشاعر عدي بن زيد في شكل الوعظ والإرشاد كيف يكون الإنسان بطلاً حتى في سؤاله العطاء:[٣]

إذا أنت طالبتَ الرجالَ نوالهم

فعف ولا تأتِ بجهدٍ فتَنكد

ستدرك من ذي الفُحش حقك كله

بحلمك في رفق ولما تَشدد

([1])المفضليات / ص١٦٠.

([2]) يؤوس : نفور غير مطاع.

([3]) موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي /ج٢ / ص ٤٤٦.

وفي محيط عفة النفس وإيثار الجوع على السؤال أو طلب الآخرين يبـرز عنترة العبسي في بيت مضمونه البطولة النفسية إذ استطاع أن ينال مـن الجـوع خير مأكل وأحسنه.(١)

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلُه

حتى أنالَ به كريم المأكل

ومن عفة النفس كذلك أن يرضى الإنسان بما قسم الله لـه، وهـذه قـضية يصعب الفصل فيها خصوصاً في العصر الجاهلي فحياة السطو والإغارة والنهـب والسلب كانت السائدة بينهم وملكت على الناس أفئدتهم، والغني عندهم من كثر ماله وقطعانه وبسط سلطانه على الآخرين.

وما احسن البطولة النفسية عند عنترة العبسي حين جهر أنه ما كان يـدخل المعارك طمعاً في الغنائم رغم أنه لم يكن من الأثرياء بل كان يقنع بما يجده فـي حياته وما يجعله في رفعة نفسية، فيصرخ بذلك لعبلته(٢)

هلا سألتِ الخيلَ يا ابنة مالكٍ

إن كنت جاهلة بما لم تعلـــم

يخبرك من شهد الوقائع انني

أغشى الوغى واعف عند المغنم

---

(1) ديوان عنترة /ص ٢٤٩

(2) ديوان عنترة / ص ٢٠٩.

ولا يقف الشنفري عند إعلان عفة نفسه حين يتناول الطعام بصحبة الآخرين، وهو أحوجهم إلى ملء بطنه وسد حاجته ولكنها العفة النفسية التي توصله إلى أن التفضل على الآخرين غايته، وكأنما يضع لنا قاعدة تربوية أخلاقية ينبغي على كل إنسان ادراكها ليقضي على الشره والطمع لما ملكه الغير، فإذا فعل الإنسان ذلك – ولو كان فقيراً كالشنفري- فهو الغني المتفضل[1]

وإن مدت الأيدي إلى الزاد لم أكن

بأعجلهم إذ أجشع القوم أعجلُ

وما ذاك إلا بسطةٌ عن تفضلٍ

عليهم وكان الأفضلُ المتفضلُ

واعدهم أحياناً وأغنى وإنما

ينالُ الغني ذو البعدةِ المتبذلُ[2]

ويؤكد الشاعر الأعشى من معاني عفة النفس أن يبتعد الانسان عن الحسد؛ فالحسود مريضة نفسه طامعة فيما وهبه الغير، ودائماً يضعف في كل المواقف، والحسد يمحق النعمة من الآخرين، فالأحرى بالإنسان أن يبعد مطامعه عن الناس

---

[1] ديوان الشنفري / ص ٦١-٦٢. أجشع : الحرص ، بسطة: السعة ، تفضل : الإحسان ، المتفضل، الذي يدعي الفضل على أقرانه ، المبتذل: الذي لا يبالي.

[2] اعدم: افقر ، والعدم الفقر- المتبذل : الذي لا يبالي.

ويقضي على تفكيره السئ في امتلاك ما ليس له، وما أحسن أن تكون العلاقة بين الناس أساسها عفة النفس:[١]

ولا تحسدن مولاك إن كان ذا غِنًى

ولا تجفه إن كنتَ في المال غانيا

وهذا ابو ذؤيب الهذلي يعطي لنا تصوراً كاملاً عن مقاومة شـره الـنفس وإعادتها لعفتها التي فطرها الله عليها، وأن على الإنسان أن يكون قائداً لها موجهاً إياها إلى الكمال والعفة ويردها إلى الطريق المستقيم متى أرادت الانحراف عنـه، فنفس الإنسان هينة طائعة متى أخلص المرء في معاملتها وتسير كيف يوجههـا، ولهذا فإن الشاعر يرى أن الإصلاح وقت الانحراف والتعديل وقـت الاعوجـاج، وأن النفس العفيفة تقنع بما يقدم لها من أوجه الخير والإصلاح وتلك هي البطولـة في القبول

والنفس راغبةٌ إذا رغبتَها

وإذا تُرد إلى قليلٍ تَقنـــــع

ويقف داعية السلام في العصر الجاهلي زهير بن أبي سلمى مـشيراً إلـى موقف الإنسان الذي لا يكرم نفسه ولا يعفها عما يـشينها مـن ذل ومـسألة، أو يخضعها لهوى الآخرين وتسييرهم إياها، فيرسم للإنسان طريقة إعزاز نفسه بقوة الدفاع عنها والسيطرة عليها، وكل ذلك رسم لبطولة الـشمائل الإنـسانية، وحـق

(١)مختارات الشعر الجاهلي /ج٢ / ص ٣٠٢. والديوان، ص ٢١٨

لزهير أن يتولى ذلك، فهو الذى استطاع أن يخلد دعاة السلام في العصر الجاهلي بنظمه ويهبهم أوسمة شعرية خيراً من هباتهم لإيقاف نزف الدم في حرب داحـس والغبراء، فما أجدره حين يقوم واعظاً ويخطط للعفة النفسية بقوله:

ومن لايزلْ يسترحم الناس نفسه

ولا يعفها يوماً من الذل يندم

ومن عفة النفس أن يتحكم الانسان في نفسه حين تحدثه بالسوء، فلقد فشت الفاحشة في العصر الجاهلي وترنم بعض الشعراء وتطاولوا في مجال الفـضيحة والسطو على نساء الغير والنيل منهن واعتبروا ذلك من محاسن الرجـال وقـوة سطوهم، في حين نجد بعض الشعراء من أمثال عنترة العبسي يهتف بملء فيه عن عفة نفسه وحميد خلقه في أنه حتى ولو غنم بأنثى فلا يقربها اغتصاباً، أو يراودها عن نفسها خيانة، وإنما يقدم على الزواج منها بعد أن يمهرها وتلك بطولة نفـسية تتجلى في العبد المنبوذ ولكنه العفيف المشهود له بذلك حيث يقول:(١)

ما استمت أنثى نفسها في موطن

حتى أوفي مهرها مولاها

ومن صور عفة النفس أن يشعر الإنسان بمكانته في المجتمع في نفسه ومع الآخرين، وأن يحدد موقفه من الجميع ويتبادل معهم نظرات الإكبار والإحترام فإن مالوا إلى خذلانه أو التعفف عنه فسرعان ما يفلت من شباك حقدهم وغيظ أنفسهم

---

(1) ديوان عنترة / ص ١٨٥. أشعار الستة ص ٥١٥ ، استمت أنثى: راودها عن نفسها في الحرام.

فمن لا يكرم نفسه لا يكرمه الناس، ويرسم لنا الأعشى كيف يتعامل الإنسان مع الآخرين من الذين يريدون إذلاله فعليه أن يترفع عليهم ويعف بنفسه عن دناياهم حتى وإن كانوا من أقاربه وذوي رحمه، فمن هان على نفسه هان على الناس واستصغروه، وتربية المرء على العزة وعفة النفس خير له من أن يكون ذنباً يتبع صاحبه أينما حل، ويعتذر إليه كلما أخطأ فيستضعفه كلما تهاون في إنسانيته وتمادى في إمعته، وما الرجل إلا الذى يقف بشخصيته وقدازدادت عفة وكمالاً ولينظر دائماً إلى قول الشاعر[1]:

وإن بشر يوماً أحالَ بوجهه

عليك فحلْ عنه وإن كان دانياً

ونختم لوحات عفة النفس وإكرامها بما خاده الشنفري حيث حرص على رفع الرأس والبعد عن ذلة النفس وعفتها عن مجال الإهانة وهجر محيط من يريدون شقوتها، حتى سارت أبياته من مضمون الحكمة الخلاقة عبر العصور، وينظر لمن تحلى بها أنه من اصحاب البطولة النفسية والشمائل الإنسانية: [٢]

لعمرك ما في الأرض ضيقٌ على امرئ

سرى راغباً أو راهباً وهو يعقل

([1]) مختارات الشعر الجاهلي / ج٢/ ص ٣٠١.

([2]) ديوان الشنفري / ص55 إعداد وتقديم طلاب حرب – دار صادر بيروت.

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى

وفيها لمن خاف القلى متعزل(١)

ومنه أيضاً قول المتلمس الضبعي: (٢)

لا تأخذن ضيماً وتقبل ضؤوله

وموتن بها حراً وجلدك أملس

فما الناس إلا ما رأوا وتحدثوا

وما العجز إلا أن يضاموا فيجلسوا

ومن حذر الاوتار ما حز أنفه

قصير وخاض الموتَ بالسيفِ بيهس

نعامة لما صرع القوم حوله

تبين في اثوابه كيف يلبس

كما قال حاتم(٣):

نفسك أكرمها فانك إن تهن

عليك فان تلقى لها الدهر مكْرما

([1]) القلي : البغض – معتزل : الموضع الذي ينعزل فيه.

([2]) الحماسة البحترية / ص ١٨ ، وفي الديوان وردت : فلا تقبلن مخافة ميتةٍ – الضيم : الظلم ، الأوتار : جمع وتر ، والوتر هو الثأر ، بيهز: هو بيهز بن خاف بن هلال بن غراب بن ظالم بن فزارة بن ذبيان ، نعامة : لقب أُطلق علي بيهز : ديوان المتلمس الضبعي – ص ١١١-١١٦.

([3]) حماسة البحترى / ص ٢٤٧ ، (لم يذكر في الأصل قائل هذا البيت.

وبنفس الطريقة يحدثنا الشاعر مالك بن حريم عن إكرام النفس وإبعادها عن الفحش والشح، ويزجرها عن أمور كثيرة تشينها حتى لا يكون هدفاً للوم النـاس، وهذا تأكيد لمن يتبصر في الأمور ويحزم فعله وهي سمة محببة:

وأكرم نفسي عن أمور كثـيرة

حفاظاً وأنهي شُحها إن تَطَلّعا

وقال زهير: [(١)]

ومن يغترب يحسب عدوا صديقه

ومن لم يكرم نفسه لا يكْرمِ

وقال المري:[(٢)]

وأكرم نفسي إنني إن أهنْتُها

وجدك لم تُكْرم على أحدٍ بعدي

وقال كعب بن سعد الغنوي:[(٣)]

وذي ندب دامي الاظل قسمـته

محافظة بيني وبين زميلي

وزاد رفعتُ الكف عنه عفافة

لأوثر في زادي علي أكِيلي

([1]) شرح المعلقات العشر وأخبار شعرائها / ص ٨٦ ، الاستاذ أحمد بن الأمين الشنقيطي – دار الكتب العلمية – بيروت.

([2]) حماسة البحترى / ص ٢٤٨.

([3]) الحماسة الشجرية / ص ٤٧٤ - تأليف ابن الشجري القسم الأول – تحقيق عبد المعين متولي – منشورات وزارة الثقافة . [كعب بن سعد الغنوي– ٦١٧م) احد بني سالم شاعر جاهلي مجيد ويقال له كعب الأمثال لكثرة ما في شعره من الأمثال ، له ديوان شعر ذكره الحاج خليفة في كشف الظنون]

وما أنا للشيء الذي ليس نافعي

ويغضب منه صاحبي بقؤول

ولن يلبث الجهال أن يتهضموا

أخا الحلم ما لم يستعن بجهول

وهكذا نجد أن البيئة العربية الجاهلية التي قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف وحسن الأحدوثة كان لابد للرجال والنساء من العفة والتعفف؛ لأن العدوان على الغير يجر ويلاً وحربا. وكان لابد من الغيرة على العرض أن يمس أو يخدش ولم تكن الخلاعة والمجانة مما يتغاضون عنه في هذا المجتمع فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعته فعاش طريدا فترة شبابه وحتى مقتل أبيه، والمنافرة التي كانت بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة لعامر: إنك أعور البصر عاهر الذكر وأنا عفيف، فتنافرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب فقال لعلقمة: باي شيء أنت أسود من عامر؟

قال: أنا بصير وهو أعور، وأنا أبو عشرة وهو عقيم، وأنا عفيف وهو عاهر.

والعفة: شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم.

ولهذا كثر الفخر بالعفة والمدح بها فقد افتخر بوزع بن عدي الأوسي بأنه لم يخن زوجته ولم يخاتل زوجة غيره أو جاره يقول:

لعمر أبيها لا تقول حليلتي

ألا أنه قد خانني اليوم بوزع

وأحفظ جاري أن أخائل عرسه

ومولاي بالنكراء لا أتطلع

والعفة هي حلية الرجال ومفخرة من مفاخر الأبطال، فهذا عنترة بن شـداد يفخر أنه لم يراود أنثى عن نفسها وانما يتزوجها من وليها بمهرها، كما ذكرنـا، وبأنه يرى جاراته ويغشى دور جيرانه ما دام الرجال مقيمين, فإن سافروا للغـزو كف عن التردد يقول[١]:

أغشى فتاةَ الحى عند حليلهـــا

وإذا غزا في الحرب لا أغْشَاها

وأغض طرفي ما بدتْ لِي جارتي

حتـــى يواري جارتي مأواها

إنى امرؤ سمح الخـــليقةِ ماجد

لا اتبع النفس اللجوج هواها[٢]

ويضيق المجال عن ذكر كل لوحات عفة النفس في الشعر الجاهلي وكلهـا تفيض بعنصر البطولة النفسية، وكلها من رائق الشمائل في إباء الـذل والتـسامي فوق ما يصيب، وكأن الاقدام في ميدان الحروب وإحجام النفس في مجال الفضيلة والعفة يسيران في خطين متوازيين، فمهما كان الاندفاع والكر والفر كان التعقـل والتريث لإكرام النفس بعفتها ورفعة مكانتها..

([1]) أشعار الشعراء الستة الجاهليين للشمنتري/ ص ٥١٥.

([2]) معني البيت : إذا هويت نفسي ما يكون فيه غضاضة علي ، ولجت في إرادتها منعتها منه ولم اتبعها إياه.

ولقد اشترك شعراء الجاهلية من فرسان ودعاة سلام وصـعاليك وأثريـاء القوم في الدعوة إلى عفة النفس وتجميلها بموفور الصفات التي تجعلها في مكانها اللائق، فالإنسان إنسان في عفته ولو اختلف مشربه.

أما خفاف بن ندبة فإنه يترفعه وصفحه وحلمه وتعلقه بالفضائل يقول:

وأكرم نفسي عن أمور كثيرة أصون

بها عرضي وآسو بها كلمـــي

وأصفح عمن لو أشـآء جزيتُـه

فيمنعني رشدي ويدركني حلـــمي

وأغفر للمولى وإن شاء جزيتـــه

على البغي منها لا يضيق بها حزمي

وهذا يماثل قول أبو فراس الحمداني الشاعر العباسي يصف إخوته بـأنهم أعفاء ولا يعرفون للفاحشة سبيلا، فحجزاتهم طيبة أي لم تحل المنكـر وحـديثهم طيب فقال:

حسان الوجوه طيب حجزاتـــهم

كريم صناعهم غيـــر معـازل[1]

ثم تحدث عن مناقب أخيه في معرض رثائه له فقال:

ولـــم يك مثلوج الفؤاد مهيـــا

أضاع الشباب في الرذيلة والخفض[2]

ولكنه قد نازعتـــه مخامـص

على أنه ذو مرة صادف النقـــض[3]

(1) الحجزات: جمع حجزة وهي موضع التكة من السراويل، النثا: الحديث، شرح أشعار الأندلس

(2) المثلوج : البليد الذي ليس بقلبه ذكاء ، المهيج : الكثير اللحم ، الربيلة : السمن .

(3) المخامص : جمع مخمصة وهو الجوع ، قال تعالي فى سورة التوبة (١٢٠): [ذلك بأنهم لا يـصيبهم ظمـأ ولا نـصب ولا مخمصة في سبيل الله]. شرح أشعار الهذليين / ج٣/ ص ١٢٣٠ – ١٢٣١، ديوان أعشى همدان وأخبـاره ، تحقيـق :د. حـسن عيسي أبو يس ، دار العلوم للطباعة والنشر (الرياض) ، الطبعة الأولي : ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

المبحث الثالث

رعـــــــــاية الجـــــــار

إن من دواعي العجب أن نجد في الشعر الجاهلي أنماطاً من الشعراء يحترمون الجار ويقدرون حقه، في الوقت الذى كانت هناك جماعات منهم تتلصص في غير حياء على عورات النساء وتشهر بهن في غير استحياء، بمقطعات أو ضمن المعلقات، ومدعين بذلك قصب السبق في ميدان الفاحشة وما كانت النسوة اللئي شهدوا بهن إلا من جاراتهم.

فكان لابد أن تظهر البطولة النفسية، وأن تكون حماية الجار والحرص على الدفاع عنه، والإسراع لنجدته وحفظ حرمته موضوع البطولة بأوضح صورها، ولقد حض القرآن الكريم في آيات عديدة على إكرام الجار والحفاظ عليه، ومنها قوله تعالى"واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم إن الله لا يحب من كان مختالاً فخوراً" النساء(٣٦). كما أوصانا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم بالجار في قوله "ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت انه سيورثه". فمن كان في الجاهلية حافظاً لجاره حامياً له فهو البطل بلا منازع، وهو الذى استحق أن يجمع الشمائل الإنسانية ما يخلد ذكره، وهذا ما ألفه الاخيار من شعراء العصر الجاهلي ودأبوا على الحث

عليه والتمسك به ، فأحبطوا أنفسهم الأمارة بالسوء وقهروها في ميدان الفضيلة والبعد عما يشينها خاصة فيما يتعلق بحقوق الجار والحفاظ عليه بكل معاني الحفاظ، وبدأوا بأنفسهم فيما يتعلق بسلوكهم تجاه جيرانهم، ومن ثم أشادوا بحماية الجار لأنه استجار بهم وأعطوه عهداً أن ينصروه، مما جعلهم يعظمون الأخلاق فلا ينقضونها مهما قاسوا بسببها من حروب[١]

فعهد الجار والصديق واحد، وكلاهما له الحق الإنساني كما بينه الشاعر زهير بن أبي سلمى، وعلى المجتمع أن يعترف بذلك ويباشر تنفيذه حتى يعيش الناس في اطمئنان وأمان من الغدر والسطو، وتبرز عاطفة الأخاء وحق الدفاع عن الجار فيما اتفق عليه مهما كانت النتائج[٢]

وجار البيت والرجل المنادي

امام الحي عقدهما سواء

ويعلن الشاعر عوف بن عطية كيف يمنع الظلم والغدر عن جاره حتى يمنحه الأمان والاطمئنان في حياته، ويعلن ميثاق شرف بأن الجار ممتنع من الغدر والسطو والفزع حيث أجير، وهذا أمر تطيب به النفوس[٣].

([1]) العصر الجاهلي / ص ٦٧ شوقي ضيف.

([2]) أشعار الشعراء الستة الجاهليين / ص ٣٣٣.

([3]) المفضليات ص ٣٤١٣ ، المجحفات : الخلال التي تجحف بماله ، ممتنع: منعه مما يجيره.

وأمنع جاري من المجحفـ ـا

ت والجار ممتنع حيث صارا

وكثيراً ما يقرن الشعراء بحق الضيوف، ولعل السبب في ذلك أن الـضيف يعيش دائماً فترة ضيافته في أمان ورغد العيش، فكون الجار ملازماً له في مسلك الجيران أمر يدل على سعة الصدر وغلبة جانب الخير والمؤازرة ويـسر حـال، ولأن الضيف ناقل أخبار مضيفه فالجار دائماً يتحدث بالحسنى عن جيرانه متـى كانوا له مدافعين ولحرمته حافظين، فما أحسن تلك الشمائل أن تكون مادة شاعرية يتغنى بها الناس وتتناقلها الأجيال، وكثيراً ما كانت في شكل وصايا وغالبـاً مـا تكون الوصية من والد لأبنه، ولابد أن تكون الوصية لخيـري الـدنيا والآخـرة، ولرفعة مكانة الأبناء وتخليد ذكر آبائهم، وهذا ما أبرزه الأعشى في لوحته الفنيـة حيث قال[1]:

إن الاعز أبانا كان قال لـ ـ ـنا

أُوصيكم بثلاث إنني تَلِـ ـ ـفُ

الضيف أوصيكم بالضيف إن له

حقاً علي فأعطيه وأعـ ـترف

والجار أوصيكم بالجار إن لـه

يوماً من الدهر يثنيه فينصرف

(1) مختار الشعر الجاهلي ج٢ ص ٢٨٦.

وقاتلوا القوم إن القتل مكـرمة

إذا تلوى بكف المعصمِ العرف

وبنفس الصورة ينطلق الشاعر عمرو بن الأهتم موصياً ابنه بحفظ جـاره وضيفه في الوقت الذى لا يحفظ فيه جار ولا يقري فيه ضيف لشدة الزمان وتخلي الناس الأدنياء عن رعاية جيرانهم، ويرون ما ينزل بهم من إهانات ولا يدفعونها. فهنا تظهر النخوة العربية الأصيلة والخلق الحميد، ويهتف الشاعر بإبنه ألا يفعـل مثلما يفعل الآخرون، وإنما عليه أن يشد من أزر جاره ويصد عنه عوادي الأيام، ويظهر له سماحة الخلق وطيب الخاطر فإنه آنذاك أحوج ما يكون إلى من يواسيه ويحفظ جوار:[١]

لقد أوصيتُ ربعي بن عمرو

إذا حزبتْ عشيرتَك الأمور

بأن لا تفسدن ما قد سعـينا

وحفظ السورة العليا كـبير

وجاري لا تهينَنْه وضـيفي

إذا أمسى وراء البيت كور

أصبه بالكرامة واحتفـ ـظه

عليك فإن منطقة يـ ـسير

([1]) المفضليات / ص ٤٤٩ ، ربيعي : ابنه ، حزبت : فوجئت ودهمت ، السورة: المجد ، كور: كدرا الرحل وهو خشبه ، واحتفظه: خصه لنفسك.

أما الشاعر سلامة بن جندل فيجعل سعادة الجار والـضيف أمـراً مألوفـاً لديهم، فهم دائماً يحرصون أن تكون للجار مكانة مرموقة يشهدها كل الناس، فجعل سعادة الجار والضيف لا تعادلها سعادة لهم إذ يهبونهما خير ما لديهم عن طواعية نفس وطيب خاطر، فهم يغامرون على نياق سمينة غالية الثمن لتـوزع لحومهـا على السائلين احتفاءاً بالجار والضيف، ويظهرون من ألوان الطعام ما يدل علـى كرمهم ويعطي الصورة الكاملة للبطولة النفسية في حماية الجار، وإكرامه، وإكرام الآخرين حباً فيه وترحيباً به[١].

إنّا إذا غربت شمس أو ارتفـــعت

وفي مباركها بزلٌ المصاعيبِ

قد يسعد الجار والضيفُ القريب بنا

والسائلون ونغلي ميسر النـيبِ

وكانت هذه أسعد لحظات العربي في العصر الجـاهلي أن يظهـر الكـرم والعطاء خاصة في حضرة الجيران والضيوف وملاعب الشباب وحكمة الـشيوخ وهي من الشمائل الإنسانية المعدودة عندهم .

ويهتف الشاعر مالك بن حريم أنه حتى لو كان أدركه الكبر واشتعل الرأس شيباً إلا أنه آل على نفسه أن يظل وفياً لخصال أربع، ومنها حمايـة الجـار وألا يقذعه بفاحش القول، ولو تفاحش الناس جميعاً على جيرانهم، فهو الحـافظ للعهـد

(1) موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي / ص ٤٨١

الساهر على راحة جاره وضيفه، المعلن عن كرمه وعطائه لكل الناس، فما أجمل هذه الشمائل متى اجتمعت للمرء، وهذبت نفسه، وهيأته لمحبـة النـاس، وكـسب ودهم[(1)].

فإن يك شاب الرأس مني فإنّني

أبيتُ على نفسي مناقب أربـعا

فواحدةٌ ألا أبيـــــتَ بغرة

إذا ما سوام الحي حولي تَضوعا

وثانية ألا أصـــمت كلـــبنا

إذا نزل الأضيافُ حرصاً لنودعا

وثالثـــة ألا تقـــذع جارتى

إذا كان جار القوم فيهم مقـذعا

ورابعة ألا أحـــجل قـــدرنا

على لحمها حين الشتاء لنشـبعا

وكثيراً ما فخر الشعراء بإكرام جيرانهم، ومن ذلك ما قاله الشاعر المثقـب العبدي من أنه يرعى حق جاره ويسهر على راحته، وإن الخلق الكريم لن يـضيع ذكره بين الناس، ورعاية الجار واجب حتمي عليه[(2)]

([1]) الأصمعيات / ص ٤٩، دار الفكر العربي – مجيد طراد، مالك بن حريم الهمداني (ط). ، مناقب : الخصال والطبائع ، بغرة: الغفلة، تضوعا : تفرق ، أصمت: أسكته ، لنودعا : نترك جانباً ، أحجل قدرنا : سترها من الستر والخباء.

[(2)] موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي / ج٢ / ص ١٨٨.

أكرم الجار وأرعــــى حقه

إن عرفـــان الفتى الحقَ كرم

ويسوق صاحب موسوعة الشعر العربي قصة عن الشاعر دريد بن الصمة تحت عنوان" مال الجار" لابد من ذكرها في هذا المقام: كان بين بني الحارث بـن كعب، وقوم دريد، غارات وثارات، وقد قتل بنو الحارث خالد بن الصمة في أحد ايامهم فهددهم دريد. ورد عليه عبد الله بن عبد المدان الحارثي، من سادة نجران، وكان أن أنس بن مدركة الخثعمي، حليف الحوارث أغار على جشم فأسر وسـبى واستاق اموالاً لأحد جيران دريد. وخاف ذلك بنجران وعجز دريد عن طلب ذلك بالقوة، فلجأ إلى السؤال. فمدح يزيد بن عبد المدان سيد نجران، ثم قدم عليه، فرد السبايا وفك الأسرى. وزاده أموالاً وفي ذلك قال الشاعر مادحـاً وسـائلاً لحـق الجار(١):

بني الديان ردوا مال جارٍ

وأسرى في كبولهم الثقال

وردوا السبي إن شئتم بمنٍ

وإن شئتم مفاداةً بمـــال

فأنتم أهلُ عائدةٍ وفضـلٍ

وأيدٍ في مواهبكم طـوال

(١) موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي / ج٢ / ص ٥٨٩ ، الأغاني ، ج١٠، ص ٣٠، دار صادر بيروت ، بسل: حرام.

متى ما تمنعوا شيئاً فليست

حبائل أخذه غير السـؤال

وحربكم بني الديان حرب

يغص المرء منها بالزلال

وجارتكم بنى الديان بسل

وجاركم يعد من العـيال

بني الديان إن بني زيـاد

هم أهلُ التكرمِ والفـعال

فأولوني بني الديان خيراً

أقر لكم به أخرى الليالي

فهذه براعة من الشاعر أن يعتب عليهم مادحاً كيف يكون جارهم في منعة ولا يستطيع هو أن يخلص جيرانه ويحميهم.

لقد قال صاحب البطولة النفسية الأولى محمد بن عبد الله صـلى الله عليـه وسلم " ليس منا من بات شبعان وجاره إن علم به جوعان" فنجد هذه البطولة قـد ألفها العربي الأبي في جاهليته وأشاد بها الشعراء وربطوا بينها وبين حق الجار

المشروع من حماية ورعاية عهد، فهذا الشاعر الأعشى يشيد بقوم ممدوحه عامر بن الطفيل بأنهم:[1]

المطعمون اللحم إذا ما شـتوا

والجاعلون القوتَ على الياسر

والشافعون الجوع عن جارهم

حتى يرى كالغصن الناضـر[2]

والشاعر نفسه لا يرى هذه البطولة في قوم هجاهم بأنهم يملئـون بطـونهم ويتركون جيرانهم جوعى لا يجدون ما يطعمون، وفي ذلك عيب وإهانة لا تغتفـر متى ثبتت حقيقتها أمام القوم، فلا يفعل ذلك ألا من حقرت نفسه وضعفت عزيمته، والأولى بالأبي الشجاع أن يمد العون لجيرانه حتى تتآلف القلوب وتصفو النفـوس وتلك من شيم الكرام

تبيتون في المشتي ملاء بطونكُم

وجاراتُكم غرثى يبتْن خمائصـا

يراقِبن من جوع خلالَ مخـافة

نجوم السماء الطالعات الشواخصا

---

[1] مختارات الشعر الجاهلي / ج٢ / ص ١٧٢.

[2] ديوان الاعشى ص ٩٤ دار صادر- الشافعون : معناها الدافعون .

وتلك خصلة من أحط الخصال ألا يصيب الرجل جاره مما ساقه الله إليـه من رزق، ويرعى حقه متى قل مورده، أو نزلت به النوازل أو أصابته حاجة.

ونجد الشاعر عروة بن الورد يحرم على نفسه لوناً من الطعام إذا علـم أن بيت جاره قد خلا من ذلك الطعام، وفى ذلك مشاركة وجدانية، وهي من الخصال الإسلامية الحقة، فقد أمرنا الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ألا يؤذي الإنـسان جاره برائحة قدره. وما ذلك إلا ليشعر الجار بعدم استطاعته أن يكون له نفس لون الطعام الذي يعد بالقدر، ويشعر الإنسان بعجزه عن مجاراة جاره، فما بالنـا لـو وجدنا تلك الخصلة عند هذا الشاعر الجاهلي حين يقول:[١]

فإن حميتنا ابداً حرام

وليس لجار منزلنا حميت[٢]

أما عبيد بن الأبرص فيشيد في شجاعة وعزم وإقدام كيف يحمي قومه كل ما من تجب الحفاظ عليهم، ويدخل في ذلك كل من استجار بهم أو جاورهم، كمـا تجب عليهم رعاية شئون أراملهم وأيتامهم حتى لا يشعر هؤلاء الضعفاء بقـسوة الحياة وتتخطفهم ذئاب البشر، وتلك من الحقائق الثابتة. التي تحتاج إلى أصـحاب الخلق القويم ليكونوا عوناً وسنداً: [٣]

([1]) موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي / ص ١٧٨.

([2]) حميتنا : معناها نوع من أنواع الطعام يرب باللبن والسمن.

([3]) ديوان عبيد بن الأبرص / ص ١٣٢ ، وشبيه بهذا قوله : الحقيقة ما يحق عليه أن يحميه، ناف: نجمع

إنّا إذا عض الثقا   ف برأس صعدتنا لوينا

نحمي حقيقتنا وبعض   القوم يسقط بينا بينا

نحمي حقيقتَنا ونمنع جارنا

وناف بين أرامل الأيتام

وفي مجال حماية الجار والسهر على راحته ومنع الجوع أن يطرق بابه وحفظ أولاده ورعاية بيته في غيبته يدخل بعض الشعراء عدم إفشاء سر الجار، والابتعاد عن الفضول لمعرفة ما خفى منه، فعفة النفس لازمة للإنسان كفرد صالح، وأكثر لزوماً حين يتطلع أو يعرف من أسرار جاره شئياً فالأولى به أن يكون ملتزماً بالميثاق الأخلاقي، وفي مثل هذه المواقف تظهر البطولة النفسية الحقيقية فيمن يحفظ السر ولا يجاهر بالفضيحة فلكل بيت حرمة وأسرار.فيردد الشاعر قيس بن الخطيم أنه لا يخون جاره بالنظر إلى حليلته ولا يضع نفسه موضع الريبة، ويمنع أن يتعرض لذم الناس لحسن مسلكه مع جيرانه دائماً فهو يرتاح لذاك راحة نفسية لا تضارعها سعادة، فهو طاهر الذيل متناسل من أطهار(1):

وهل يحذر الجار الغريب فجيعتي

وخوني وبعض المقرفين خؤون

وما لمعتْ عيني لغرةِ جـــارة

ولا ودعتْ بالذم حـــين تبين

---

(1) مختارات الشعر الجاهلي / ج٢ / ص٥٧٧ ، وفي الديوان / ص ١٠٧ – ١٠٨ ، المقرف : هو الذي أمه عربية وأبوه غير ذلك وقيل العكس ، الغرة : معناها الخدعة والغش.

أبى الذم آباء نمتني جـــــدودهم

ومجدي لمجد الصالحين معـين

ويصرح حاتم الطائي في نفس محيط عدم التطلع لأسرار الجار والحفـاظ عليه بخلاق الكريم وخصال الإنسان، فما حاول التطلع لجاره ومعرفة سـر بيتـه ليفضحه؛ لأنه يعلم يقيناً أن الكريم من اكتملات شمائله المعنوية والحـسية ، فمـا أحسن قوله(١):

إذا ماريت أختل عرس جاري

ليخفيني الظـــــــلام فلا خفيتُ

أأفضح جارتي وأخون جاري

معـــــــاذَ الله أفعل ما حيـيتُ

ويكمل الصورة البديعة من أخلاقه في نفس المعنى بقوله(٢):

فأقسمت لا أمشي إلى سر جارةٍ

مدى الدهر ما دام الحمام يغرد

ويبرز الشاعر عمر بن كلثوم صورة عن حمايته للجار من لون جديد فـي أنهم كانوا يدافعون عن ديارالجيران قبل الدفاع عن جيرانهم، ويدرءون أي اخطار تحيق بالجيران قبل أنفسهم، وفي ذلك برهان طيب عن الإيثار الخلقي الذي يشكل

---

(1) ديوان حاتم / ص ٣١. اختل: أخادع ، العرس: الزوجة.

(2) ديوان حاتم/ ص ٣٥.

البطولة النفسية للإنسان، فهم يدفعون الشر عن جيرانهم ، ويدفعون عنهم الـديات متى كانت هناك غرامات حرب حفاظاً عليهم، وإبقاء على حسن جـوارهم، فمـا أحسن هذا العمل وأنبل صفات قوم الشاعر:[١]

ونحن إذا عماد الحي خرت

على الأحفاض نمنع من يلينا

ندافع عنهم الأعداء قدمـاً

ونحـــملُ عنهم ما حملونا

ويكمل الصورة في أنهم لا ينتظرون الدخول في الحرب دفاعاً عن الجار، ولكن بمجرد أن تلوح لهم سيوف الأعداء قد سلت من أغمادها يكـون أول عمـل يقومون به هو إحاطة الجيران بكل حماية ويكونوا جبهة دفاعاً لما يتوقع من هجوم الأعداء وإغاراتهم، ويبدءون بتركيز القوة الدفاعية حول بيوت الجيران[٢]:

ونحن المانعون لِما يلينـا

إذا ما البيض زايلت الجفونا

ويربط عروة بن الورد الشاعر الصعلوك بين نفسه وجـاره فـي أنـه إذا أصاب غنى كان لابد أن يقاسم فيه جاره، وهو ذلك الرجل الذي تعود حياة خطف الرزق من غيره، ويكفيه ما يتبلغ به من صعلكته، ولكنه يضع موثقاً على نفسه أنه

---

(1) مختار الشعر الجاهلي ، ج٢ ص ٣٦٦.

(2) ديوان عروة بن الورد / ص٣١.

متى صارغنياً فلن يكون أنانياً في غناه ، وإنما هي سماحة خلقه وإيثاره من هـو فيه من حاجة ماسة لما يصيب وتلك خصال حميدة: (١)

فإذا غَنيتُ فإن جاري نيلُه

من نائلي وميسري معهود

ويعرض الأعشى في أبيات صورة فريدة في الحفاظ على الجار متى تكون الحرب، ويكون من نتائجها أسر وسبايا من الطرفين، فيقف معاتباً الأعداء ومدافعاً عن قومه بادئاً بأنه لا يصح أن تستباح حرمات جيرانه في الوقت الذي يحافظ فيه أعداؤهم على حرمات جيرانهم، ولم يتعرض الشاعر لأهله وذويه وأولاده وإنمـا قدم عليهم جميعاً حق الجار وحمايته،ورفض كل ما يثير حفيظته قبل الكلام عـن رحمه، فما أبدع هذا الإيثار من خلق كريم، وما أجمل أن يرى الإنسان البطولـة النفسية في كلام الشاعر(٢):

أجارتكم بسل علينا محـــرم

وجارتُنا حلٌ لكم وحليلُهـا

فإن كان هذا حكْمكم في قبيلةٍ

فإن رضيتْ هذا فقل قليلُها

---

(1) مختار الشعر الجاهلي ج٢ ص ٣٧٣.

(2) مختار الشعر الجاهلي /ج٢/ص ١٩٥ – الحليلة : هي الزوجة ومنه قوله تعالي : [وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الاختين إلا قد سلف أن الله كان غفورا رحيما] ، النساء (٢٣) ومنه قول عنترة :

وحليل غانية تركتم مجـــــــــدلاً تمكوا فريسته بشدغ الأعلم

ونختم تلك الصورة البطولية بما قاله حاتم الطائي في أن يختـار الإنـسان جاره كريم الخلق حتى يتمثل به في كل تصرفاته، ويقارنه في كل شمائله ويحاكيه في سماحة خلقه[1]:

فجاور كريماً واقْتَدِح من زناده

وأسند إليهِ إن تطاولَ سلّماً

([1]) موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي / ص ٢٠٥

المبحث الرابع

صـــــلة الرحـــــــم

إن صلة الرحم علاقة فطرية بين الإنسان وذويه، وأحياناً تكون في توافـق تام أو تنافر فيما بين الأفراد بعضهم بعضاً متى دب بينهم الشقاق، وسعت إلـيهم الخصومة بسمومها ولعب الشيطان بالأفئدة وتخيل الإنسان أنه يستطيع الحياة فرداً، وإذا كانت الإنفصالية بين أفراد الأسرة الواحدة قد سادت بين القبائل في العـصر الجاهلي إلا مِن الدعوة إلى إغارة أو سطو وذلك قول الشاعر :

وأحياناً علي بكرٍ أخينا

إذا لم نـــــجد إلا أخانا

فإننا نجد في شعر ذلك العصر ما يدل على أن بعضهم جنح إلى لم شـمل الاسرة وأخذت دعواهم تطوف في أنحاء الجزيرة العربية وتجمع ما تفرق منـه. وأكد القران الكريم ذلك في العديد من الآيات مبيناً أن الخير والسعادة في الدارين في صلة الرحم ووصل ما أنقطع والتسامح بين افراد الأسرة الواحدة والبعد عـن دعوة الشاعر الجاهلي الذي كان يدعو للإغارة حتى على الأشقاء[1]:

وكنا إذا أغرنا على جــناب

وأعوزهن نهب حيثُ كانا

---

[1] الأغاني ج٥ ص ١٢٣.

أغرن من الضباب على حلول

وضبة إنه من حان حـانا

واحياناً على بكر أخينـ ـ ـ ـا

إذا ما لم نجـد إلا أخانـ ـا

بينما نجد الدعوة الصالحة في الآيات الكريمة "وإذ اخذنا ميثاق بني اسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً وذي القربى واليتامى والمساكين" البقرة ٨٣ "، "ويسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم مـن خيـر فللوالـدين والأقـربين واليتـامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم"البقرة ٢١٥ ، " يـا ايهـا الذين آمنوا كونوا قوامين بالقـسط شـهداء لله ولـو علـى أنفـسكم أوالوالـدين والاقربين"النساء ١٣٥ ، " قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تـشركوا بـه شـيئاً وبالوالدين إحساناً ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم" الأنعـام ١٥١ " ، "وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحـدهما أوكلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً وأخفض لهما جنـاح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً" الأسراء اية٢٣.

فإذا كانت هذه هي نقاط إصلاح الفرد وتحسين العلاقة بينـه وبـين ذويـه وصلة رحمه على أسس إسلامية مجيدة فإن الأمر لم يخل أن نجد إمارات صـلة الرحم والحض عليها عند بعض شعراء الجاهلية؛ ولهذا يمكن أن نعتبر ذلك ضرباً من البطولة النفسية التي تخطت قواعد المجتمع وأسست نهجاً إنسانياً خصصت له

من الشمائل ما يجعله مقبولاً في سلوك البشر ، فدعوا إلى الكـف عـن العنـاد، والقتل، والتدمير، والتبصر في العواقب، وحفظ القوم، ودفع غائلة الأعادي عنهم، وتوطيد أواصر المحبة والاخوة بين الجميع، فالشاعر في العصر الجاهلي أو فـي غيره من العصور إنسان فيه نزعة الخير ونزعة الشر، وإن تغلبت الثانيـة فـي الجاهلية فقد استيقظت الأولى وحققت مكاسب إنسانية يمكن الإشادة بها. فهذا زهير بن أبي سلمى[1] يعلن في إشارة صريحة كي يكون محاطاً بأهله مقرباً لعـشيرته حافظاً لرحمه في بيته المشهور:

ومن يكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفضله

على قومِهِ يستَغنِ عنْه ويذْمَمِ

فالإحسان إلى الأهل والعشيرة أول درجات صلة الرحم، وبه تطمئن القلوب إلـى سيادة الخير، وتصفو النفوس من الحسد، وتزداد المودة، بينما إذا قطـع الإنـسان القادر صلته لرحمه وتباعد عنهم ومنع عنهم فضل ما لديه من مال أو حسن قول أو بشاشة لقاء فهو المكروه المذموم المبعد من عداد الأسرة، بل والمحتقـر مـن الجميع؛ لأنه استغنى عن إردية الإنسانية فعاش عارياً، وإذا كثر هذا مـن فـرد نبذوه وأصبح طريداً مشرداً منبوذاً

وإن هذه اللفتة الكريمة من زهير تؤكدها الآيات الكريمة " قـل لا أسـألكم عليه أجراً الا المودة في القربى"الشورى ٢٣" ، " ولكن البر من آمن بالله واليـوم

[1] ديوان زهير للأعلم الشمنترى / ص ٩٢.

الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبـه ذوي القربـى واليتـامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب ".البقـرة ١٧٧. ومن صلة الـرحم أن يكون الإنسان لين الجانب لأهله، وهذا من الأمور الصعبة الوجود فـي العـصر الجاهلي؛ فهم قوم كأن قلوبهم قدت من الحجارة في غالبيتهم،وتصاب فكرهم فـلا ينقاد الإنسان للنصح بسهولة، فكانت فيهم الغلظة والفظاظة، ومن طوع نفسه للين عد من القلة النادرة، وذلك مما دفع الشعراء أن ينادوا بلين الجانب موصولاً بصلة الرحم، وفي ذلك يقول الأعشى[1] يحض الناس على صلة الرحم ولـين الجانـب ونصرة العشيرة متى نزل بها مكروه، فليس الشر دائماً طاغياً على الناس ولكـن ربما تلوح إمارات الخير في أفق الطيبين الطائعين فيعملوا بعمله:

ولا تَزهدن في وصل أهل قرابةٍ

ولا تك سبعاً في العشيرةِ عادياً

ولا تَخذلن القوم إن ناب مـغرم

فإنك لا تعدم إلى المجدِ داعـياً

وبنفس طريقة عرض الصورة السابقة يتقدم الشاعر عبيد بن الأبرص فـي أبيات من الحكمة يزينها بالدعوة إلى صلة الرحم، فإنهم ذخر للإنسان وأولى به أن يمد لهم يد الصفح والعون قبل أن يمدها للأباعد.

---

[1] مختار الشعر الجاهلي ج٢ ص ٣٠٢ والديوان ، ص ٢١٨.

فالمرء قليل بنفسه كثير بأهله[١]

ولا تزهدن في وصل أهل قرابةٍ

لذخر وفى وصل الأباعدِ فازهدِ

ويعلن الشاعر نفسه في صراحة تامة تقديره لوالده وأنه يبذل قصارى جهده كي يصون أباه ويحفظ عرضه، وإن الإنسان متى كان باراً بوالديه أو بأحدهما فهو الحميد الصفات الكريم الخصال، وكذلك صيانة العرض من قطع صلة الرحم حتى يعيش الجميع مرفوعي الرأس أعزاء النفوس، ويعرض كذلك أنه معطـاء لأهلـه فماله ليس له، وأنما يبذل إنفاقاً لحاجات قومه وحفاظاً لهم من الفاقة، فما أحسن أن يدرك الشاعر الجاهلي بفطرته تلك الخصال، ويستطيع الانتـصار علـى نفـسه الأمارة بالسوء ليحقق البطولة المنشودة ويرقى في مدارك الشرف، فـإن تعـديل سلوك البشر في عصر لم تكن فيه المفـاهيم النفـسية والاجتماعيـة قـد دونـت أمرصعب، ولكنها فطرة الخير التي فطر الله بعض الناس عليهـا فـي العـصر الجاهلي لتكتمل بها شمائلهم حيث يقول: [٢]

وأكرم والدي وأصون عرضي

وأكره أن أُعد من اللئـ ـ ـام

ويمثل كرم الشاعر حاتم الطائي للضيوف وضرب المثل به فـي محـيط الجزيرة العربية كانت دعوته الخيرة إلى صلة الرحم، فإكرام الأهل والعشيرة بأن

---

(1) ديوان عبيد بن الأبرص ص٦٧

(2) ديوان عبيد بن الأبرص / ص ٨٦.

يكون الإنسان متحملاً عنهم عبء صعوبة حياتهم ومتجاوزاً عن هفواتهم وحـلالاً لمشكلاتهم وكافاً لأذى الغير عنهم أمر ليس بالهين، وإنّما هـي علامـات الكـرم الخُلِقي التي تخفى على الكثيرين يبرزها الشاعر الكريم معدلاً من سلوك البـشر، حاثاً لهم على سلامة حياتهم بفضل ما يقدمون لأهليهم من موائد المعروف التـى تحفل بألوان الخصال الحميدة، وهو بذلك يضرب المثل في الحلم وسعة الـصدر، ويحفظ قومه من مفاجآت الزمن، فما أحسن أن يبقى ود الناس متصلاً ونفوسـهم مطمئنة[1]

تحلم على الادنين واستبق ودهم

فلن تستطيع الحلم حتى تحلمـــا

متى ترقْ أضغان العشيرةِ بالأناة

وكف الأذى يحسم لك الداء محسما

أما الشاعر الحادرة فإنه يصل رحمه بطريقة دفاعية أخلاقية أخرى، فيحـا فظ عليهم ويرعى حقوقهم ويقف دون مس كرامتهم، ويقيهم السوء بالمال الحـلال الذى لا تشوبه شائبة، فإنه مال ينفق لغرض شريف وهل أشرف من صلة الرحم؟ فلابد أن يكون مالاً حلالاً تطمئن النفوس إلى مصدره حتى يؤتي ثماره، فـإذا لـم ينفع المال ودعوته السليم أول الأمر ورأى أن الضرورة قد فرضت عليه القتـال حفاظاً على أهله وتخليداً لحسبه فلا مناص من ذلك، فهم الـسراع إلـى دخـول

---

(1) موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي / ص ٥٠١ ، الاناء : معناها الحلم. والديوان ص ٨١ دار صادر بيروت. ترق : من الرقية ، محسما : الاستئصال

المعامع، والمنادى بعضهم بعضاً حقناً لدماء العشيرة والتصدي لعاديات المغيرين، وتلك صفة إنسانية محببة لأن العاقل من أدرك أن الحرب دمار للمنتصر والمهزوم بنسب مختلفة، واللأولى أن يدفع الإنسان الحرب بسلاح المال فإن قصر هذا السلاح أو فنى فلا مناص من عدة الدماء حتى لا يقف الإنسان عاجزاً أمام ذويه، فالإقدام النفسي لفض الاشتباك سلمياً خير وأبقى وإلا كانت الواقعة.[1]

ونفى بآمن مالنا أحسابنا

ونجر في الهيجا الرماح وندعي

فهذه صورة مشرفة لصلة الرحم والحفاظ عليه والعاقل من جعل هدفه لا إثم ولا عدوان بل دفاع ورد طغيان.

وإذا كان شعراء العصر الجاهلي قد تعرض الخير منهم للدعوة لصلة الرحم، فإن الشاعر طرفة بن العبد يعرض لنا مسألة إنسانية تستحق التبصر والتأني في مضمونها، وتلك هي قضية ظلم الأهل والأقارب، فالمتعارف عليه إنسانياً أن يكون الإنسان دافعاً الظلم عن ذويه حصناً لهم ضد الآخرين، أما ان يكون هو الظالم الغادر فهذا أمر يشق على النفس تصديقه وعلى العقل تصوره، ومرارة الظلم تشتد وتزداد عندما تكون في محيط الأهل ووقعها أسوأ على النفس

(1)المفضليات ص ٣٦ – دار صادر بيروت . بآمن : اوثقه في نفوسهم وأشرافهم ، ونجر : من الأجرار وهو ترك الرمح في بطن المطعون، وندعي : ننتسب

من السيف الباتر، والأولى أن يداوي الإنسان إيلامه بوده ودفع عاديات الأعـداء عنهم:[1]

وظلم ذوي القربى اشد مضاضةً

على المرء من وقع الحسامِ المهنّد

إذا أنت لم تنفع بودك أهلـــه

ولم تنك بالبؤسى عدوك فأبــعد

والشاعر حين يعرض لنا هذه الصور إنما يحقق بها دفع الظلم ويدعو إلـى ذلك وبخاصة في مجال الأهل حتى يكون الرحم موصولاً، والبطل الحقيقـي مـن يتحكم في نفسه وقت الاندفاع للظلم ويحولها إلى جانب الخير فتكون معطاء حانية.

([1]) مختارات الشعر الجاهلي ٣٢٠ [مضى الأمر وأمضى بلغ من قلبي وأثر في نفسي]. تنك : تلحق به الضرر

المبحث الأول

الـوفـاء بالـوعـد

من أنبل الشمائل الإنسانية أن يكون الإنسان وفياً بوعده، باراً بما أخذ على عاتقه، ولو كلفه ذلك مشقة وعناء، فقد حضت آيات الكتاب المبين علـى الوفـاء بالعهد في مواقف عديدة منها قوله تعالى " بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين" سورة آل عمران ٧٦ ، " والموفون بعهدهم اذا عاهدوا" سورة البقرة ١٧٧. فهم أولئك الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه، فمن عجيب الأمور أن نجـد بـين شـعراء الجاهلية من يخطط لسلامة المجتمع الإنساني بالوفاء بالعهود، وينمي في أبناء ذلك العصر تلك الفضيلة؛ لأنها انتصار للإنسان على نفسه بعد صراع مرير يتجـاذب طرفيه عاملان هما الخير في الانجاز والشر في الخلف والغدر، فمن اسـتطاع أن يغلب الجانب الأول فهو البطل الحري بالإكبار.

وكان العرب في جاهليتهم لا يقدرون شيئاً كما يقدرون الوفاء، فـإذا وعـد أحدهم وعداً أوفى به، وأوفت معه قبيلته حتى ولو كلفه ذلك أعز ما يملك من متاع الدنيا. [1]

---

[1] العصر الجاهلي ٦٩.

وقد تسابق الشعراء في هذا الميدان ، فجاء الأعشى يحض على الوفاء بالعهد وأداء الأمانة حتى ولو كلفه ذلك حياته، فيكفي أن يخلد ذكره بين الناس ليقال وعد فأوفى، فهتف بنصائحه الغالية قائلاً(١):

ولا تعِدن الناس ما لستَ منجزاً

ولا تَشْتمن جاراً لطيفاً مصافياً

وإن امرؤ أسدى إليك أمانة

فأوف بها إن مت سميت وافياً

ويؤكد هذا المعنى في مناسبة ثانية عن نفسه بقوله:(٢)

وإني إذا ما قلت قولاً فعلته

ولست بمخلاف لقولي مبدل

أما عامر بن الطفيل فيعطي لنا صورة الإنسان قوي الإرادة البطل الحقيقي الذى إذا أصدر وعيداً نحو غيره ربما يتناساه، ولا يقدم عليه؛ لأن فيه الضرر والهلاك له أو للموعود، أما إذا وعد فلابد من أن يكون حريصاً على الوفاء بوعده لما فيه من خير وعلو مكانة بين الناس جميعاً فيقول: (٣)

وإني إن أوعدته أو وعدته

لأخلف إبعادي وأنجز موعدي

---

(1)مختار الشعر الجاهلي ٢/ ٣٠٢. والديوان ، ص ٢١٨ دار صادر بيروت

(2) الديوان ، ص ١٤١.

(3) ديوان عامر بن الطفيل ٥٨ - دار صادر بيروت ١٩٥٩م – ١٣٧٩هـ - رواية أبي بكر محمد القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد أبي يحيى ثعلب.

ويأتي دور زهير بن أبي سلمى داعية السلام ليحض الناس علـى الوفـاء بالعهد ويبصرهم بأن مكنون صدور القوم من خلق دفينة لابد ظاهرة للعيان فـي يوم من الأيام، وان طال عليها الزمن، أو خفيت عن الناس أحياناً، فكمال المرء أن يكون واضحاً، ظاهره كباطنه، وبطولته أن يفي بما وعد دون حاجة إلى كـذب أو اختلاق الأعذار، وأجدر بأن يكون سر المرء وديعة عند مـن طابـت سـريرته وجمات خصاله وحمدت بين الناس أفعاله، فقال مرشداً للناس: [١]

ومهما تكن عند امرئ من خليقة

وإن خالها تَخفى على النّاس تُعلم

ومن يوفِ لا يذمم ومن يفض قلبه

إلى مطمئن البـــر لا يتجمجم

وقال عمرو بن شاس الأسدي[٢]:

وواعدتني مالا تريد نجازه

مواعيد عرقوب أخاه بيثرب[3]

([1]) مختار الشعر الجاهلي ٢/٢٣٤ - عرقوب: جاء في القاموس المحيط: ابن صخر او ابن معبد بن اسد من العمالقة اكذب اهل زمانه, واتاه سائل فقال: اذا طلع نحلي, فلما اطلع, قال اذا ابلح, فلما ابلح, قال اذا ازهى, فلما ازهى, قال: اذا ارطب, فلما ارطب, قال: اذا انمر, فلما انمر جده ليلا ولم يعط شيئا, وقال جبيهاء الاشجعي:

وعدت وكان الخلاف منك سجية   مواعيد عرقوب اخاه بيثرب.

([2]) الحماسة (82 البحترى- المقابيل : العداوة والشدائد.

(٣) السابق ص- ٨٣.

وقال يزيد بن الحكم الثقفي:

قد قلت خيرا وخير القول أصدقه

لو كان منك بفعل صدق القيل

ومنه قوله في المهلب بن أبي صفرة الازدي وكـان يـضع الأحاديـث فـي ذم الخوارج:

أنت الفتى كل الفتى

لوكنت تصدق ما تقول

وقال النجاشي الحارثي : [1]

متى نلقكم عاماً يكن عام علة

وينظر بنا عام من الدهر مقبل

والله ما ندري أما عندكم لنا

بريثٍ على الموعودِ إن نحن نعجل

وقال كعب بن زهير المزني إنك لاتداوم علي عهدك وشبه عدم مداومتـه للعهد بالماء في الغربال هي أيضاً كمواعيد عرقوب التي يضرب بها المثل :

وما تدوم على العهد الذي عهدت

إلّا كما تمسك الماء الغرابيل

([1]) الحماسة البحترى – ٨٣ زمنه قوله فى المهلب بن أبي صفرة الأندى وكان يضع الأحاديث في ذم الخوارج

أنت الفتي كل الفتـ ـ ـي   لو كنت تصدق ما تقول

كانت مواعيد عرقوب لها مثلا

وما مواعيده إلّا الأباطيل

وقال ابن رحضة الكناني:[١]

وكنتُ على مواعد من إماء

فاخلفني مواعده إمـــاء

انادي موهناً من ذات عرق

لأسمعه وقد فيتً النداء

وقال أعشى همدان [٢]:

وكان أبو سليمان خلـيلي

ولكن الشراك من الأديم

وليس بحابسي من غير شيء

مواعد كل أفّاك أثيـم

قال عدي بن زيد العبادي [٣]:

وما بدأت لي أخا ثقـــةٍ

بريبة لا ورب الحل والحـــرم

([1]) الحماسة ص ٨٣ ، فيت : في الهامش : فيت بالفاء وأنظر إلي ما في تكرار اسم إماء من ذم وتوبيخ وتعنيف ، وهو ما يسمونه في البلاغة بالتكرار والقصد.

([2]) ديوان الأعشي ص 37أفاك : كذاب يعمل ما لا يحل.

([3]) الحماسة ص – ١٠١ ، البحتري.

يأبى لي الله خون الأصفياء وإن

خانوا ودادي لأني حاجزي كرمي

وقال أيضا :

وما خنت ذا عهد وأيت بعهده

ولم أحرم المضطر إذ جاء قانع

وقال كعب بن زهير المزني[١]:

أرعى الأمانة لا أخون أمانتي

إن الخؤون على الطريق الأنكبِ

فكانت الكلمة ينطقها الرجل في العهد الجاهلي تكون عهدا يجب عليه الوفاء به وإلا عرض شرفه للتجريح, ومرؤته للانتقاص. فالوفاء مـن أخـلاق العـرب الأصلية فيهم يقول شريح بن عمران اليهودي[٢]:

بجلى منك إذا ما خُنتني

ليس لي في وصل خوانٍ أرب

لا أحب المرء إلا حافظاً

ربقه العهد على كـــل سبب

([1]) الحماسة ص ١٠١ ، الأنكب : المائل.

([2]) الحماسة ص ١٠١ ، بجل: فرح وحسن حاله..

وقال ثابت قطنة الأزدي:

دهاني رجالٌ لم أكن خفتُ منهم

وخلان غدرٍ شايعوا من دهانيا

وقد كانت لهم تفانيات تذكرهم بالوفاء، فقد كانوا يتعاقدون في المحالفات على الدم، والرب، والماء الطيب، ويتمسحون بالكعبة، يريدون توكيد الحلف ومصاحبته بعمل يذكر بالوفاء, وكانوا يعدون الغدر معرة تتجافى عنه نفوسهم، فإذا ما غدر أحدهم رفعوا له لواء بسوق عكاظ يشهروا به وفي ذلك يقول خطبة بن أوس بن مهن بن جرول أنهم وقومهم لا يغدرون ولا يأتون ما يشكك حليفهم فيهم.

وافتخر عوف بن الأحوص بأنهم ملوك ولكنهم لا يتكبرون على الناس فيحييهم الناس بتحية العامة ثم إنهم يوفون بأيمانهم ونذورهم:

ملوك على أن التحيةَ سوقة

ألا ياهم يوفى بها ونذورها(١)

وقد ضربوا المثل بالوفاء للسمؤال بن عادياء وكان امرؤ القيس قد أودعه مائة درع فأتاه الحارث بن ظالم ويقال الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذها منه, فتحصن منه السمؤال فأخذ الحارث ابنا له غلاما – وكان ذلك الغلام في الصيد.

([1]) الحماسة ص ١٠١، الأياهم : اليه وهي اليمين

فقال: إما إن سلمت الدرع إلي إما إن قتلت ابنك فأبى السموؤال أن يسلم اليه الدرع فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين فقـال الـسمؤال فـي ذلك(١)

وفيت بأدرع الكندي أنـي

إذا ما ذم أقوام وفيت

وأوصي عادياً يوما بـألّا

تهدم يا سمؤالُ ما بنيت

بنى لي عادياً حصناً حصيناً

وماء كل ما شئتُ استقيت

وقد أشاد الأعشى بهذه الأريحية في مدحه لشريح حيث وقع أسيراً في يـد رجل كلبي كان الاعشى قد هجاه ومر به شريح فاستعان به ليخلصه فـذكره أولاً بكرم بيه السمؤال ثم عرض لوفائه فقال: (٢)

كن كالسمؤالُ إذ طاف الهمام به

في جحفل كسواد الليل جرار

جار ابن حيا لمن نالته ذمته

أوفى وأمنع من جار بن عمار

واختار أدراعه أ لا يسب بها

ولم يكن عهده فيها بختّار

---

(1) الأغاني ج ٢٢ / ص١٢٥.

(2) السابق / ص ١٢٦. والديوان ، ص ٦٩ – ٧٠ دار صادر بيروت ، حيا : من أجداد السمؤال] بختار : الخائن.

وأيضاً ممن ضرب بهم المثل في الوفاء قوس بن حاجب بن زرارة. فـإن كان ذلك حديثهم عن الوفاء فليس معنى ذلك أن الغدر ونقـض العهـد لا يعـرف طريقهم، فقد وجد فيهم هذا وذاك، فإلى جانب الأوفياء لابد من الغـادرين، وإلـى جانب المتمسكين بمواثيقهم وعهودهم لا بد من الخائنين بع والناقضين لما فيها. تلك سنة الحياة وطبيعة المجتمعات البشرية في كل أزمنتها وأمكنتها.

المبحث الثاني

الإيمان بالقدر في الجاهلية

وأغلب المواعظ الجاهلية تخوف من مصير مظلم ينتظر الإنسان . وذلـك واضح فيما مر بنا منها. ومن النادر أن نسمع صوتا يدعو إلى غض النظر عـن هذا المصير ومواجهة الحياة بشجاعة . ومن هذا النادر قول بن الذئبة الثقفي[١]:

إن المنيةَ بالفتيـان ذاهبـةُ
لو اتقوها بأسياف وأدراع

بينا الفتى يبتغي من عيشِه سدداً
إذ حان يوما فنادى باسمه الناعي

لا تجعل الهم غلا لا انفراج له
ولا تكونن سؤما ضيقَ الباع

وقول جثامة بن قيس الكناني[٢]:

أصبحت آتي الذي آتي وأتركُه
وبات أكثر رأي الناس مرتابة

فإن أمت والفتى رهن بمصرعِه
فقد قضيتُ من الآدابِ آرابا

([1]) المؤتلف والمختلف ص ١٢٠. وفي سمط اللالىء ٧٩٢/٢ انه جاهلي وفي الاصل كؤوما. بين: أي بينما وهي من الكلمات التي كادت تندثر في لغتنا المعاصرة ومن شعر زهير:

فبين نبغي الصيد جاء غلامنا يدب ويخفي شخصه ويقاتله

وفي الحديث الصحيح (بينا إنا علي بئر انحك منها............... الخ)

([2]) المؤتلف والمختلف ص ١٠٦ . وفي معجم الشعراء ان لجثامة ابنا مخضرما ص ٣٥٦.

وقلما يفجأ المكروه صاحبه

حتى يرى لوجوه الأمن أبوابا

ويتناول الأعشى مسألة القدر ببساطة الجاهلي التي ينبغي أن لا نخلط بينها وبين السطحية والسذاجة. فهو يرى تناقضا بين العدل الذي خص بـه الله تعـالى وبين التفاوت البين فيما قسمه للناس من حظوظ من الخير والشر. وهو يعجب لهذا الإنسان كيف خص بالظلم وهو لا يكون ما يكون بإرادة واختيار.

يقول الاعشى: [(١)]

إن محلًا وإن مرتحلا

وإن في السفر ما مضى مهلا

استأثر الله بالوفاء وبالعد

ل وولى الملامة الرجلا

والارض حمالة لما حمل الله

وما إن ترد مـــا فعـلا

أنثى لها الخفّ والبراثن والـ

حافر شتى والأعصم الوعـلا

([1]) ديوان الاعشى رقم ٣٥ ص ٢٣٣ .. واورد د. محمد حسين شك بن قتيبة في اصالة القصيدة .. واظن انه يعبر عن عدائـه لافكار الاعتزال بموقفه هذا .. فهو يروي للاعشى بيتا يذكر فيه الملكين الكاتبين ويقول ان ١.ذلك ما بقي من دين اسماعيل عليـه السلام ولا يشك فيه . الشعر والشعراء ١٨٦/١ ومما يشير بسر موقفه من اللامية انه روى : استأثر الله بالوفاء وبالحمد بدل العدل , الشعر والشعراء ١/ ١٥ . اما قلق النظم فقد لاحظه بن قتيبة في شعر اخر للاعشى .. ولاحظه بن طباطبا العلـوي فـي ثـلاث قصائد اخرى من شعره . الموشح ص ٦٧. ومن البراثن قول امرو القيس :

وترى الغيث خفيفاً ماهراً ثانياً برثنه ما ينقعر

والناس شتى على سجائحهم

مستوفحاً حافيـاً ومنتعِـلا

ونسبة العدل والوفاء إلى الله تعالى هي أعلى ما وصل إليه تفكير الجاهليـة في القدر.. ونحن نجد هاتين الصفتين منسوبتين إليه تعالى في قول النابغة[1]:

أبى الله إلا عدله ووفاءه

فلا النُكر معروفٌ ولا العرفُ ضائع

أما إيمانهم بالقدر في العدالة فصفة مفهومة وتعني أن الله لا يثيب الحـسن والمسيء نفس الثواب وذلك يقتضي في الاصل أن يكون عمل الإنـسان إراديـاً. وأما الوفاء فيمكن أن نفهم أنه التزام الله تعالى بأن يثيب ويعاقب ولا يترك النـاس سدى. فلا النكر معروف ولا العرف ضائع كما يقول النابغة ..... ولعل الوفاء في اصطلاح الجاهلية يعني الثقة بالله .... ويشير إلى معنى قوله تعالى: " ومن أوفى بعهده من الله" التوبة ١١١. ولعل أصل هذه النظرة في نفي القـدر غيـر عربـي .. فراوية الأعشى يقول أنه اخذها من عباد الحيرة أو نصارى نجران[2] . ويمكن أن نرد الفكرة في شعر النابغة إلى الحيرة لصلته الوثيقة بحكامها .... وكذلك يبدو أن الفكرة ليست مما انتشر على نطاق واسع عند العرب .. ولعل ذلك راجع إلى أنها

(1) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٩.

(2) الاغاني ١١٢/٩ , ٣/١٢-٤.

مما تأخر وصوله إليهم من الافكار الوافدة.. وآية ذلك أنها جـاءت فـي شـعر شاعرين من متأخري أهل الجاهلية.

ولعل أصدق ما يقال عن آراء الشعراء في القدر وحرية الإرادة هو قـول جثامة الذي سبق إيراده، فقد كان أكثر الناس مرتاباً، وكان هذا الشك يؤدي بهـم إلى بلبلة وتردد وحيرة فيما يأتون وما يدعون، ويجرهم إلـى جبريـة متـشائمة يفسرون بها أغلب مشاكلهم . وظواهر الحياة التي تستوقفهم.

ومن ذلك قولهم إن الإنسان مفطور على الشر مجبول على الرزيلة ..

وفي ذلك يقول طرفة لعمر بن هند يوم أصحابه في خذلانهم[1] :

أسلمني قومي ولم يغضبوا

لسوءة حلتْ بهم فادحة

كلُّ خليل كنتُ خاللته

لا ترك اللهُ له واضحة

كلهم أروغ من ثعلبٍ

ما أشبه الليلةُ بالبارحة

ويقول امرؤ القيس[2] :

إذا قلت هذا صاحب قد رضيته

كذلك جدي ما أصاحب صاحبا

---

(1) ديوان طرفة ص ٢٥ دار صادر بيروت ، معني الواضحة : السن .

(2) ديوان امرئ القيس رقم ٤ ص ٦٩ الجد : البخت والحظ ، وفي رواية أخرى دأبى

ويقول زهير[1] :

ليتني خلقت للأبـــد

صخرةً صماء في كبـــَد

لا تشتكي شر جارتهـا

خُلقـت غليظـة الكبـد

ويقول الأفوه الأودي[2] :

بلوتُ الناس قرناً بعد قرنٍ

فلم أر غير خلابٍ وقـــال

ويقول عبيد بن الأبرص[3] :

إني لأخشى الجهولَ الشكس شيمتُه

وأتقي ذا التقى والحلمِ بالراح

ولم تنج المرأة من هذه النظرة المتشائمة .. فقد اتهموها بالكذب والخيانـة وصوروا ذلك طبعا أصيلا فيها .. يقول النمر بن تولب[4] :

كل خليل عليه الرعا

ث والحبلات كذوب ملـــق

---

(1) الحيوان ٣٩١/٤ . وقد ذكر المحقق انهما ليسا في ديوانه . ولم يذكر لهما مصدر اخر.

(2) الطرائف الأدبية ص ٢٣ من ثلاثة ابيات قال عبد الله بن الزبير انها جامعة لما قالت العرب . انظر معاهد التنصيص ١٥٠/٢

(3) ديوان عبيد ص ٤٩ ،دار صادر ، الشكس : الصعب الخلق ، الراح : الواحدة راحة وهي الكف.

(4) الاغاني "الساسي" ١٥٨/١٩. ويقول ذلك في امراته السبية التي ازارها قومها فلم تعد اليه.

[ملق: في للسان ص ١٢٤ مادة ملق. دار ، الملق من الخيل الذي لا يوثق بجريه، أخذهن ملق الإنسان الذي لا يصدق مودته، قال الجعدي:

ولا ملق بنزو وينذر روثه   أحاد إذا قاس اللجام تصلصلا

ويقول آكل المرار الملك[1] :

كل أنثى وإن بدا لك منها

آية الحب حبها خَيْثَعـ ـور

ويقول طفيل الغنوي[2]:

إن النساء كأشجارٍ نبتن معاً

من المرار وبعض المر مأكول

إن النساء متى ينهين عن خُلقٍ

فإنه واجب لابد مفعـول

لا ينْثَنين لرشدٍ إن صرفن له

وهن بعد ملاويم مخاذيـل

وبهذه الجبرية عللوا اختلاف الأفراد في أخلاقهم .. فمنهم من يزعم أنهـا طبيعة لا تتبدل . ومنهم من يردها إلى الإرث او قسمة الله تعالى

يقول قيس بن الخطيم[3] :

وبعض خلائق الأقوام داء

كداء الكشح ليس لـه دواء

---

(1) البيان والتبيين ٣٢٨/٣, وجاء في الاغاني"الدار" ٣٥٣/١٦ ان لحنين الحريري غناء في هذا الشعر. خيثعور : خداع وكذب.

(2) البيان والتبيين ٣٢٨/٣ ولمالك بن ابي كعب قصيدة شبيهة بها ورواها في الاغاني "الدار" ٢٣٦/١٦ .. وفي البيان منها المرار وفي الاغاني منهن مر. وما اثبته يقتضيه المعنى . فالشاعر يريد ان النساء خلق واحد . ولا يستقيم ذلك مع القول بان بعضهن من المرار..

(3) ديوان قيس بن الخطيم رقم ١١ ص ٥٣.

ويقول ذو الأصبع[1] :

كل امرئ راجع يوماً لشيمته

وإن تخالقَ أخلاقاً إلى حيـن

ويقول عبيد بن الابرص[2] :

لا ينفع اللب عن تعلم

الا السجيات والقلـ ـ ـوب

يقول زهير[3] :

فما كان من خير اتوه فانما

توارثه اباء ابائهم قبل

وهل ينبت الخطي إلا وشيجة

وتنبت الا في منابتها النخل

ويقول الافوه الأودي[4] :

ولكل ساع سنة ممن مضى

تنمى به في سعيه او تبدع

---

(1) المفضليات رقم ٣١ ص ١٦٠ , ١٦٣.

(2) ديوان عبيد رقم ٥ ص ١٤.

(3) شرح ديوان زهير ص ١١.

(4) الطرائف الادبية ص ١٨.

وهم يذهبون الى الوراثة في شعر الفخر والمدح غالبا. يقول لبيد[1] :

فاقنع بما قسم المليك فإنما

قسم الخلائق بيننا علامهـا

وإذا الأمانة قسمت في معشر

أوفى بأوفر حظنا قسامهـا

ومثله قول سويد بن أبي كاهل اليشكري :

كتب الرحمن والحمد له

سعة الأخلاق فينا والضلـــع

ومن أغرب ما تلمح فيه هذه الجبرية المتشائمة بعض شعرهم الذي قـالوه في تسفية الكهانة والزجر والسخرية من الطيرة .. ذلك أننا نتوقع منهم فـي هـذا الشعر تفاؤلا يتمشى مع هذه النظرة المتحررة من الأوهام .. ولكننا نجد عكس ذلك يقول أحيحة بن الجلاح في مذهبته[2]:

فهل من كاهن أو ذي إله

ذا ما حان من رب أفول

يراهنني فيرهننـي بنيـه

وأرهنه بني بما أقول

---

[1] شرح ديوان لبيد ص ١٧٩ دار صادر بيروت . وانظر حماسة البحتري : باب غلبة الشيمة والخلق على التخلق ص ٣٥٨. باب نزوع المرء الى اصله ص ٣٤٨. يقول فارضوا مما تسم قال الخليل الخلائق: الأخلاق الحسنة.

[2] جمهرة اشعار العرب ص ٢٣١. وقد روي في البيت قبل الاخير بناشئة منقوطة وفي طبعة الرحمانية ١٩٢٦ بناشئة الا .. والمعنى مستقيم ولكن الا زائدة على الوزن

وما يدري الفقير متى غناه

وما يدري الغني متى يعيل

وما تدري وأن القحت شولا

أتلقح بعد ذلك أم تحيل

وما تدري إذا ذمرتَ سقبا

لغيرك أم يكون لك الفصيل

وما تدري وإن أجمعتَ أمراً

بأي الأرض يدركك المقيل

وفيها يقول :

وقد أعددتُ للحدثان حصناً

لو أن المرء تنفعه الحصون

ويقول في آخرها:

وما من إخوة كثروا وطابوا

بناسئة لامهم الهبولُ

ستثكل أو يفارقها بنوها

سريعاً أو يهم بهم قبيلُ

فهذه قصيدة يغلب عليها التشاؤم برغم ما فيها من التشكيك بعلـم الكهـان

ويقول لبيد في قصيدة حزينة يرثي بها اربد أخاه[1] :

---

[1] شرح ديوان لبيد رقم ٢٤ ص ١٧١. تظلينا : تخمين ، أخدان : أخوان ، الرعاع : الأحداث ، القوارع : المصائب.

أعاذلُ ما يدريك إلا تَظَـينا

إذا ارتحل الفتيان من هو راجع

تبكي على إثر الشباب الذي مضى

ألا إن أخدان الشباب الرعارع

أتجزع مما أحدث الدهر بالفتى

وأي كريم لم تُصبه القوارع

لعمرك ما تَدرى الضوارب بالحصا

ولا زاجراتُ الطير الله صانع

سلوهن إن كذبتموني متى الفتى

يذوقُ المنايا أو متى الغيثُ واقع

ولبيد لا يشك في مصير الإنسان المظلم .... ولكنـه يجهـل ميعـاد هـذا المصير، أما خزز بن لوذان فهو يوصي في قصيدة يرثي فيها نفسه بطلب الخيـر والعمل دون نظر إلى أوهام الطيرة .. ولكنه ينهي هذه القـصيدة بعبـرة حياتـه فيذكرنا بأن كل شيء من الخير والشر ذاهب غير دائم لأحد .. يقول خزز[1] :

طـال الثواء بمأرب وظننت أني غير زائم

من مبلغ عمرو بن لأي حيث كان من الاقاوم

---

(1) المؤتلف و المختلف ص ١٠٢ , عيون الاخبار ١٤٥/١ والوحشيات ص ١٦٦ . والشعر ينسب لمرقم السدوسي او خزز بـن لوذان ولعل المرقم لقب خزز . فقد جاء في نوادر القالي ص ١٨٥ "والنعامة للحارث بن عباد, وولدت النعامة الشيط وهـو لبنـي سدوس وكان لخزر بن لوذان .." وهذا نص على ان خزز سدوسي مما يتفق مع نسب المرقم . وبهذا تعرف جاهليـة الـشاعر .. فالنعامة وصاحبها الحارث مذكوران في حرب البسوس واشعارها.. وقد حقق البغدادي في الخزانة جاهلية الشاعر : ٣٣٠/١

فـارب باك من بني ذهل وقاعدة وقائم

ومشقـقات للجيوب علي كالبقر الحوائـم

لا يمنـعنك من بغاء الخير تعقاد التمائـم

ولا التشـاؤم بالعطاس ولا التيمن بالمقاسم

ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم

فإذا الأشائـم كالأيامن والأيامن كالأشائـم

وكذاك لا خير ولا شر على أحد بدائـم

قد خط ذلك في الزبور الأوليات القدائـم

ويقول الحارث بن حلزة[1] :

يا أيها المزمع ثم انثنى

لا يثنك الحازي ولا الشاحج

ولا قعيد قرنه أعضب

هاج له من مربع هائـج

بينا الفتى يسعى ويسعى له

تاح له من أمـره خالـج

---

(1) الحيوان ٤٤٩/٣. معني الأعضب : مكسور القرن . ومنه قول الأخطل:

إن السيوف غدوهاوروإحها تركت هوازن مثل قرن الأعضب

الحازي: المتحزي: التكهن . الحازي: الذي ينظر في أعضاء ، قال الليث: ومن تحزى عاطسا أو طرقا. الشاحج : صوت البغـل وبعض أصوات الحمار قال ابن سيدة: هي صوت البغل والغراب والحمار وربما استعيرت للإنسان. الأرفح : الذي يذهب قرناه قبل أذنيه في تباعد ما بينهما قال والأرف الذي تأتي أذناه على قرينة. الخلج : الجذب ، وأخلجه جذبه وأنتزعه وفي الحديث يختلجونه على باب الجنة أي يجتذبونه. ، همج: تقال لرذالة الناس والذين لا خير فيهم مادة همج ص ٨٩.

يترك ما رفح من عيشه

يعيث فيه همج هامـج

ويقول علقمة بن عبدة في جملة من خواطره المتشائمة[1] :

ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه

أنّى توجه والمحروم محروم

ومن تعرض للغربان يزجرها

على سلامته لا بد مشؤوم

وكل بيت وإن طالت قوائمه

على دعائمه لا بد مهدوم

وقد يمازج السخرية بالطيرة روح متفائل, وأغلب ما يكون ذلك في الفخر, ومن ذلك قول زبان بن سيار الفزاري في تطير النابغـة بجـرادة وقعـت عليـه ورجوعه عن الغزو[2] :

تخبر طيرةً فيها زياد

لتخبره وما فيها خَبـير

أقام كأن لقمان بن عاد

أشار له بحكمته مشيـر

---

(1) مختار الشعر الجاهلي ص ٤٢٩, المفضليات رقم ١٢٠ ص ٤٠١. منه قول كعب بن زهير :

كل ابن انثي وإن طالت إقامته   يوماً علي آلة حدباء محمول .

وقول طرفة بن العبد :

لعمرك إن الموت ماأخطأ الفتي   لكاطول المرخى وثناياه باليدى .

(2) العمدة ٢٦١/٢ , عيون الاخبار ١٤٦/١.

تعلّم أنه لا طير إلا

على متطير وهو الثبــور

بلى شيء يوافقُ بعض شيء

أحايينا وباطله كثـير

ويقول عوف بن عطية بن الخرع[1] :

نؤم البلاد لحب اللقاء

ولا نتّقي طائراً حيثُ طارا

سنيحاً ولا جارياً بارحاً

على كل حال نُلاقي اليسارا

---

[1] المفضليات رقم ١٢٤ ص ٤١٥.وانظر في النصوص السابقة : الحيوان ٤٤٧/٣ , وحماسة البحتري ص ٢٥٥ في باب تـرك الطيرة.

المبحث الثالث

الحلم

كان في العرب حلماء عدوا مضرب الأمثال في الحلم, وكانوا درجات مختلفة شأنهم شأن غيرهم من الناس.

غير أن الحلماء في العرب الجاهليين كانوا قلة، وكانت تعتبر الحلم من الفضائل وإن خالف السائد من أخلاقهم التي أملتها عليهم ظروف مجتمعهم، ولم يتصف بالحلم منهم إلا بعض الطاعنين في السن المجربين الذين اطفأت السنون حدتهم وحنكتهم التجارب وصقلتهم الأيام، أو بعض الذين يتحملون مساءة القريب الأحمق لأن عقاب القريب أو مجافاته مما لا ترتضيه أخلاقهم إلا في القليل النادر, وقد صور ذو الأصبع العدواني تحمله عمل ابن عمه تصويراً بارعاً أوضح فيه تناقض خلقيهما, فقد صبر على زراية ابن عمه به وعدوانه عليه, يشتري بذلك المحمدة ويحصل على ثناء الناس وتقديرهم يقول في ذلك. [1]

ولي ابن عم على ما كان من خُلق

مختلفان فأقليه ويقليني

---

[1] المفضليات ج١ ص ١٦٠. يشجيني : يحزنني

فإن تُرد عرض الدنيا بمنقصتـي

فإن ذلك مما ليس يشجيني

ولا يرى في غير الصبر منقصةٌ

وما سواه فإن اللهَ يكفينـي

غير أن هؤلاء الحلماء كانوا إذا ثاروا جاءت ثورتهم عارمة تجتـاح مـا أمامها, وذلك لأن الفرق بين الحلم والضعف دقيق غاية الدقة، فقد مدح خلف بـن خليفة مولى قيس بن ثعلبة قوماً من العرب بالحلم وإن حدث ما يثيرهم, فاذا ثاروا كانت ثورة هوجاء:

عليهم وقار الحلم حتى كأنمـا

وليدهم من أجل هيبته كهـلُ

إن استُجهلوا لم يغرب الحلم عنهم

وإن آثروا أن يجهلوا عظم الجهل

وفي إحدى مراثي المهلهل لأخيه كليب يعدد مناقبه فيذكر منها أنـه كـان حليماً عفواً مع قدرته على العقاب والانتقام: [1]

وإنك كنتَ تحلُم عن رجال

وتَعفو عنهم ولك اقتدار

وتمنع أن يمسهم لسـان

([1]) شعراء النصرانية – لويس شيخو – ص ١٦٣.

مخافةَ من يجير ولا يجار

وكانوا كثيرا ما يحلمون على القريب أو الصديق لأن الحلم عليه لا يعد في نظرهم مذلة، بل هو صلة رحم أو تقدير جميل للصداقة واعتراف أكيد بواجباتها.

ومعن ابن اوس له قصيدة في الحلم على صديقه واستعطافه، أملتـه عليـه عاطفة حارة صادقة يقول لصديقه فيها[1].

لعمرك ما أدري وإني لا وجِل

على أينا تعدو المنيةُ أولُ

وإني أخوك الدائم العهدِ لم أخن

إن نبا بك خصم أو نبا يك منزل

أحارب من حاربت من ذي عداوة

وأحبس مالي إن غرمت فاعقل

وإن سؤتنى يوما صفحتُ إلى غد

ليعقب يوماً منك آخر مقبل

ويصور أوس بن حجر حلمه على ابن عمه – وإن كان ظالمـاً – بانـه لا يشتمه ولا يصنع معه غير الصفح في مقابلة العدوان، ولا يبخل عليـه بمـشورة، ويظل محباً له، عطوفاً عليه، ظريفاً معه

لا أشتم ابن العم إن كان ظالما

وأغفر عنه الجهلَ إن كان جاهلا

([1]) الحماسة ج٢/ ص٢ (أبو تمام).

وإن قال لي ماذا ترى يستشيرني

يجدني ابن عم مخلط الأمر مزيلا

وقد رويت قصص عن بعض حلماء العرب تزيد الاعجـاب وان صـحت جميعها كانت عزيمة راسخة كالجبال وضبط النفس عز أن يوجد له مثـال، رووا ان قيس بن عاصم كان شريفا في قومه وكان حليما، وكان الأحنف بن قيس

يقول : انما تعلمت الحلم من قيس

بن عاصم. أتى بقاتل ابنه فقال: رعبتم الفتى وأقبل عليه وقـال: يـا بنـي نقصتَ عددك وأوهنتَ ركنك و أشمت عدوك, وأسأت بقومك, خلوا سـبيله. ومـا حل حبوته ولا تغير وجهه(١).

وقيس بن عاصم هذا هو الذي سئل: بم سددت قومك؟

قال: ببذل الندى وكف الأذى ونصر المولى(٢).

ويقول امرؤ القيس عن الحلم(٣):

إلى مثلها يرنو الحليم صبابة

إذا ما اسبكرت بين درع ومجول

---

(1) الأغاني ج١٢ ص ١٤٠ طاس.

(2) البيان والتبيين – ج٢ – ص ٩٣ .

(3) شرح المعلقات السبع ص – ٢٥ الزوزني . المجول : ثوب تلبسه الجارية.

وزهير يقارن بين السفاهة والحلم وإن السفاهة قرينة الـشباب وإن الحلـم قرين كبار السن يقول في معلقته(١):

وإن سفاه الشيخ لا حلم بعدها

وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

قال حاتم بن عبد الله الطائي**(٢)**:

إذا شئت ناويت امرأ السوء ما نزا

إليك ولاطمت اللئم الملطما

وعوراء قد أعرضتُ عنها فلم تضر

وذي أود قومته فتقومـا

وأغفر عوراء الكريم ادخـاره

وأعرض عن ذات اللئيم تكرما

وقال كعب بن سعد الغنوي(٣):

وعوراء قد قِيلت فلم استمع لها

وما الكلم العوران لي بقبول

وأعرض عن مولاي لو شئت سبني

وما كل يوم حلمه بأصيل

---

(1) السابق - ص ٨٩

(2) ديوان حاتم ص ٨١ دار صادر بيروت . كلمة عوراء الفعلة القبيحة

(3) الحماسة – ص ٢٧٠ (البحتري)

وقال الأعور الشني[١]:

وعوراء جاءت من أخ فرددتها

بسالمةِ العينين طالبة عـذرا

ولو أنه إذ قالها قلتُ مثـلها

ولم أغتفرها أورثت بيننا غمرا

فأعرضتُ عنه وانتظرتُ به غدا

لعل غدا يبدي لمنتظرٍ أمـرا

وقلتُ له عد بالأخـوة بيـننا

ولم أتخذ ما فات من حلمه قمـرا

إذا صبحتني من أناس قوارص

لأدفع ما قالوا منحتهم حـقرا

وقال عميرة بن جابر الحنفي:[1]

ولقد مررتُ على اللئيم يسبني

فمضيتُ عنه وقلتُ لا يعنيني

غضبان ممتلئ علي إهابه

إني وجدك رغمه يرضيني

وقال مضرس بن ربعي الأسدي:[2]

([1]) السابق – ص ٢٧١.

[1] حماسة البحتري– ص ٢٧١.

[2] الحماسة – ص ٢٧٢ . منه قول آخر :

وعوراء قد قيلت فلم استمع لها

ولم أك مشراقا بها من يحيرها

إذا قيلت العوراء وليتُ سمعها

سواء ولم أسأل بها ما دبيرها

تناسيتُها والحلم مني سجيةٌ

وانبأت نفسي أنها لا تضيرها

وقال أبو الأسود:[١]

وأهوج ملحاح تصاممتُ قيله

أن أسمعه وما بسمعي من بأس

ولو شئتُ ما أعرضتُ حتى أصيبه

على أنفه فهواء تعضل بالآسي

فكر قليلاً ثم صد كأنما

يعض بصم من صدور صفا راسي

وقال كعب بن سعد الغنوي أيضاً: [٢]

لقد كان أما حلمه فمروح

وأغفر عوراء الكريم إدخاره   وأعرض عن شتم اللئيم تكرم

([1]) الحماسة – ص ٢٧٢.

([2]) الأصمعيات – ص ٦٨ شرح وتحقيق مجيد طراد. المروح : المريح والمطيب. العزيب: البعيد : تنوب تحل . عجم العود: عضه ليكشف.

علينا وأما جهله فعزيب

أخي كان يكفيني وكان يعينني

علي نائبات الدهر حين تنوب

لقد عجمت مني المصيبة ماجدا

عروفا لريب الدهر حين يريب

وقال أيضاً:[١]

وما أنا للشئ الذي هو نافعي

ويغضب منه صاحبي بقؤولٌ

ولن يلبثَ الجهالُ أن يتهضموا

أخا الحلم مالم يستعن بجهول

وقال عبد الله بن مرة العجلي[٢]:

وعوراء الكلامِ صممتُ عنها

ولو أني أشاء بها سميع

وبادرة وعت النفس عنها

إذا تبقت من الغضب الضلوع

.وقال عمر بن قيس[٣]:

وذي ضغن كففتُ النفس عنه

([1]) الحماسة – ص ٢٧٢ (البحتري)

([2]) حماسة البحتري – ص ٢٧٢

([3]) حماسة البحتري ص ٢٧٢

وكنتُ على مساءته قديرا

ولو أني أشاء كسرت منه

مكاناً لا يطيق له جبورا

وقال حسان بن ثابت: [١]

أعرض عن العوراء حيث سمعتها

واصفح كأنك غافل لا تسمع

وقال النابغة الجعدى [٢]:

ولا خير في حلمٍ إذا لم يكن له

بوادر تحمي صفوه أن يكدرا

ولا خير في جهل إذا لم يكن له

حليم إذا ما أورد الأمر أصدرا

وقال عبد قيس بن خفاف[٣]:

وإذا هممتَ بأمر سوء فأتد

وإذا هممتَ بأمر خير فأفعل

وإذا تشاجر في فؤادك مرةً

أمران فأعمد للأعف الأجمل

---

[1] المصدر السابق – ص ٢٧٣

[2] الحماسة المغربية ص ١٢٣٠ تحقيق د. محمد رضوان الداية.

[3] الحماسة الشجرية – ص ٤٧٠ في المفضليات بأمر شر . في الاصمعيات فأعجل.

أما الأشعار التي جاءت في الحلم فهي أكثر بكثير من الأمثـال الـسائرة. فاقتصر على الاختيار منها ومن الروايات دون قصد الاستقصاء؛ "لان الحلم فـي الشعر باب يطول إلى غير غاية ولا نهاية ".

ويفيده تحليل أشعار العرب هذا أنهم "كانوا يفضلون الحلم ويمدحونه وإنما ينكرونه إذا كان مطلقا مطردا فيعتبرونه عندئذ ذلة لا تطيقها أنفتهم، ولذلك يشيدون ببعض الجهل أي الشدة والعنف في أحوال معينة...

وهناك فريق آخر "لا يحمد الحلم البتة" بينما يرى بعضهم من "قمع الأهواء بفضل الإسلام عامة والحلم خاصة... إن الحلم شعار الإسلام.

وبالإضافة إلى صورة الحلم النظرية التي استخرجناها هكذا مما استعرض من المنثور والمنظوم فانه يرجو من خلال "أخبار حلماء العرب" الإلمـام بماهيـة الحلم. وهؤلاء الحلماء هم جاهليون او مخضرمون أو إسلاميون عاشوا في صدر الإسلام" مما يؤيد "اعتقاد كثير من الناس بان الحلم المثالي فضيلة عربية اختفـت بعد ظهور الإسلام فلم تظهر إلا نادرا".[١]

فهو إذن باب أساسي ففي هذا الباب جمعنا الأخبار المروية عـن خـصال الرجل وأعماله وأقواله ثم قابلنا بينها، ولا يرضى أن يطمـس بعـضها الـبعض الآخر؛ بذلك نروم الوصول إلى الخصال التي من أجلها هي مدحوا الرجل بالحلم، لا من أجل غيرها.بل تجمع من تلك الأخبار ما للرجل من نقائص حتى يعلم كيف

([1]) رسالة عن الحلم – المجلة التونسية تقديم د. الشاذلي.

أنها لم تنف عنه الحلم، أو كيف أنها دليل على أن اشتهار الرجل بـالحلم مفتعـل وانما هو "يتحلم" . ولا تردد أن اقتضى الحال في مخالفة اراء الأدبـاء والكتـاب الذين اوردوا تلك الأخبار وفي مقدمتهم الجاحظ أحياناً ،رغم صداقته للجاحظ، وهو "معوله" غالبا على حد تصريحه.

المبـحث الرابـع

العـــــــــدل

الجاهلي لا يضيق بتحمل تبعة الجماعة التي ينتمي إليها في العادة .. وهذه المسؤولية الجماعية هي روح الحياة القبلية .. ولكننا نجد في الشعر أحيانا دعـوة إلى تحديد المسؤول عن الجرم ورفع العقوبة عن غيره من الأبرياء .. وقد يكـون المجرم والبريء المؤاخذ بجرم غيره من قبيلة واحدة أو من قبيلتين مختلفتـين .. ولعل هذه القاعدة مما بقي في العرب من ملة إبراهيم عليه السلام .. فقد جاء فـي سورة النجم قوله تعالى : "ام لم ينبأ في صحف موسى . وابراهيم الذي وفى . ألا تزر وازرة وزر أخرى" ، وهذا المعنى هو أحد أركان معلقة الحارث بن حلزة .. التي يتساءل فيها عما إذا كان من الحق أن يؤخذ قومه بما فعلـت تمـيم وكنـدة وغيرهم .. وجاء فيها أيضا التفريق بين المذنب والبريء من القبيلة نفسها وهـو قوله[1]:

وأتانا من الحوادث والأنبـا

ء خطب نُعنى به ونُساء

أن إخواننا الأراقم يغلـو

[1] المعلقات السبع للزوزني ص ٣١٠-٣١١ . وهو يذهب الى هذا المعنى صراحة اذ يقول : "يقول يخلطون برآنا بمذنبينا.."

ن علينا في قيلهم إحفاء

يخلِطون البريء منا بذي الذنـ

ـبِ ولا ينفع الخلي الخلاء

ويقول الاعشى[1] :

وإني وما كلفتموني –وربكم-

ليعلم من أمسى أحقَ وأحوبا

لكالثور والجني يضرب ظهره

وما ذنبه إن عافت الماء مشربا

وما ذنبه إن عافت الماء باقر

وما إن تعافُ الماء إلا ليضربا

ويقول النابغة[2] :

حملت عليه ذنبه وتركـته

كذي العر يكوى غيره وهو راتع

فإن كنت لا ذو الضعن عني مكذب

ولا حلفي على البراءة نافع

ولا أنا مأمون بشيء أقولـه

([1]) ديوان الاعشى ص ١٢ ،وفي آخر يقول أحدهم : كالثور يضرب لما عافت البقر ، الجنى: الراعي.

([2]) مختار الشعر الجاهلي ص ١٥٨. وانظر بابا فيمن اخذ بذنب غيره في حماسة البحتري ص ٣٥٣ والديوان ص ٥٤ ، العر : الجرب ، المنتأى: البعد.

وأنت بأمر لا محالة واقع

فانك كالليل الذي هو مدركـي

وإن خلت أن المنتأى عنك واسع

وهو يضيف إلى معنى البراءة من ذنب غيره الطعن في عدالة الشاهد عليه وحلفه على البراءة واحتجاجه لها .. فهو يكاد يجمع ما ذكره زهير في همزيته من طرق الحكم وهو قوله[1] :

وإن الحكم مقطعه ثلاث

يمين أو نفار أو جلاء

هذا مما كان يستحسنه عمر بن الخطاب جداً ويعيده وكان يقدم زهيراً على الشعراء كافة ومن مظاهر هذا التعلق بالعدل أنه لا يغيب عن ذهن المحارب أحيانا فهو يزعم أن حربه كانت عادلة وأنه أخذ بها حقا من حقوقه .. يقول فيه[2]:

بني عمنا لا تذكروا الشعر بعدما

دفنتم بصحراءِ الغميم القوافيـا

فلسنا كما كنتم تُصيبون سلة

فنقبل ضيماً أو نحكم قاضيا

ولكن حكم السيفِ فينا مسلطٌ

([1]) في هذه القصيدة من مصطلح القضاء : الشهداء , والكفالة والعقد والقسم وغيرها . فهي تمثل القضاء الجاهلي تمثيلا جيدا.

([2]) شرح الحماسة للمرزوقي ١٢٤/١ , المؤتلف والمختلف ص ١٤٠

فنرضى إذا ما أصبح السيفُ راضيا

ويقول عمرو بن براقة الهمداني[1] :

وكنت إذا قوم غزوني غزوتُهم

فهل أنا يا آل همدان ظالم

والعدل مما فكر فيه الشاعر الجاهلي بعيدا عن جبريته المتشائمة ..

ويبدو ذلك في كون الظالم لا ينجو من عقوبة غيبية نجد أكثرهم لا يصرح بمصدرها.

يقول درهم بن زيد[2] :

أرنا قومنا والبغي مهلك أهله

يريدون ظلماً في العشير ومأتما

ويقول المتلمس[3] :

ومن يبغ أو يسعى على الناس ظالماً

يقع غير شك لليدين وللفم

ويقول طرفة[4] :

---

(1) امالي القالي ١٢٢/٢.

(2) حماسة البحتري ص ١٦٦.

(3) ديوان المتلمس ص ٢٠٤

(4) ديوان طرفة رقم ١ ص ١١-١٢ (الاجن : المتغير الطعم ، الملح ضد العذب ،يغشب : يخلط ،والظلم يجرالعداوة ، الزعاف : سم ، يشير إلي تمادى كليب في الظلم وقتله ناقة البسوس).

والظلم فرق بين حيي وائل

بكر تساقيها المنايا تغلب

قد يورد الظلم المبين أجنا

ملحا يخالط بالزعاف ويقشب

وخوفوا كذلك من الحروب والبدء بها على أن ذلك لون من البغي الـذي لا تحمد عقباه . ومن أجمل ما جاءنا من ذلك وأكثره تفصيلا قول بلعاء ابـن قـيس الكناني ذاكرا حرصه على السلم ومعرفته لما تجره الحرب من خسارة، وأنه ترك عدوه يبدأ الحرب؛ لأن ذلك سيؤدي إلى خسارته ببغيه(1) :

نهيتُ أبا عمرو عن الحرب لو يرى

برأي رشيدٍ أو يؤولُ إلى عزم

وقلتُ له دع عنك بكراً وحربها

ولا تركبن منها على مركب وخْم

ومهلا عن الحرب التي لا أديمها

صحيح ولا تنفك تأتي على سقْم

فاحر بها بسلا عليكم وإن رئي

لكم زمن من فضل ري ومن طُعم

فإن يظفر الحرب الذي أنت فيهم

وأبوا بدهم من سباء ومن غنم

---

(1) في المصادر خلاف في نسبة الشعر لبلعاء او اخيه حلحة او الحارث بن وعلة الجرمي . انظر حماسة البحتري ص ٧٣ . الحماسة البصرية ٦٣/١ حماسة بن الشجري ص ٥٣.

فلا بد من قتل وعاك فيهم

والا فجرح ليس يكنى عن العظم

دعاني يشب الحرب بيني وبينه

فقلتُ له لا بل هلم إلى السـلم

فلما أبى أرسلت فضلة ثوبه

إليه فلم يرجع بعزم ولا حزم

وأمهلتُه حتى رماني بحرها

تغلغلَ من غي غوي ومن إثم

فلما رمانِيها رميتُ سواده

ولا بد أن ترمي سواد الذي يرمي

فبتنا على لحم من القوم غُودرت

أسنتنا فيه وباتوا على لحـم

وأصبح يبكي من بنين وإخوة

حسان الوجوه وطيبي الجسم والنسم

و نحن نبكي إخـوة وبنيـهم

وليس سواء قتل حق على ظلم

ومعنى دفع الظلم بالقوة كثير في شعرهم .. اما اذا كان رد الظلم بهـذه الوسيلة غير ممكن فان الشاعر الجاهلي لا يجد غير الارتحال عن دار الـضيم .. وهو يعتبر الاقامة فيمن اوقع الظلم عجزا من الافـراد والقبيلـة .. ولا يـرى

الرضوخ لقوة الناس تسليما للقدر .. والمثل الاعلى في مغادرة دار الظلم عندهم سامة بن لؤي الذي هجر مكة الى عمان من ابائه الضيم.

يقول المسيب بن علس[1] :

أبلغ ضبيعة أن البلا
د فيها لذي قوةً مهـ ـرب

وقد يجلس القوم في أصلهم
إذا لم يضاموا وإن أجدبـ وا

فلا تجلسوا غرضاً للهوا
ن خَذْفاً كما تخذف الأرنـ ب

فإن لم تكن لكم مرة
يبلغهـ ا البلـ د الأركـ ـ ب

وهل يقعد الألف لا يغضبو
ن كلهم أنفُهم يضـ رب

وقد كان سامة في قومه
له مأكلٌ وله مشـ رب

فساموه ضيماً فلم يرضه
وفي الأرض من ضيمهم مهرب

([1]) الصبح المنير ص ٣٥٠ .. وانظر في قصة سامة بن لؤي : امالي الزجاجي ص ٤٨ ومن ذلك قول الشنفرة :
ولكن نفس مرة لا تقيم بي علي الضيم ريثما أتحول.

وليس ثمة تعارض بين كثير من شعر الجاهلية الذي يصور الاحتكام إلى القوة والفخر بالغلب وبين الشعر الذي يصور إحساسا واضحاً بالفرق بين العدل والظلم . ذلك أن الشعر الذي يمثل القوة هو شعر الصراع الذي يمثل الدفاع عن كيان القبائل والأفراد ودرء العدوان عنهما . والشعر الذي يمجد العدالة هو سلاح ثانوي في هذا التنازع للبقاء. وقد يكون هذا الشعر محاولة لتفادي اللجوء إلى القوة وقد يكون محاولة لإنهاء الصراع الدامي حين يمتد ويتسع دون أن ينتهي إلى نصر يحسم النزاع .. ولكنه يصور تعلقا واضحا بالحق ويرتبط بقيم الضمير الإنساني المتسامي[1]

وإنا لنُعطي النصفَ ذا الحق إن غدا

ضعيفاً ونلاويه الأبي الغشمشما

ولا نخذل المولى وإن كان ظالماً

ونُبدي له عذراً وإن كان ألوما

ويقول اوس بن حجر التميمي إننا نعطى كل ذى حق حقه ونأخذ حقنا من كل جبار ظالم:[2]

ألم تعلمي أم الجلاس بأننا

كرام لدى وقع السيوف الصوارم

---

[1] الحماسة – ص ٢٤٢ (البحتري) . لوى فلاناً دينه : مطله ، وبحقه : جحده أياه ، الغشمشما : الكثير الظلم .

[2] السابق – ص ٢٤٢ .

وإنا لنعطي الحقَ منا وإننـ ـا

لنأخذه من كل أبلـج ظـالمِ

وقال أيضا أنه يكون منصفاً إذا ظلم :[1]

وإني لأعطِي النصفَ من لو ظلمتَه

أقر وطابتْ نفسه لي بالظـلمِ

وأخصم أقواماً إذا مـا تَعظّـموا

فيمسون سلافي عراصهم وسمي

فإن ما وقفنا عليه في أفكار الجاهلي في شؤون حياتـه لا يـصور فلـسفة ناضجة تفسر هذه الحياة له، ولكنه لا يصور الجاهلي سـاذجا يعـيش بـالغريزة والاستجابة المباشرة للظروف والأحداث, فقد رأينا في الشعر الجـاهلي أصـداء متنوعة للضمير الديني. ورأينا فيه موقفا للحياة يرسم لها خطة لاهيـة أو خلقيـة مثالية. ورأينا فيه آراء في الناس وتأملات في الأخلاق وتفكيراً في القدر ومفاهيم عالية من العدالة والحق والخير .. ولا نستطيع أن نزعم بعد أننا تعرضنا لكل فكر الجاهلية فبعض ذلك داثر نسيه الرواة أو أغفلوه؛ لأنه فكر وثني .. وبعضه يقـع خارج نطاق بحثنا .. فما نقوله في تفكير الجاهلي مقيد بهذه الحدود. وليس حكمـاً نهائياً عاماً.

---

[1] الحماسة – ص ٢٤٢ (البحتري) .

المبحـث الأول

الخضرمة ورأي النقاد

لقد جاء الإسلام بمثله العليا حيث لا مكان فيها للخمريات والغزل اللاهـي والتعصب للقبيلة وإنما يكون المدح والهجاء، والفخر والرثاء، في نطاق الفـضائل الإسلامية التي أخذ الدين الجديد بها أتباعه: من صحة الإيمان وخشية الله، والبذل في سبيل العقيدة، وصدق القول، ونقاء الضمير.

وتلاقت هذه المثل مع القيم الجاهلية العتيقة الموروثة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفاؤه الراشدون، ساهرين على التمكين للقـيم الإسـلامية مـن المجتمع العربي الذي شهد المبعث .

وهنا تلقانا قضية من أخطر القضايا في تاريخ الأدب العربي لتلك الفتـرة : فمنذ جعل ابن سلام الشعراء ، إما جاهليين وإما إسلاميين[1] ، والدارسون فـي حيرة من أمر شعراء الجيل الإسلامي الأول : فمنهم من عدهم إسلاميين ، خلصاً لا أثر فيهم لجاهلية ، ومنهم من حسبهم جاهليين لم يؤثر الإسلام في شعرهم . والوضعان ، كلاهما ، يعزلان الأدب عن الحياة ...

فظهور الإسلام كان بلا أدنى ريب ، حادثا جليلا حاسما في تاريخ الإنسانية جميعا ، لا في تاريخ العرب فحسب . فلو صح جهة التعبير الفني الخـالص ، لا

---

(1) وكذلك المرزباني في (الموشح) ص. ٧١ تحقيق علي محمد البجاوي ١٩٦٠ ، دار النهضة مصر.

نجد أي فرق بين شعر هذا الجيل وشعر الجاهليين[1]. ولو صح هذا ، لكان معنـاه أن الأدب وقف بمعزل عن ذلك الحادث الأكبر الذي هز أرجاء الجزيرة العربيـة وما حولها ، ولشق علينا أن نجعل للأدب مكانا للحياة ، وقد شهد أعظم ثورة فـي تاريخنا ، وتاريخ البشرية، فوقف في واد والدنيا كلها في واد ...

وكذالك الأمر بالنسبة إلى من جعلوا شعر هذة الفترة- صـدر الإسـلام – إسلامياً خالصا لا تشوبه شائبة من الجاهلية التي نبتت فيها للشعر جذوره العميقـة الراسخة، واحتكمت تقاليدها الفنية في أمزجة الشعراء وألسنتهم والقـول فـي أن العرب تخلوا فجأة عما ألفوه واعتادوه في فنهم القولي الذي يمثل التقاليد العريقـة لماض طويل؛ (لأنهم قد أثروا مغادرة هذا الماضي والإنـصراف عـن أشـباحه وخيالاته ، فانصرفوا لذلك عن الشعر العربي الذي يمثله)[٢] معناه أن الأدب تغير تغييرا حاسما بين يوم وليلة ، فأنبت من جذوره ، وقطع كل صلة بينه وبين ماض طويل ،عاش فيه إلى أمس جد قريب !

ومن الأقدمين أنفسهم من لحظوا أن بين شعراء الجاهلية وشعراء الإسـلام فريقا أطلقوا عليهم شعراء الخضرمة[٣] . وهي تعني ، فـى الأصـل اللغـوي ، الاختلاط الملحوظ فيه الاشتباه : فالخضرم الماء بين الحلو والمر , أو هـو بـين

([1]) الدكتور شوقي ضيف : (النقد) ٢٣ – ط المعارف2.

([2]) .الدكتور شكري فيصل: تطور الغزل: ١٨٧ ط دمشق.

([3]) ابن رشيق العمدة ١ – 2.٧٣.

الثقيل والخفيف . واللحم لا يدرك أمن ذكر أم من أنثى، والرجل لا يعرف أبوه ، أو الأسود من أب أبيض والأذن مقطوعة دون أن تنفصل ...

لكن من الأقدمين من لم يلتفتوا في الخضرمة إلى هذا المعنى، بل ردوها إلى قول لأبي الحسن الأخفش : (يقال ماء خضرم إذا تناهى في الكثرة والسعة ، فمنه سمي الرجل الذي شهد الجاهلية والإسلام مخضرماً كأنه استوفى الأمرين ، ويقال أذن مخضرمة إذا كانت مقطوعة ، فكأنه انقطع عن الجاهلية إلى الإسلام)[1]

والأذن المخضرمة . في تعريف اللغويين ، لا هي مفصولة ولا موصولة وتفسير الخضرمة بالسعة أو بالإنقطاع ، يعطل الملحظ الفني الذي تقضى به طبيعة عصور الانتقال، وهو ملحظ لعله لم يفت صاحب (القاموس) حين أورد في المخضرم معاني الإشتباه والاختلاط، ثم أتبعها بالشاعر الذي أمضى نصف عمره في الجاهلية ونصفه في الإسلام أو من أدركهما. والسياق قد يلفت إلى أن دلالة التوزع في الشاعر بين الجاهلية والإسلام ، ملحوظة في الخضرمة .

على أن مؤرخي الأدب ممن لم يفتهم هذا الاعتبار، اكتفوا بأن يخصوا به الجيل الذي تأثر بالإسلام مع رواسب جاهلية في شعره . على حين نرى من المهم أيضاً أن نجعل من المخضرمين أولئك الذين عاشوا في أخريات الجاهلية وإن لم يدركوا الإسلام .

([1]) ابن رشيق – العمدة : ١/ ٧٣.

وإذا كان تاريخ الأديان يعترف بأن الإسلام لم يأت فجأة ، دون أن تكـون الحياة إذ ذاك قد تهيأت له وظهرت حاجتها إليه ، فالأمر في الفن شبيه بهـذا، ولا بد أن يكون في شعر الفترة الأخيرة من الجاهلية ، ما يسجل التهيؤ لهذا الحـادث الجليل والتطلع إليه .

وقد أفاضت كتب السيرة والتاريخ الإسلامي ، في ذكر الإرهاصات التـي كانت تملأ الجزيرة العربية قبيل المبعث[١] ، وبقي أن تعني الدراسة الأدبية بجمع ما تطلع إليه شعراء الجاهلية من القيم التي كانت تسود وتحـتكم ، ومـا أعطـى تراثهم قبيل الإسلام ، من شعر التحنف والحكمة، وفي الخبر أن الرسول صلى الله عليه وسلم, كان يتلمس من يحفظ كلام قس بن ساعدة في سوق عكـاظ ، وقـد سمعه الرسول قبل أن يبعث وهو على جمل أحمر وهو يقول أيها الناس من عاش مات ومن مات فات وكل ماهو آت آت ....الخ.

وفيه كذلك أنه كان يعجب بقول طرفة [٢]:

ستُبدي لك الأيام ما كنتَ جاهلا

ويأتيك بالأخبار من لم تُزودِ

([1]) الجزء الأول من السيرة النبوية لابن هشام ، وتاريخ الطبري والجزء السادس عشر من نهاية الأرب للنويري ، ط دار الكتب.

([2]) الديوان- ص٤١. ويقول فيه : هذا من كلام النبوة .

وهومن بحر الطويل من معلقته الدالية التى مطلعها :

لخولة أطلالٌ ببرقة ثهمد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد

وطرفة هو القائل[1]:

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كل ليلة

وماتنقص الأيام والدهر ينفـ ـد

لعمرك إن المـ ـوتَ ما أخطأ الفتى

لكالطول المرخي وثنياه باليـد

أرى الموتَ أعداد النفوس ولا أرى

بعيداً غداً ما أقرب اليوم من غد

متى ما يشأ يوماً يقُـ ـده لحتفه

ومن يك في حبل المنيةِ ينقد

كما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعر أمية بن أبي الصلت في الجاهلية قال : هذا رجل آمن لسانه وكفر قلبه.

وليس ببعيد من الإرهاص الفني مثل قول زهير بن أبي سلمى:

ألا ليت شعري هل يرى الناس ما أرى

من الأمر أويبدو لهم ما بدا لِيا

بدأ لي أن اللهَ حقٌ فزادني

إلى الحق تقوى الله ما كان باديا

وإني متى أهبط من الأرض تلعةً

أجد أثراً قبلي جديداً أو عافيا[2]

([1]) الديوان – ص ٣٤ (الطويل : الحبل ، ثناياه : طرفاه ، ينقد : الانقاد : الافناء).

([2]) اشعار الشعراء الستة الجاهليين- ص ٣٤٥/٣٤٢ (ليت شعري:ليت عقلي،تلعة:مجرى الماء الي الروضة، العافى: الدارس).

أراني إذا ما بتُ بتُ على هوىً

وأني إذا أصبحتُ أصبحتُ غاديا

كأني وقد خلفتُ تسعين حجةً

خلعتُ بها عن منكبي ردائيا[١]

بدا لي أني لستُ مدرك ما مضى

ولا سابقاً شئياً إذا كان جائيا[٢]

أراني إذا ما شئتُ لاقيت آية

تذكرني بعد الذي كنتُ ناسيا[٣]

ألم تر أن الله أهلك تُبعـ ـاً

وأهلك لقمان بن عاد وعاديا

وأهلك ذا القرنين من قبل ما ترى

وفرعون جباراً طغى والنجاشيا[٤]

([1]) معناه : ايلا أجد شئ مضى فكأنما خلعت بها ردائي عن منكبي

([2]) اشعار الشعراء السته الجاهليين ص ٣٤٣.

([3]) التابعية – ملوك اليمن وأحدهم : تبع وعاديا أبو السمؤال

([4]) ذا القرنين وفرعون والنجاشيا من الملوك الذين أهلكهم الله

ألا لا أرى ذا إمةٍ أصبحت به

فتتركه الأيام وهي كما هيـ ـ ـا

ألم تر للنعمان كان بنجـ ـوة

من الشر لو أن امرأً كان ناجيـا

فغير منه ملك عشرين حجةً

من الدهر يوم واحد كان غاويا

لم أر مسلوباً له مثل ملكه

أقلّ صديقاً باذلاً أو مؤاسيـ ـ ـا

فأين الذين كان يعطى جياده

بأرسانهن والحسان الغوالـ ـيا

وأين الذين يحضرون جفانه

أذا قدمت ألقوا عليها المراسيا

رأيتهم لم يشركوا بنفوسهم

منِيته لما رأوا أنها هيـ ـ ـ ـا[1]

([1]) امة : النعمة والحالة الحسنة ، بنجوة : بمعزلمنهإنه كان في إرتفاع من الشرف والمتعة ، غاويا : الواقع في هلكه ، جياده : الخيل ، جفانه : ومنه قول الله تعالي (وجفان كالجوابي وقدور راسيات) وقد تجمع جمع قلة كما قال حسان :

لنا الجفان الغر يلمعن بالضحي   واسيافنا يقطرن من نجـ ـ ـ ـ ـ ـ ـدة دم

المراسيا : ألغو عليها مراسيهم إذا ثبتوا عليها ، لم يشركوا : لم يواسوه في الموت

وقول ليبد بن ربيعة في الجاهلية[1] :

حمدت الله والله الحميـد

ولله المؤثـ ـ ـلُ والعديـد

فإن الله نافلة تقـ ـ ـ ـاه

ولا يقتالهـ ـا إلا سعيـ ـد

ويقول فيها:

قُضي الأمور وأنجز الموعود

والله ربي ماجد محمـود

ولقد بلت إرم وعاد كيده

ولقد بلته بعد ذاك ثمود

خلوا ثيابهم على عوراتهم

فهم بأفنية البيوت همود

ولقد سئمت من الحياة وطولها

وسؤال هذا الناس كيف لبيد

ويقول أيضاً:

([1]) المشهور عن " لبيد " أنه لما أسلم ترك الشعر فلم يقل إلا بيتاً أو ثلاثة أبيات. انظر الشعر والشعراء ١ / ٢٧٦ ط الحلبي وفي الديوان ص ٨٨ دار صادر بيروت.

وقال :

بان الشباب ولم أحفل بـ ـه بال وأقبل الشيب والإسـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـ ـلام اقبالا

فالحمد لله الذي لم ياتني اجلي حتي اكتسيت من الاسلام سربال

ولما سئل عن ما بقي من شعره قال : (أبدلني الله خيراً من شعري) البقرة وآل عمران) فزيد في عطائه .

وراجع قصائد لبيد ، في صفحات ٣٤ ، ٣٨، ١٦٨ من " شرح ديوان لبيد بن ربيعة العامري " ط الكويت ١٩٦٢.

المؤثل : الشيء الكثير ، نافلة : هبة ، يقتالها : يسوسها.

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع[1]

وتبقى الجبالُ بعدنا والمصانع

وما المرء إلّا كالشهابِ وضوئه

يحور رماداً بعد إذ هو ساطع

وما المالُ والأهلون إلا ودائع

ولابد يوماً أن تُرد الودائـع

قال أيضاً :[2]

إنما يحفظ التقى الأبرار

وإلى الله يستقر القرار

وإلى الله ترجعون وعند

الله ورد الامور والإصدار

كل شئ أحصى كتاباً وعلماً

ولديه تجلت الأسـ ـ ـرار

---

[1] ورد هذا البيت في اللسان ج5 – ص ٢٩٦ ، يحور : يرجع ويتغير ، منه قول الله تعالي (إنه ظن ألن يحور) يستقر القرار : ترجع جميع الأمور، تجلت : تكشفت، والديوان، ص ٨٨ – ٨٩ دار صادر بيروت.

[2] الديوان ص – ٧٦.

وله قصيدة قصيدة لامية مقيدة يقول فيها : [1]

إن تقوى ربنا خير نفل

وبإذن الله ريثي وعجـــل

وزهير ، وطرفة ، وقس بن ساعدة لم يدركوا الإسلام . و أمية ولبيد قـالا هذا الشعر في الجاهلية، وقد جئنا من شعرهم هنا بما يكفي لأن يشهد بما نريد أن نلفت إليه من تمثيل الشعر في أخريات الجاهلية لفترة التطلع والترقب والإنتظـار، وأن نصحح به ما شاع فينا من قيم وآراء تعزل الفن عن الحياة ، وننفصل في هذا التناقض العجيب الذي تواجهنا به الدراسة الأدبيه في القديم والحديث. فنرى ابـن سلام مثلاً يهدر فترة الخضرمة ، ويوزع طبقاته على جاهليين وإسلاميين ونقـرأ للدكتور شكري فيصل (أن العرب وقد آثروا مغـادرة ماضـيهم فـي الجاهليـة والإنصراف عن أشباحه وخيالاته فانصرفوا لذلك عن الشعر العربي الذي يمثلـه) على حين يقول الدكتور شوقي ضيف: (إن الأدب لم يتأثر بالإسلام إلا قليلا).

وماذاك إلا لأنهم أهدروا فترة الخضرمة ، إهداراً يأباه تراثنا الفني وتنكره طبيعة الفن وناموس الحياة .

وهذا شعرهم في أخريات الجاهلية ، يؤيد وجهة نظرنا في الرجوع بفتـرة الخضرمة إلى ما قبل الإسلام ، مسجلةً للإرهاص الفني بالحادث الجليل ، ومعبرة عن التهيؤ العام الذي عرفناه سياسياً واجتماعياً في تناسي العرب قضيتهم للقبيلـة

(1) الديوان، ص ١٣٩ – دار صادر بيروت ، نفل : الفضل والعطية ، ريثي : الابطاء

أمام الخطر الأجنبي، وقتالهم مجتمعين في يوم ذي قار. وعرفناه دينياً وخلقياً فـي مثل حِلف الفضول الذي تداعت إليه قبائل من قريش (وتعاهدوا على ألا يجـدوا بمكة مظلوماً من أهلها وغيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا أقاموا معه , وكانوا على من ظلمه، حتى ترد عليه مظلمته) وقد شهد المصطفى صلى الله عليه وسلم هذا الحلف قبل أن يبعث ثم قال فيه بعد المبعث: (لقد شهدت في دار عبد الله بـن جدعان حلفاً ما أُحِب أن لي به حمر النعم ، ولو أُدعى به في الإسلام لأجبتُ)[1].

وكما كان التهيؤ الاجتماعي عاماً في الجزيرة كلها وكان التهيـؤ الـديني مركّزاً في مناطق بعينها ، وكذالك رأينا صدى ذلك فـي الـشعر ، حيـث بـدأ الإرهاص الفني للتحول الديني عند الشعراء المتحنفين في مكة أمثال زيد بن عمر بن نفيل الذي قال فيه صلوات الله وسلامه عليه (يبعث زيد أمة وحـده) وهـو القائل : [2]

ورب واحد أم ألف رب

أدين إذا تقسمت الأمور

مثابة حج العرب ومركز تدينهم ، وعند المتطلعـين مـن الحكمـاء ذوي الاتصال بالبيئات الدينيه .

([1]) ابن هشام: السيرة ١ / ١٤٠ ط الحلى.

([2]) الأغاني ٨٥ دار صادر بيروت [أم زيد ولدت الخطاب أبا عمر بن الخطاب]

وإذا تركنا من المخضرمين ، شعراء الجاهليه الذين لم يشهدوا الإسلام مثل زهير والنابغه وطرفة وجدنا من أدركوا الإسلام لم يتأثروا به على حد سواء. بل تفاوت تأثرهم بنسبة قدمهم في الجاهلية، أو مدى تمثلهم للقيم الإسـلامية الجديـدة وانفعالهم بها, وحظهم من صحبة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ومكـانهم فـي المجتمع الديني الجديد .

ويمكننا ان نمييز ثلاث فئات في شعراء الجيل الإسلامي الأول :

الأولى: لمن أدركوا الإسلام بعد أن نضجت موهبتهم واكتمل فنهم وفـات أوان تأثرهم, وهؤلاء عددتُهم : مخضرمين زمناً جاهليين فناً ، مثل: لبيد ، وأميـه ابن أبي الصلت، والخنساء.

الثانية: لمن أدركوا الإسلام صغاراً لم تكتمل موهبتهم وهم المخـضرمون زمناً الإسلاميون فناً.

والثالثة: لمن أدركوا الجاهلية والإسلام عاشوا فيهما على الـسواء وقـالوا الشعر في كل منهما وهم المخضرمون زمناً وفناً كحسان بن ثابت وكعب بن زهير والحطيئة.

لكننا نضيف إلى هذا التقسيم الذي يميز كل صنف من المخضرمين علـى حده ملحظاً جديداً هو أن الذين شاخوا في الجاهلية قد عاشوا فـي فتـرة الترقـب

والقلق والإرهاص فبانت في شعرهم ملامح من الحياة الجديدة قبـل أن يـدركوها على ما رأينا في شعر لبيد وأمية.

كذلك الأمر بالنسبة إلى الآخرين ممن أدركوا الإسلام وتأثروا به وقالوا الشعر بعد المبعث ، فإنهم لم ينجوا تماماً من تأثر بالجاهلية التي غبرت.

والنظرة الناقدة لا يخطئها أن تلمح أثراً إسلامياً في شعر الذين لم يـسلموا منهم ، كما لا يخطئها أن تلمح نزعة جاهلية في شعر الـذين أسـلموا وخاضـوا المعركة بلسانهم إلى جانب الرسول صلى الله عليه وسلم. فعبد الله بـن الزبعـري السهمى ، قال في أحد قبل أن يسلم قصيدته اللامية المقيدة من بحر الرمل :

يا غراب البين أسمعت فقل

إنما تنطق شيئاً قد فُعِـل

إن للخير وللشر مدى

وكلا ذلك وجه وقبـــل

كل بؤس ونعيم زائل

وسواء قبر مثر ومقـل

والمعطيات خساس بينهم

وبنات الدهر يلعبن بكل

أبلغا حسان عني آية

فقرض الشعر يشفي ذا الغلل

كم قتلنا من كريم سيد

ماجدِ الجدين مقدام بطــل

صادق النجدة قرم بارع غير

ملتاث لدى وقع الأســل

ليت أشياخي ببدر شهدوا

جزع الخزرج من وقع الأسل

حين حطّت بقباء بركها

واستحر القتلُ في عبد الأشل

ثم خفوا عند ذاكم رقصاً

رقص الخفان يعلو في الجبل

فقتلنا الضعف من أشرافهم

وعدلنا ميل "بدر" فاعتـدل

لا ألوم النفس إلا أننا

لو كررنا لفعنا المفتعــل

بسيوف الهند تعلو هامهم

عللا تعلوهم بعد نهــل

ثم لما فتح الله صدره للإسلام أقبل على الرسول ينشد في انفعـال صـادق مخاص للدين الجديد[1]:

([1]) طبقات ابن سسلام: ٥٩ .

يا رسول المليك إن لساني

راتقٌ ما فتقت إذ أنا بـ ـ ـور

إذ أجاري الشيطان في سنن

الغي ، ومن مال ميله مثبور

آمن اللحم والعظام بما قلتَ

فنفسي الفدى وأنت النذير

كذلك لم يحسن إسلام حسان ومكانه من النبي الكريم دون نزعة جاهلية في شعره، فلقد جاء في مدحته الهمزية للرسول بأبيات في الغزل والخمريـات علـى مألوف الجاهلية رغم كراهة الإسلام لهذا الصنف من الشعر وهو ملحظ لم يفت أبا العلا المعري حين جاء بحسان بين شعراء جنة الغفران ، ليسأله على لسان ابـن القارح عن أبياته التي منبحر الوافر:

كأن سبيئة من بيت راس

يكون مزاجها عسلٌ وماء

على أنيابها أو طعم غض

من التفاح هصره اجتناء

على فيها إذا ما الليل قلت

كواكبه ومال بها الغطاء

إذا ما الأشربات ذكرن يوما

فهن لطيب الراح الفداء

ثم يقول له منكراً:

" ويحك ! ما استحييت أن تذكر مثل هذا في مدحك رسول الله ؟ "[١].

و كعب بن زهير استهل لاميته بالتقليد الجاهلي العريق:

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول

متيم إثرها لم يفد مكبـ ـ ـ ـول

وما سعاد غداة البين إذ رحلت

إلا أغن غضيض الطرف مكحول

ولم يمنعه تأثره بالقيم الإسلامية في مثل قوله:

إن الرسول لنور يستضاء به

مهند من سيوف الله مسلول

نبئت أن رسول الله أوعدني

والعفو عند رسول الله مأمول

من نزعة جاهلية يأباها الإسلام في تعريضه بالأنصار[٢] وهم من هم فـي المجتمع الإسلامي فيقول مباهياً بقريش القصيدة من بحر الطويل :

في فتية من قريش قال قائلهم

ببطن مكة لما أسلموا : زولـ ـوا

زالوا فما زال أنكاس ولا كشف

يوم اللقاء ولا سود معازيـ ـ ـل

([1]) رسالة الغفران: تحقيق الدراسة بنت الشاطئ : ٢٣٥ ط رابعة – ذخائر العرب.

([2]) ابن سلام: طبقات الشعراء – ٢٠. والشعر والشعراء لابن قتيبة: ١ / ١٥٥)الجمال الزهر : البيض ، ضرب إذا عود

لا يقع الطعن إلا في نحورهم

وما بهم عن حياض الموت تهليل

يمشون مشي الجمال الزهر يعصمهم

ضرب إذا عود السود التنابيـل

والإسلام لا يقر بالهجاء باللون ولا يرى تفاضل النـاس بـالألوان وإنمـا يتفاضلون بالتقوى والعمل الصالح.

وكذلك كان النقد الأدبي في تلك الفترة مخضرماً موزعا بين بين منـه مـا يحتكم إلى مقاييس إسلامية خالصة، كنقد عمر لبيت سحيم (عبدبن الحـسحاس) حين قدم الشيب على الإسلام فقال له لو قدمت الاسلام علي الشيب لأجزتك قـال إذن ما سعرتُ يا أمير المؤمنين : يعني ما شعرت والقصيدة من بحر الطويل:

عميرة ودع إن تجهزت غاديا

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيا

وإعجابه بزهير لأنه كان "لا يتبع حوشى الكلام ، ولا يعاظل في المنطق ، ولا يقول إلا ما يعرف، ولا يمدح الرجل إلا بما يكون فيه "[(١)].

وكقوله لبني العجلان ، حين شكوا إليه النجاشي الحارثي لقوله فيهم:

قبيلة لا يغـ ـ ـدرون بذمـ ـة

ولا يظلمون الناس حبة خـ ـ ـردل

([1]) المرزباني: الموشح ٣٥٤ ط السلفية ١٣٤٣. والشعر والشعراء لابن قتيبة: ١/ ١٣٨ معارف.

" ليت آل الخطاب هكذا "

ثم لما وصلوا إلى بيت الحارثي:

وما سمي العجلان إلا لقيلهـم

خذ القعب واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبيد الله وسيد القوم خادمهم[١] عندما شكى الزبرقان بن بدر من قول الحطيئة :

دع المكارم لا ترحل لبغيتها

وأقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي

فقال لا أرى باساً أوترى بأساً يا حسان فقال :

ما هجاه وإنما سلم عليه وعمر من أعلام الناس بالشعر ومواقع الكلام ولكنه يريد أن يدرأ الحد بالشبهة .

ومنه ما يحتكم إلى موازين وقيم جاهلية: هذا لبيد – الذي اشتهر بصحة إسلامه وبلغ من تأثره بالدين الجديد أن امتنع عن قول الشعر اكتفاء بالقرآن فيما قالوا – سئل بعد إسلامه عن أشعر الشعراء، فأجاب: الملك الضليل يعني إمرأ القيس وهو من أنكرته القيم الإسلامية حتى ليروا أن رسول الله قال فيه: "إنه يأتي يوم القيامة حاملاً لواء الشعراء إلى النار "[٢].

(1) الشعر والشعراء : ١ / ٣٣٠ معارف.

(2) العمدة: ١ /٥٩. والشعر والشعراء: ١ / ٧٤.

وأمام ما يشهد به تراثنا من أن الأدب كان في تلك الفترة ممثلاً للخضرمة بما يحمل من ملامح الجاهلية والإسلام وما يبدو فيه من تأثر بالحياة الجديدة مع رواسب من الماضي، نأبى أن نقول مع عدد من مؤرخي الأدب ونقاده بالانقطاع البات ما بين الشعر العربي وبين وقديمه الجاهلي. فإن انصراف المسلمين إلى الفتح والجهاد فإذا خلوا فإلى العبادة والنسك هو الذي صرفهم عن إنعام النظر في الأدب ونقده، اللهم إلا تطبيق تلك الروح الدينية والخلقية التي جاء بها الإسلام(١).

ونأبى كذلك التسليم بالقول:

" إننا إذا تجاوزنا عن مثل عمر ممن يمثل القوامة على القيم الإسلامية لم نجد كبير فرق بين النقد الأدبي لهذا لعصر وبينه في العصر الجاهلي"(٢).

ذلك لأن إهدار ملامح الخضرمة في ذلك الجيل وضم شعرائها ونقادها إما إلى الجاهلية وإما إلى الإسلام لا يقره تراثنا الأدبي الذي ساير الحياة وعبر عنها في مرحلة واجهت أجل وأخطر حادث في تاريخ العرب.

ولا تبدأ الخضرمة عندنا بظهور الإسلام، بل نمضي بها من أخريات الجاهلية إلى قبيل النصف الثاني من القرن الأول للهجرة، ملتمسين فيها ما يؤكد أن الشعر العربي كان مع الحياة، ومستخلصين له قيمة جديدة تنفي أنه كان بمعزل عن الأحداث الكبار، أو أنه انبت فجأة من ماضيه الطويل.

---

(1) الدكتور بدوي طبانة: دراسات في نقد الأدب ٧٣.

(2) الدكتور طه الحاجري: في تاريخ النقد ٦٩.

و من هذا التناقض الحاد بين رأي من ذهبوا إلى أن الإسلام بتر الشعراء من ماضيهم ورأي من قالوا إن الأدب العربي ظل جاهلياً في صدر الإسلام ومن ثم ندرك أن الأدب لم يكن قط ولن يكون أبداً بمعزل عن الحياة.

وكما رأينا سابقاً أن الشعر الجاهلي الذي عكس صورة من حياتهم في الصحراء " التي تصقل النفوس وتصهر الطباع وتربي في القلوب حب الاستقلال وتغرس في النفس خلالا أظهرها: الشجاعة والكرم، وإيواء الضيف، والوفاء بالعهد، والذود عن الحمى ، وإغاثة الملهوف ، وحماية الجار، والعربي كذلك مرهف الحس لا يقيم على الضيم ولا يرضى بالذل ويعتز بشخصيته" ومن أشعارهم في قول هذا قول عنترة: (١)

ومدجج كره الكماة نزاله

لا ممعن هرباً ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل طعنة

بمثقفٍ صدق الكعوب مقوم

لما راني نزلت أريده

أبدى نواجزه بغير تبسم

وقول الشنفرة : (٢)

([1]) الشعراء الستة الجاهليين ص ٤٧١ – ٤٧٢ . النواجز :الأضراس ، بمثقف :المقوم الصلب ، صدق : صلب ، الكعوب: عقد الرمح

([2]) الديوان، ص ٥٨ دار صادر بيروت ، مرة : الأبيرة ، ريثما : قدر ما

ولكنا نفساً مرةً لا تقيم بي

علي الذام إلاّ ريثما أتحولُ

ورأينا كلام عن الجاهلية بنصوص تسجل " تقاليد العرب واعتزازهم بمـا لهم من شجاعة وكرم وإباء وشيم ".

إن منطق الخضرمة لا يحكم مرحلة الإنتقال فيمـا بـين شـعر الجاهليـة والإسلام فحسب، ولكنه يصدق كذلك على كل مرحلة انتقالية بين عصرين.

المبحث الثاني

أثر الإسلام في حياة العرب

وجاء الإسلام، والإسلام معناه يدل عليه، فهو انقياد وخضوع وطاعـة لله تعالى، قال سبحانه: { وأنيبوا إلى ربكم وأسلموا له[١]} وقال تعالى:{ فقل أسـلمت وجهي لله ..[٢]} والذي أسلم وجهه لله هو المسلم، وقد أطلق القرآن الكـريم هـذه التسمية على الأنبياء ومن يتبعهم قال تعالى: { ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وانتم مسلمون[٣]} { فلما أحس عيسى منهم الكفر قال من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن انصار الله أمنـا بـالله واشهد بأنا مسلمون[٤]} {ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك[5]} ثم خصت في الاستعمال بالدين الذي أنزل على رسول الله محمـد صـلى الله عليـه وسلم، فقد حدد القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى: { اليوم أكملت لكم دينكم وأتممـت

(1) الزمر ٥٤. وينظر في معنى الإسلام: دائرة المعارف الإسلامية مادة (اسلام) بقلم أرنولد. والعقيدة والشريعة في الإسلام – جولد تسيهر ص ٤ الترجمة العربية وفجر الإسلام ص ٧٠.وورد أيضاًفي تفسير جامع بيان الطبري

(2) آل عمران ٢٠.

(3) البقرة ١٣٢.

(4) آل عمران ٥٢.

(5) البقرة ١٢٨.

عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا[١]} {ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه[٢]}.

جاء الإسلام بعقيدة أساسها التوحيد والإيمان بإله واحد خالق قادر، عالم بكل شئ، فنقض الإسلام كل معتقدات الجاهلية المتعلقة بالأصنام والمعبودات، وتعددها وتقديسها، وقد وصف الإسلام الله سبحانه بأنه (رب العالمين) رب كل شئ، وليس رب قبيلة أو فئة أو أمة، ولا رب الناس وحدهم ، وانما رب كل شئ في الوجود، رب السماوات والأرض ، ومن عليها وما فيها،: {لله مافي السماوات ومافي الأرض[٣]} قد احاط علمه بكل شئ وأحاطت قدرته بكل شئ { وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم مافي البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين[٤]، إن الله بكل شئ عليم}[٥].

(1) المائدة ٣.

(2) آل عمران ٨٥.

(3) البقرة ٢٨٤.

(4) الانعام ٥٩.

(5) التوبة ١١٥.

وقد أوضح الإسلام للناس عن طريق الرسل أن وراء الحياة الـدنيا حيـاة أخرى فيها بعث وحساب: {ثم إنكم بعد ذلك لميتون ، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون[١]} فيجازي كل على ما اقترفته يداه أو على ما قدم من إحسان وبر وتقـى: {يومئـذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره[٢]}.

وقد نظم الإسلام حياة الناس فحدد واجباتهم ومسؤولياتهم وبـين حقـوقهم وعلاقاتهم بالله والناس، فأكد أن المسلمين سواسية كلهم، لا يفضل بعضهم بعـضا بأي ميزة مما تعارف الناس عليها في الجاهلية وإنما يكون التفاضـل بطاعـة الله والعمل الصالح ، وأكرم الناس اتقاهم قال تعالى: {يا أيها الناس إنا خلقنـاكم مـن ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله اتقاكم[٣]}.

وقد عني الإسلام بالضعفاء ودعا إلى نصفتهم ومعونتهم، ورفع من شـأنهم وبخاصة النساء والأطفال واليتامى، فضمن حقوقهم في الميرات والـزواج، كمـا عني بالحياة المعيشية فوضع حداً للفروق المادية الواسعة بين المسلمين فأكد الزكاة وهي في مصلحة الفقير، كما حث على الإنفاق والـصدقة، ونهـى عـن اكتنـاز

([1]) المؤمنون ١٥-١٦.

([2]) الزلزلة ٦-٨. وقد سئل رسول الله صلي عليه وسلم عن مسألة فقال ليس عندى فيها إلا هذه الآية الفاذة (فمن يعمل مثقال ذرة........)

([3]) الحجرات ١٣.

الأموال، من ذهب وفضة، وحرم الربا، وكان مستفحلاً في مجتمع مكة وفي المدينة، وبخاصة عند اليهود وعند نصارى نجران(١).

اما الحياة الخلقية، فقد تناولها الإسلام بالصقل والتهذيب، فوجه الناس نحو الآداب العامة، وجعل من خلق المسلم الحياء وغض الأبصار عن النساء، وقد حرم الخمر والميسر والزنا، وابطل أنواعاً مريبة من الزواج، وجعل الزواج عقداً بين طرفين فحفظ كيان الأسرة وحدد عدد الزوجات، وفضل واحدة(٢).

وحث الإسلام على مراعاة الجار وحفظ حقوقه، وجعل من شيم المسلم الصبر في البأساء والحلم والتسامح، والعفو عند الاقتدار والعدل وحفظ الذمم، ووفاء العهود والأمانة والدعوة إلى الإحسان والعمل الصالح، ومحاربة الإثم والعدوان والبغي، وقد جعل الطيش والتهور والتناصر بالباطل وحمية الجاهلية وعصبيتها من رذائل الجاهلية وضلالتها.

وقد أبدل الإسلام فكرة الثأر، الذي كان واجباً على أقارب القتيل، فجعله حقاً من حقوق الأمة، والدولة هي المسئولة عنه، فحول عمليا من ثأر إلى قصاص وإن كان قد ترك لأقارب القتيل أن يختاروا بين قتل القاتل أو قبول الدية.

(1) فتوح البلدان – البلاذري ص ٦٧ و ٧٥ وكذلك تاريخ اليهود في بلاد العرب – اسرائيل ولفنسون ص ١٨.

(2) خشية ألا يعدل الأزواج ولو حرصوا قال تعالى: {ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم} (النساء ١٢٩) وقال تعالى {فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة} (النساء ٣).

وقد عنى الإسلام بالروح الجماعية للأمة، بأن اعتبر المؤمنين كلهم إخـوة في الله، وكان من تأكيده أن فرض الإسلام صلاة الجماعة والحـج، وقـد جعـل الإسلام المسلمين قوة واحدة، وأمة واحدة لا تفرقها الوحـدة القبليـة ولا الوحـدة الجنسية فكان نظام المؤاخاة الذي أقره الرسول في المدينة تأكيداً للروح الجماعيـة ودفعا للروح القبلية التي لم تعد تغني شيئاً أمام إخوة الإسلام حيث يرث الأخ فـي الدين أخاه دون أقربائه وذلك زيادة في الترابط والتضامن الديني وبذلك تحقق قول الله {إنما المؤمنون إخوة الحجرات ١٠ ولم ينسخ هذا التوارث إلا بعدنزول قـول الله عز وجل من سورة الأنفال (وأولوا الأرحام بعضهم أولي ببعض في كتاب الله) الأنفال الآية (٧٥).

وقد أدخل الإسلام فكرة الدولة والقانون الذي هو القرآن لتقوم مقـام فكـرة القبيلة والعرف والعادات العامة وفكرة الدولة الخارجة عن نطاق القبيلة غريبة عن أذهان العرب الذين لم يعرفوا الطاعة إلا في ظل القبيلة[1]. وقـد جعـل الإسـلام مفهوم الدولة يشمل الجانبين الديني والسياسي فلم يفرق بين دين وسياسة وجعـل للرسول السلطة الدينية والدنيوية في آن واحد وجعل الحكم على أساس الـشورى التي تحفظ مصلحة مجموع المسلمين.

([1]) انظر المقدمة – ابن خلدون ص ١٣٤ وما حولها. وقال أبو خراش الهزلي وقد لامته صاحبته علي عدم الأخذ بثأر أخيه :

وليس كعهد الدار يا أمـ ـالك ولكن أحاطت بالرقاب السلاسـ ـ ـل

وعاد الفتي كالشيخ ليس بقائل سوى الحق شيئاً لاستراح العوازل

هذه بعض الجوانب من تعاليم الإسلام التي نرى أنها ذات مساس بمثُل الجاهلية وقيمها.

رأينا فيما تقدم ما كان للجاهلين، من حضارة وفكر وعقائد ومثل عامة ورأينا أن الإسلام جاء دعوة وثورة قلبت المفاهيم السائدة وغيرت المثل الرديئة الضارة وأقام مكان كل ذلك عقيدة وسلوكاً ونظام حياة. وقد التقى التراث الجاهلي التليد، بالتراث الإسلامي الطريف وامتزج كل منهما في الآخر وتأثر بعض ببعض، ونحاول هنا أن نتعرف على آثار ذلك الامتزاج في نفوس العرب وسلوكهم.

لقد جاء الإسلام لينقل العرب من عهد وثني راكد محافظ، إلى عهد إسلامي فيه حيوية وإيمان وتفكير لم تكن هذه النقلة هينة ميسورة فقد لقى رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا السبيل عنتاً ورهقاً وبذل فيها جهداً مضنياً ، ذلك أن المصالح والامتيازات القرشية في مكة كانت تقف حائلاً دون رسالته فأهل الثروة والجاه يرون في الدين الجديد دعوة لانصاف الفقراء والرفق بالمستضعفين ودعوة للانفاق والمساواة وقد رأوا أن المستضعفين والفقراء والعبيد، هم المتحمسون لهذا الدين فكان يقلقهم ويخيفهم أن يؤدي ذلك إلى اضطراب الوضع الاجتماعي وتغيير نظامه وعلى بقاء ذلك الوضع تقوم مصادر ثرائهم وكانوا يقولون أن محمداً يريد أن يسوى بيننا وبين عبيدنا وبين إمائنا وأرادوا أن يصرفوه عن أولئك

المستضعفين (وأصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا) الكهف (٢٨).

وكذلك كانوا يرون في الدعوة الجديدة تهديداً مباشراً صريحاً لمركز مدينتهم الديني فلم يرتاحوا لدعوة تسفه معتقداتهم وتهاجم موروثاتهم وتهدد مصالحهم هـذا التيار الديني المصلحي كان المعارض الأول في مكة وقد وقف بشدة وقوة بوجـه الإسلام، حتى كانت نهايته واندحاره عام الفتح.

وأما التيار الثاني الذي وقف بوجه الدين الجديد فهو التيار القبلي وكان من الطبيعي أن تصطدم التقاليد القبيلـة الموروثـة بتعـاليم الإسـلام ، والجـاهليون محافظون بطبيعتهم يحبون كل ما ورثوه عن آبائهم ومن الصعب أن يقنع الجاهلي بأن أباه كان على خطأ أو ضلال ، هذه امرأة العباس بن مرداس تسمع بأن زوجها قد أسلم فتنشد معاتبة ومعنفة[١]:

لعمري لئن تابعت دين محمد

وفارقت اخوان الصفا والصنائع

لبدات تلك النفس ذلاً بعزة

غداة اختلاف المرهفات القواطع

وكذلك قال كعب بن زهير لأخيه بجير حين أسلم[٢]:

([1]) الأغاني جـ ١٤ ص ٣٠٧ ط الدار.

([2]) ديوان كعب بن زهير ص ٤ ط دار الكتب المصرية وص ١ ط كرنكو – المجمع العلمي البولوني قراقو ١٩٥٠. ويب غيرك: هلكت هلاك غيرك (بجير هو: ابن زهير ابن أبي سلمى).

وخالفت أسباب الهدى وتبعته

على أي شئ ويب غيرك دلكا

على خاق لم تاف أماً ولا أباً

عليه ولم تدرك عليه أخاً لكا

وقد كان الصراع بين الاتجاهين القبلي والإسلامي قائماً منـذ أول الـدعوة واستمر حياة الرسول وامتد إلى زمان بعيد بعد وفاته عليه السلام، وبالامكـان أن نفسر كثيراً من أحداث التاريخ العربي في صدر الإسلام على ضوء تعارض هذين التيارين وفي مقدمة هذه الأحداث حركة الردة.

إن جهود الرسول في الحد من التغيير القبلي والغض منه أنتجت الخلاصة الطيبة من المسلمين الأولين ومن التابعين الذين حملوا راية الإسلام خفاقة عاليـة ونشروها في الخافقين.

ولكن هل انمحت النزعات القبلية والحمية الجاهلية من قلوب العرب بدخولهم فـي الإسلام، وكانوا سواسية في إيمانهم إن طبيعة الحياة ونظم الاجتماع تـأبى ذلـك، وسلوك بعض المسلمين وبخاصة الشعراء تثبت النقـيض فـالعربي الـذي آمـن بالإسلام واعتنق مبادئه لا يمكن أن ينقطع عن ماضيه مرة واحدة، والتعارض بين القديم والموروث والجديد المكتسب لا يزول بيسر وسهولة، وهذا ما حصل للعرب فقد ظل هذا التعارض حين امتزج التياران، يظهر في سلوك العربي فـي صـدر

الإسلام، واستمر دهراً طويلاً من حياة الخلافة الراشدة ولتقريب الفكر وتـصوير النزاع بين النزعتين نضرب ما تيسر من الأمثلة من حياة المسلمين الأولى:

جاء في السيرة: أن وفد هوازن جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم فسألوه أن يرد عليهم السبي فرد عليهم رسول الله ما طلبوه قائلاً: {أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم}.... ووعدهم أن يسأل لهم المسلمين بعد الصلاة ففعل فقال المهاجرون (وما كان لنا فهو رسول الله صلى الله عليـه وسـلم) وقالـت الأنصار: (وما كان لنا فهو لرسول الله صلى الله عليه وسلم) فقال الأقـرع بـن حابس: (أما أنا وبنو تميم فلا) وقال عيينة بن حصن: (أما أنا وبنو فزارة فـلا) وقال عباس بن مرداس: (أما أنا وبنو سليم فلا) فقالت بنو سلم: (بلى ما كان لنا فهو لرسول الله صـلى الله عليـه وسـلم) فقـال عبـاس بـن مـرداس لبنـي سليم:(وهنتموني[1]) وتتضح هنا الروح الإسلامية المتينة التي لا تفسدها الاطماع عند المهاجرين والأنصار فيؤثرون رسول الله على نفسهم، وتتضح الروح القبيلـة الغازية التي تأمل الكسب والمغنم عند الأعراب الذين لما يرسـخ الايمـان فـي قلوبهم.

وفي غزوة حنين حين بوغت المسلمون بالهجوم لم يثبت مـع رسـول الله صلى الله عليه وسلم الا نفر من المهاجرين والأنصار وأهل بيته، وقد ظهر آنذاك

---

(1) السيرة ق ٢ ص ٤٨٨ – ٤٨٩ وكان هؤلاء المعارضون من المؤلفة قلوبهم وانظر كذلك خبر مطالبة العباس بن مرداس بغنائم يوم حنين في سمط اللآلي ص ٣٢، ٣٣.

دغل النفوس وفسادها، فقال أبو سفيان بن حرب: لا تنتهي هزيمتهم [أي مسلمين] دون البحر. وقال جبلة بن الحنبل: [ألا بطل السحر اليوم] فقال أخوه صفوان بـن أمية يردعه وفي ردعه أيضاً روح قبلية " اسكت فض الله فـاك والله لأن يربنـي رجل من قريش أحب إلي من أن يربني رجل من هوازن[١]" لقد كان كثيـر مـن الأعراب من لم يحسن إسلامهم وفي أولئك كان يزيد بن كليب ابن يربوع كـان لا يصوم رمضان فلما عاتبته ابنته قال[٢]:

وتأمرني بالصوم لا در درها

وفي القبر صوم يا أميم طويل

لقد كانت النزعات الجاهلية تنتظر المحك الذي يجلوها وقد وجـدت تلـك النزعات متنفساً لها في كثير من الأحداث منذ ذلك ما حـدث فـي غـزوة بنـي المصطلق حيث كسع رجل من المهاجرين رجلاً من الأنصار فكان بينهما خـصام حتى صرخ " يا معشر الأنصار " وصرخ: " يا معشر المهاجرين" فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم فقال: " ما لكم ولدعوة الجاهلية ". فلما ذكـروا لـه قـال: " دعوها فانها منتنة " فقال عبد الله بن أبي سلول: " لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل[٣] " فوقف ولده بباب بيته وحال بينه وبين الدخول فيـه فنـادى

---

(1) السيرة ق ٢ ص ٤٤٤.

(2) الشعر والشعراء ص ١٧٢.

(3) تفسير الطبري جـ ٢٨ ص ٧٣.

(أبني يمنعني بيتي) قال لا والله حتي يأذن لك رسول الله وحتي تعلم من الأعـز أنت أم رسول الله .

ولم تكن النزعات العصبية الجاهلية وحدها التي تظهر بين حين وآخر بـل كانت النزعات الدينية الوثنية تظهر أيضاً حين تجد إلى الظهور سبيلا: روى أنـه في مسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حنين رأوا سدرة خضراء عظيمـة فتنادى الناس: "اجعل لنا ذات أنواط ، كما لهم ذات أنواط[1]".

وقد استمرت النزعات التي تمثل الحنين إلى العهد القديم في حياة الرسـول وبعد وفاة الرسول ظهرت هذه النزعات على شكل ملاحاة بين الأنصار المـدنيين والمهاجرين المكيين حول الخلافة ثم جاءت الردة لتمثل الاعرابي، فإذا ما قـضى على المرتدين ومضى عهد أبي بكر وعمر ظهرت النزعات الجاهلية فـي شـكل فتنة ضد الخليفة انتهت بمصرعه فإذا جاء علي بن أبى طالب كانت العصبية بين الحجاز والشام تارة وبين العراق والشام تارة أخرى، وبين الأقاليم الثلاثـة تـارة ثالثة وما الفتن والأحداث التي كادت تعصف بكيان الدولة الإسلامية والتي تخطفت ثلاثة من خلفاء المسلمين الا نتيجة طبيعية للصراع بين القيم الجاهلية وبين القـيم الإسلامية.

(1) السيرة ق ٢ ص ٤٤٢ وذات أنواط : شجرة كانوايعلقون عليها السلاح فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم لقد قلتموها (أجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة) .

رأينا أن الإسلام كان حدثاً هز النفوس وأثر في نظم القوم ومظاهر الحيـاة وقد كان الشعر من تلك المظاهر التي تأثرت بالإسلام تأثراً واضحاً بـارزاً مـن حيث الشكل والمعنى ومن حيث اتجاهات الشعر وموضوعاته، صـحته وزيفـه، ضياعه أو إبادته، كل ذلك من أثر الدين الجديد ورأينا سابقاً كيف وقف الإسلام من الشعر(١).

فالرسول ينظر للشعر على أنه ملكة فنية اشتهر بها قومه وأحبوها وأثـرت في نفوسهم وأذواقهم ثم ان من الشعر كلاماً طيباً رفيعاً يوافق الحق وقد روي عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: [إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منـه فهـو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه] وقال: [إنما الشعر كلام ، فمِن الكـلام خبيث وطيب(٢)].

فالأصل في الشعر والفضل فيه أن يوافق الحق وقد كان الرسول حريـصاً على أن يتجه الشعر نحو تمثل المفاهيم الإسلامية ونشر المثل الجديدة التي تنـاى عن ضلالات الجاهلية وعصبياتها وكان الرسول يوجه الـشعراء هـذه الوجهـة ويدفعهم إليها دفعاً ويحذرهم من اتباع الهوى القديم ومن ذلك قوله أصـدق كلمـة قالها شاعر قول لبيد : (ألا كل شئ ما خلى الله باطل).

---

(1) ينظر تفصيل ذلك في كتاب الإسلام والشعر – يحي الجبوري.

(2) العمدة جـ ١ ص ٢٧ وينظر رأي الرسول في الشعر أيضاً في دلائل الإعجاز – الجرجاني ص ١٣ – ٣٠.

أما أصحاب رسول الله وخلفاؤه فقد كانت مواقفهم من الـشعر والـشعراء مستمدة من مواقف الرسول ومصلحة المسلمين، وما كان أصـحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم منصرفين ولا معرضين عـن الـشعر يـروى أن الحـسن البصري سئل يوماً {أكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمزحون ؟ قال: نعم ويتقارضون من القريض وهو الشعر} فما كان أصحاب الرسول متزمتين ولا متحرجين مما يتعاطاه الناس من بليغ القول وطيب الشعر ولم يكن الإسلام ليقطـع بينهم وبين آداب الجاهلية وأشعارها ما دامت في حدود ما أباحه الإسلام وضـمن مكارم الأخلاق قال أبو سلمة: (لم يكن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم متحزقين ولا متماوتين، كانوا يتناشدون الأشعار ويذكرون أمر جاهليتهم فإذا أريد أحدهم على شئ من أمر دينه دارت حماليق عينيه كأنه مجنون) ورد هـذا الأدب المفرد للإمام البخاري.

بل وكانوا يتناشدون الأشعار على مسمع ومرأى من رسول الله صـلى الله عليه وسلم حكى جابر بن سمرة قال: (جالست رسول الله صلى الله عليه وسـلم أكثر من مائة مرة فكان أصحابه يتناشدون الأشعار في المسجد وأشياء مـن امـر الجاهلية فربما تبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم) ولم لا ألم يكـن رسـول الله

يسمع الشعر ويعجبه منه ما كان دعوة إلى مكرمة وتغنيا بفضيلة؟ ألم يعجب بقول عنترة: [1]

ولقد أبيتُ على الطوى وأظله

حتى أنالَ به كريم المأكل

حتى أنه عليه السلام قال: (ما وصف لي أعرابي قط فأحببت أن أراه إلا عنترة) وقد اقتدى به خلفاؤه الراشدون وأهتدوا بهديه ، فكانت نظرتهم للشعر نظرة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(1) أشعار الشعراء الستة الجاهليين ص ٤٦١.

المبحث الثالث

نماذج لشعر المخضرمين بعد الإسلام

وقد اخترت هذه النماذج الشعرية التي ظهر فيها اثر الأسلام واضحاً عنـد الشعراء المخضرمين واستخدمت فيها الفاظ جديدة لم تكن مألوفه من قبل كالصوم والصلاة والركوع والسجود والقيام وتبدلت معاني جديدة بصور مختلفة يحدها حد وتقيدها تعاليم جليلة ومنها:

يقول الحطيئة في أن من يعمل الخير يجازى بمثله :

من يفعل الخير لا يعدم جوازيه

لا يذهب العرفُ بين الله والناس

ويستبدل الشاعر مؤيد بن عدي القرآن كتاب الله بالشعر فيقول[1]

تركتُ الشعر واستبدلتُ منه

إذا داعي منادي الصبـــج قاما

كتاب الله ليس له شريك

وودعـتُ المدامـــةَ والندامى

---

[1] المصدر: الأمالي: ١ / ٢٠٥ والإصابة: ٢/ ١١٦: (١-٢) و٣ / ١٠٤: (١-٢) والمستطرف: ٢٦١: (١-٢).

ال)نسبة: ١- في الأمالي والإصابة في الرواية الأولى لسويد بن عدي الطائي ٢ – في الإصابة: الرواية الثانية: لعدي بن عمر بن سويد الطائي ٣. وفي المستطرف للأعرج الطائي.

الترجمة: سويد بن عدي الطائي. شاعر مخضرم كان كثير الشعر أسلم وتعبد وترك الشعر وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية الإصابة: ٢ / ١١٦.

المناسبة: أسلم هذا الشيخ إسلاما عميقا، ودرس القرآن، وهو شاعر فوجم لهذا البيان العالي فتعبد الله وهجر الشعر.

الرواية: في الإصابة: إذا داعي صلاة الصبح قاما.

ويقارن بشار بن عدي بين الأمس واليوم فيقول :[١]

تركت الشعر واستبدلت منه

كتـ ـاب الله ليس له شريك

وودعت المدامة والندامى

إذا دعى منادي الصبح ديك

وابن جبلة الكلبي يقول في الكرت والأوثان[٢]

أجبتُ رسول الله اذ جاء بالهدى

وأصبحتُ بعد الجحد بالله أوجرا

وودعتُ لذّات اللقاح وقد أُرى

بها سدكا عمري وللهو أصورا

وآمنتُ بالله العلي مكانـ ـه

وأصبحتُ للأوثان ماعشت منكرا

ويقارن مازن بن العضوية بين الماضي والحاضر فيقول:[٣]

([1]) المصدر: الإصابة: ١ /١٧٤.

الترجمة: بشار بن عدي الطائي. شاعر مخضرم الإصابة: ١ /١٧٤.

الغريب: داعي: جاوب ، والبيتان كما يبدو تحوير للأبيات السابقة.

([2]) المصدر: الطبقات الكبرى: ١ / ٣٣٤. والإصابة: ٢ /٤٢١: (١- ٣). الترجمة: عبد عمرو بن جبلة أو جبل الكلبي. مسلم له صحبة وفد على النبي وأسلم. ويبدو أن اسمه في الإسلام غير عبج عمرو لأن النبي عليه السلام لم يقر اسماً كهذا. الإصابة: ٤٢١/٢.

الغريب: (١) أوجر: خائف من وجر يؤجر فهو أوجر سدكا مولعا أصواراً: مائلا ومقبلا. الرواية: (١) في الإصابة: أوقرا. (٢) في الإصابة: وودعت كذاب اللقاح. ولعل أُرب إلى الصواب: لذات القداح. (٣) في الإصابة وأصبحت للأديان.

([3]) المصدر: الاستيعاب : ٣ / ٤٤٧. والبداية: ٢ / ٣٣٨: (١-٣). التسمية: سماء في الإصابة: مازن بن الغضوبة. وسماء في البداية: مازن بن الغضوب.

المناسبة: قال مازن القصيدة التي منها هذه المقطوعة والمقطوعة الماضية "٧٦" يوم وفد على النبي عليه السلام ليعلن إسلامه.

الغريب: (١) آذن: أعلم، النهج: الطريق الواضح. الرواية: في البداية: بالخمر واللهو مولعاً.

وكنتُ أمرأ باللهو والخمر مولعاً

شبابي إلى أن آذن الجسم بالنهج

فبدلني بالخمر خوفاً وخشيــةً

وبالعهر إحصاناً فحصن لي فرجي

فأصبحتُ همي في الجهاد ونيتي

فلله ما صومي ولله مــــا حجي

ويفرق العباس بن مرداس بين الكافر والمؤمن ولايريد إخاء بينهم فيقول:[١]

نذود أخانا عن أخينا ولو نرى

مصالاً لكنا الأقربين نتابــــع

ولكن دين الله دين محمد

رضينا به فيه الهدى والشرائع

أقام به بعد الضلالة أمرنا

وليس لأمر حمه الله دافــــع

ويوازن ابن ثابت بين الحرب والسلم[٢]

أما قريش فإني لن أسالمهـم

حتى ينيبوا من الغيات للرشد

(1) المصدر: ابن هشام: ٢ /٢٩٦. والبداية: ٤ /٣٤١: (١-٣) والاستيعاب: ٢ / ٢٠٠: (١). المناسبة: جاهد بنو سليم وشاعرهم عباس يوم حنين في الصف الإسلامي، لأنهم مسلمون، وكانوا يقاتلون هوازن وهوازن تجتمع وإياهم في الأواصر والأرحام، انظر المقطوعة "٢٢٨". الرواية: (١) في الروض والستيعاب: مطالا لكنا وفي الأغاني ج٤ ص ١٢١ ..

(2) المصدر: ابن هشام: ٢ /٢٢٣: وليست موجودة في الديوان الغريب: الوكد: المراد والقصد.

ويتركوا اللآت والعزى بمعزلة

ويسجدوا كلهم للواحد الصمد

ويشهدوا أن ما قال الرسول لهم

حقٌ ويوفوا بعهد الله الوكد

والحطئية يدعو إلي إخوة المسلمين قائلاً:[١]

ألم أكُ نائياً فدعوتموني

فجاء بي المواعد والرجاء؟

ألم أكُ مسلماً فيكون بيني

وبينكم المودةُ والإخاء؟

ويقول رجل من خزيمة لولا الله ولولا دين محمد لحدث ما حدث لنا : [٢]

جزى الله عنا مدلجاً حيث أصبحت

جزاءة بؤسي حيث سارت وحلت

أقاموا على أقضاضنا يقسمونها

وقد نهلت فينا الرماح وعلت

فوالله لولا دين آل محمد لقد

هربت منهم خيول فشلت

([1]) المصدر: ديوان الحطيئة: ٩٨، وشرح شواهد المغنى: ٢ / ٩٥٠: (١-٢). المناسبة: ساء الحطيئة سوء معاملة زوجة الزبرقان له، واحتقارها إياه فذهب يقرع الزبرقان على ذلك. الرواية: (٢) في شرح الشواهد: ألم جاركم ويكون بيتي.

([2]) المصدر: ابن هشام: ٢/ ٢٨٥.المناسبة: غزا خالد بن الوليد في سرية بني جذيمة فاستسلموا لأنهم مسلمون. ولكنه ضرب أعناق قوم منهم على أنهم كفرة.

ويقول إعرابي يهدد الخليفة[١]

يا عمر الخير جزيت الجنة

أكس بنياتي وأمهنـ ـه

فقال عمر: فإن لم أفعل، فقال:

أقسمت بالله لتفعلنـ ـ ـه

ذن أبا حفص لأذهبنـه

فقال: فإذا ذهبت ماذا يكون؟ فقال

يكون عن حالي لتسألنه

يوم يكون الأعطيات هنه

إما إلى نار وإمـ ـا جنة

وأبي احمد بن جحش يؤجل خصومة مع آخر فيقول له: [٢]

دار بن عمك بعتها

تقضي بها عنك الغرامة

فاذهب بها اذهب بها

طوقتها طوق الحمامة

([1]) المصدر: سيرة عمر: ١٦٦. **المناسبة**: وفد هذا الاعرابي على عمر طالبا المعروف والصدقة فكان له هذا الحديث. ويروى أن عمر بكى لما سمع حتى اخضلت لحيته وكساه وأهله. **الغريب**: (٥) الهاء في آخر هذا البيت وفي الرابع والثاني: هاء السكت.

([2]) المصدر: الروض الأنف: ٢ /١٤. وابن هشام: ٢ /١٤: (١-٣). **المناسبة:** لما هاجر أبو احمد مع من هاجر عدا علـى داره بمكة أبو سفيان بن حرب وباعها. ويوم الفتح عاد أبو أحمد مطالباً بها وكره الرسول بحث شئ ذهب في ذات الله. فأوعد أبو أحمد أبا سفيان يوم القيامة.. (٣) إشارة إلى الحديث: من اغتصب شبر أرض ظلما طوقه من سبع أرضين يوم القيامة...

والوليد بن الوليد بن المغيرة يقول في الاحتساب والصبر:[١]

هل أنت إلا إصبع دميت؟

وفي سبيل الله ما لقيت

وهذا إعرابي:

أقسم بالله أبو حفص عمر

ما مسها من نقب ولا دبر

فاغفر له اللهم إن كان فجر

ويقول تميم بن مقبل مترفعاً :[٢]

لولا الحياء ولولا الدين عبتكما

ببعض ما فيكما إذ عبتما عوري

قد قلتما لي قول لا أبالكما

فيه حديث على ما كان من قصر

وسحيم عبد بن الحسحاس يودع صبابات الجهل قائلاً:[٣]

([1]) **المصدر:** ابن هشام: ١ / ٢٨٩. والروض الأنف: ٢ /٢٣٥: (١-٢) وزاد المعاد ١ /٨٨. (١-٢) وصفوة الـصفوة: ١ /١٩٣: (١-٢) والبداية: ٣ /١٨٠: (١-٢). و ٣ / ١٧٣: (١-٣). والطبقات الكبـرى: ٤ / ١٣٤: (١-٢). والإصـابة: ٥٦/١: (١-٢). والاستيعاب: ٣ /٥٩٣: (١-٢).
النسبة: ١ – في ابن هشام ورواية البداية الثانية والطبقات والاستيعاب للوليد. ٢ – في الصفوة لعبد الله بن رواحة قالها يوم مؤتة. ضمن الأرجوزة الصغيرة التي مطلعها: يا نفس ان لا تقتلي تموتي. ٣ – في الاصابة ورواية البداية الأولى: لأبي بكر يوم الغـر. **المناسبة:** كان الوليد مهاجراً من مكة إلى المدينة فعثر وهو في الطريق فانقطعت اصبعه. فربطها وأنشد.. وحمل نفسه حتى المدينة ومات بها متأثراً بتلك الجراحة. **الرواية:** (١) في البداية: في الرواية الأولى: إن أنت

([2]) **المصدر:** ديوان تميم بن مقبل: ٧٦. والشعر والشعراء: ١ / ٤٢٧: (١-٢). **المناسبة:** مر تميم بشخـصين فـساباه ونبـزاه بعوره فغض طرفه وقال.

([3]) المصر: ديوان سحيم: ١٦. وخزانة الأدب: ١ / ٢٤٣. والبيان والتبيين: ١ /٧١. والطبقات الكبرى: ١ /٣٨٢: الشطر الثاني. والاصابة: ٢ /١٠٨. وشواهد المغنى. ٣٢٥.

عميرة ودع إن تجهزت غاديا

كفى الشيب والإسلام اللمرء ناهيا

وسماحة الأسلام في عفة فضلة بن عمير الليثي:[١]

قالت: هلم إلى الحديث فقلت: لا

يأبى علـ ـ ـي الله والإسـ ـ ـلام

لو ما رأيت محمـ ـ ـداً وقبيلـ ـه

بالفتح يوم تكسـ ـر الأصنـ ـ ـام

لرأيت دين الله أصبـ ـح بيننـ ـا

والشرك يغشى وجهه الإظـ ـ ـلام

صوم حبيب[٢] للعباس بن مرداس

حبيبة ألوت بها غربـ ـةُ النـ ـدى

لبين فهل ماض من العيش راجـ ـع؟

([1]) المصدر: شفاء الغرام: ٢ / ١٢٣، و ٢ / ١٥٩، (١-٣) ١٦٠ و ٢ / ٢٨٠: (١-٣). والأصنام: ٣١: (١-٣) وأخبار مكة: ٧١: (٢-٣) والبداية: ٤ / ٣٠٨: (١-٣) والاصابة: ٣ /٢٠٢: (٢-٣) وتاريخ ابن الرودي: ١ / ١٣٠: (٢-٣). **النسبة:** ١- الأبيات كما في أغلب الروايات لفضالة ابن عمير الليثي ، ٢- وقد نسبها في رواية الشفاء الثانية ولأصنام لراشد بن عبد ريه السلمي، وقد سبقت ترجمته في أول المجموع. **الترجمة:** فضالة بن عمير الليثي صحابي أسلم يوم الفتح، وكان قد أتى ليفتك بالنبي فهداه الله فانتهى وآمن الاصابة : ٣٠ /٢٠٢. **المناسبة:** كان لهذا الشاعر- كما يبدو – علاقة غرام بامرأة أيام الجاهلية فرأته يوم الفتح بعد أن فتح الله على قلبه فقالت: هلم .. فأبى. وقال.. **الرواية:** (١) في البداية: يأبى عليك الله وفي الأصنام يأبى الإله عليك (٢) في رواية الشفاء الثانية: لو ما شهدت في أخبار مكة والأصنام والبداية: أو ما رأيت في رواية الشفاء الثالثة: محمدا وجنوده وفي الأصنام: حين تكسر الأصنام وفي الاصابة : في الفتح (٣١) في الأصنام وتاريخ ابن الوردي: لرأيت نور الله وفي الاصابة لرأيت رسول الله أصلح. وفي أخبار مكة: أصبح بيننا: وفي البداية: أضحى بيننا وفي رواية الشفاء الثانية: أضحى ساطعاً...

([2]) المصدر: ابن هشام: ٢ / ٢٩٦. والبداية ٤ /٣٤١: (١-٢). المناسبة: أسلم عباس وحارب في حنـ ـين وودع صـ ـباباته ولهـ ـو الجاهلية، والأحباء المشركين والمقطوعة هذه والمقطوعة "٢٢٨" والمقطوعة "٣٦٨" من قصيدة واحدة والبيت الثاني مذكوراً أيـ ـضاً في المقطوعة "٢٢٨".

فإن تبتغي الكفار غيـــر ملومـــة

فإنـــي وزيـــر للنبـــي وتابـــع

وضرار بن .الأزور.يقول لا أعشق كافرة[1]

فإن تبتغي الكفار غير مليمـــة

جنـــوب فإنـــي تابـــع الدين مسلم

والنضر بن حجاج يبين أن الكرم ومصاحبة الكرام والصلاة والصيام هي مانعة ومنجيه من الظنون [2]

ظننتَ بي الظن الذي ليس بعده

بقاء فمالي فـــي النـــدى كـــلام

ويمنعني ممـــا تظن تكرمي

وآبـــاء صـــدق سالفون كـــرام

ويمنعها مما تظن صلاتُهـــا

وحال لهـــا في قومهـــا وصيـــــام

فهذان حالانا فهل أنت راجعي

فقـــد جب منـــي كاهـــلٌ وسنـــام

(1) المصدر: الطبري: ٢ / ٥١٦. والبداية: ٦ / ٣٢٦. المناسبة: حارب ضرار يوم اليمامة وجاهد وهو يـودع ويقطـع صـلته بحبيبته أو زوجته الكافرة.

(2) المصدر: سيرة عمر: ٧٤. ٧٥. وذيل الأوراق: ١ / ٣١٨: (١-٤): الروايات: (١) في الذيل: ومالي جرمة فألام. المناسبة: طاف عمر كعادته بالمدينة ليلاً فسمع امرأة تنشد قصيدتها هل من سبيل إلى الخمر فأشربها؟ أم هل إلى سبيل إلى نـضر بـن حجاج. فلما أصبح قال: لا أرى رجلاً يساكنني تهتف به العواتق وغربه إلى العراق، فبرح الشوق بنصر إلى مرابعه وحن اليها فأرسل هذه المقطوعة يستعطف الخليفة الغريب: (٤ جب: قطع. الرواية: في الذيل ومالي جرمة فألام. (٣) في الذيل: فيمنعني مما تظن.. وحال (٤) في الذيل. فهاتان حالان فهل أنت راجعي. (٥) في الأصل: وزمام

إمام الهدى لا تبتلي الطرد مسلماً له

حرمــــةُ معروفـــة و ذمـــام

وامرأة من نجد تجعل مخافة الله ناجية لها من ارتكاب المعاصي: [١]

تطاول هذا الليل تسري كواكبه

وأرقني ألا ضجيع ُألاعبــه

سرى به من كان يلهو بقربه

لطيفُ الحشا لا تجتويه أقاربه

فوالله لولا الله لا شئ غيره

لينقض من هذا السرير جوانبه

ولكنني أخشى رقيباً موكـلاً

بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبــه

مخافةُ ربي والحياء يصدني

وأكرم بعلي أن تنال مراكبــه

ويقول ربيعة بن مقروم لاطيرة بعد أن اصبح الله هو مرشدي:[٢]

([1]) المصدر: سيرة عمر: ٧١: والخامس من شرح النهج وشرح النهج: ٣ / ١٦٠: (١-٣-٥) وتاريخ الخلفاء ٩٥: (١-٣-٤) و ٩٦: (١-٣) ومحاضرات الراغب: ٢ / ١٥٧: (١-٣) وأمالي اليزيدي ٩٩: (١-٣). المناسبة: كانت امرأة من زوجات الجنـد المحاربين في التخوم أرقت في إحدى الليالي وقد برح بها بعاد زوجها بالمدينة – تنشد هذا النشيد وقد كان بأذني الاس عمـر وبسببها أمر أن لا يتأخر الجند عن زوجاتهم أكثر من أربعة أشهر.الغريب: (٢) لا تجتويه: لا تكرهه. الرواية: (١) في شـرح النهج: وليس إلى جنبي خليل (١) في سيرة عمر في رواية ثانية: هذا الليل واخضل جانبه وفي الأمالي وتاريخ الخلفـاء فـي رواية أخرى: وأسود جانبه، في الأمالي: وغاب خليل كنت مما ألاعبه = ألاعبه. (٣) في شرح النهج لزعزع وفي رواية لتاريخ الخلفاء: لزحزح: في تاريخ الخلفاء: لو لا الله نخشى عواقبه... وفي رواية أخـرى فلـو لا حـذار الله لا شـئ قبلـه، وفـي المحاضرات: فوالله لو لا الله والعار بعده: حرك: في الأمالي: تحرك.

(2) المصدر: حماسة البحتري: ١٥٧ الترجمة: ربيعة بن مقروم الضبي. أحد شعراء مضر في الجاهلية والإسلام شـاعر مجيـد محكم الشعر جزل التركيب أسلم إسلاماً حسنا وجاهد في الفتوح وعاش قرنا من الزمان، الاصابة: ١ / ٥١١، والشعر والشعراء ١ / ٢٧٩. والأغاني: ٢٢/ ٨٧. الغريب: (٢) السانح: مايتيامن ضد البارح: وهو ما يتشاؤم منه والناعب: الغراب.

أصبح ربي في الأمر يرشدني

إذا نويتُ المسيـ ـر والطلبـا

لا سانح من سوانح الطير يث

نيني ولا ناعـ ـ ـب إذا نعبـا

ويقول عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى الخوف من الذنوب(١)

وأوعدني كعب ثلاثاً أعدهـ ـا

ولا شك أن القول ما قال لي كعب

وما بي حذار الموت إني لميت

ولكن حذار الذنب يتبعـ ـه الذنب

ويقول أيضاً يشكو من التقصير(٢)

ظلوم لنفسي غير أني مسلم

أصلي الصلاة كلهـ ـا وأصـ ـوم

يقول الأخدع الهمداني أنه يخاف الله فلذلك يقوم فزعاً وخوفاً من الله(٣)

إذا ما تنادوا للصلاة وجدتني

بفزع من خـ ـوف الإله جنانيـ ـا

---

(1) المصدر: الطبري: ٣ / ٢٦٥. والعمدة: ١ / ٣٢: (١-٢) المناسبة: تقول الروايات أن كعب الأحبار – العالم السيهودي الذي أسلم أنذر عمر بأن أجله آت بعد ثلاث ليال وكان ما قال سواء كان ذلك علما نفسيا وحدسا أو عن علم من كعب بمقتله وتدبير لـه. الرواية:

(١) في العمدة: توعدني كعب. (٢) في العمدة: وكان خوف الذنب.

(2) **المصدر:** ابن الأثير: ٣ / ٢٨. والاستيعاب: ٢ / ٤٦٥. **المناسبة:** قال هذا لبيت عمر يوم احتضر. ابن الأثير: ٢٨/٣.

(3) المصدر: المؤتلف والمختلف.

يقول عثمان بن عفان رضي الله عنه :

لا خير في لذة ... بعدها نار

تفنى اللذاذةُ ممن نال صفوتهـ ـ ـا

من الحرام ويبقى الإثـ ـم والعـ ـار

ذكريات عابدة لعثامة زوجة أبي الدرداء:

عثام مالك لاهية حلت بدارك داهية

إبكي الصلاة لوقتها إن كنت يوما باكية

وابكي القرآن إذا تلي قد كنت يوماً تاليه

تتلينه بتفكر ودمـ ـوع عينك جارية

فاليوم لا تتلينه إلا وعندك تاليـ ـ ـة

لهفي عليك صبابة ما عشت طول حياتيه

والحطئية يرى أن السعادة فى تقوى الله يقول :

ولست أرى السعادةَ جمع مـ ـال

ولكـ ـن التقـي هـ ـو السعيـ ـ ـ ـد

وتقوى الله خير الـ ـزاد ذخـ ـراً

وعنـ ـ ـد الله للأتقـ ـ ـى مزيـ ـ ـ ـد

ومالا لابـ ـد أن يأتـ ـ ـ ـي قريب

ولكـ ـن الـ ـذي يمضـ ـي بعيـ ـ ـد

وروى المفضل الضبى في المفضليات قصيدتين للشاعر عبدة بـن طبيـب تجلت فيهما آثار الإسلام، ومن المعاني الإسلامية فيها قوله :

نرجو فواضل رب سيبه حسن

وكل خيــر لديــه فهو مقبــول

رب حبانا بأموال مخولـة

وكــل شئ حبـاه الله تخويـل

وكان عمر بن الخطاب وهومن المعرفة بالشعر بالمكان الـذي لا ينكـر كثيراً ما يكرر هذا المقطع (والعيش شح واشفاقٌ وتأميل).

القصيدة الثانية هي، والنزعةالدينية واضحة فيها فقد أنشأها يوصي أبنـاءه بتقوى الله، وبر الوالد، والاتحاد وترك التنابذ، مطلعها[1]:

أبني إني قد كبرت ورابني

بصـري وفي لمصلح مستمتع

ومما أوصي به بنيه قوله [2]:

أوصيكم بتقي الإله فإنــه

يعطي الرغائب من يشاء ويمنع

وببر والدكم وطاعة أمـره

إن الأبر من البنين الأطــوع

---

(1) شرح اختيار المفضل ص ١٤٥ – ١٤٦.

(2) السابق – ص ١٤٧ – ١٤٨ العزة: الصعبة، الخصم:الخصوم، ظلفاته: خشبات تلى البعير من الخاف يقول:انه قام بأمر عنى واشتد به وهذا من شدةرأيه وتحذيقه للامور.

إن الكبير إذا عصاه أهلـه

ضاقت يداه بأمره ما يصنـ ـع

وافتخر بحسن رأيه في المعضلات وغلبته الخصوم:

وثنية من أمر قومٍ عـ ـ ـزةٍ

فرجت يداي فكان فيها المطلع

ومقام خصم قائم ظلفاتـ ـه

مـ ـن زل طار له ثناء أشنـ ـع

أصدرتهم فيه أقوم دراهم

عض الثقاف[1] وهم ظماء جوع

وختمها بأن صور يومه الأخير وذكر البكاء والقبر.

لقد علمت بأن قصري حفرة

غبراء يحملني إليها شرجـ ـع

فبكي بناتي شجوهن وزوجتي

والأقربون إلي ثـ ـم تصدعـ ـوا

وتُركْتُ في غبراء يكره وردها

تسفي علي الريح حين أودع [2]

رأينا فيما تقدم ما كان للجاهليين من حضارة وفكر، وعقائد، ومثل عامـ ـة، وصفات كريمة. ورأينا أن الاسلام جاء دعوة وثورة، قلبت المفـ ـاهيم الـ ـسائدة،

---

(1) الثقاف : ما تقوم به الرماح .

(2) المفضليات – ص١٤٨ ، قصر : آخر أمره ، شرجع : خشب يحمل به الموتى ، الشجو : الحزن، تصدعوا : تفرقوا.

وغيرت المثل الرديئة الضارة، وأقام مكان كل ذلك عقيدة وسلوكاً ونظام حيـاة .

وقد التقي التراث الجاهلي التليد بالتراث الإسلامي الطريف وامتزج كل منهما في الآخر، وتأثر بعضه ببعض، عرفنا كيف أثر ذلك الامتزاج فـي نفـوس العـرب وسلوكهم.

الخــاتــمــة

بعد هذه الدراسة والانتقاء الدقيق للنصوص الشعرية التى صورت القيم لأخلاقيـة فـي العصر الجاهلي والتى تقصيت فيها احوال المجتمع الجاهلي، مـن خـلال هـذه القـيم خرجت بنتائج هامة تمثلت فى :

* ان انتماء الشاعر بالقبيلة وصلته بها جعله سلك مسلكين اولهما الانتماء الفاعل الـذى يرتبط بالصفات الحميدة من حسب شريف ماجد ونسب اصيل فيه كرم وشرف وعفـة وعزة ومروءة ووفاء واقدام وشجاعة واخاء وكثرة واجارة ونجـدة وفخـر بـالحلم والسيادة ودعوة الى الثأر والى السلم والمساواة والعدل.

ولكن هذا لا ينزع علاقته بالصفات المذمومة كالكذب والنفاق والغش والخيانة والظلـم والفقر والاغتراب والبخل.

*إن العربي الجاهلي على اختلافه يظل متوافق لاتفاق الجوهر الاصيل المتمثـل فـي انتماءه الى جذر واحد وارض واحده ومقدسات واحده وعى ضوء ماتقدم ذكره اتبعنـا هذا فى اشعارهم التى تحمل طبيعتها اللغوية والايحائية والشعر هوقيثارته التى تـزدان كلما حلوا وارتحلوا.

اشتملت الدراسة على مقدمة وخمسة فصول وفروعها المباحث تناولت فـي مجملها حياة العرب في العصر الجاهلي والأوضاع الثقافية والاجتماعية والدينيـة والاقتصادية. ثم تضمنت الدراسة تقسيم هذه القيم الفاضـلة الاخلاقيـة الجميلـة وتصويرها في أشعارهم الجميلة الذي يمثل مرآة الأحداث جميعا.

المصـادر والمراجـع

١- القران الكريم

٢- د. أحمد أمين الأخلاق الطبعة الثالثة القاهرة ١٩٣١م مطبعة دار الكتب المصرية

٣- ابن منظور– لسان العرب دار صادر بيروت للطباعة والنشر – طبعة جديدة ومحققة ج5 لبنان ص.ب ١٠د بيروت.

٣- ابن فارس مقاييس اللغة (ابو الحسن احمد بن فارس بن زكريا الرازي اللغوى)- ج٢ - تحقيق عبدالسلام محمد هارون

٤- الراغب الأصفهاني- المفردات- اعداد الدكتور نظمي خليل ابو العطا.

٥- الطاهر بن عاشور- تفسير التحرير والتنوير- ج١٩.

٦- أبو هلال العسكري – الفروق في اللغة - منشورات دار الآفاق الجديدة بيروت ١٩٨٠م.

٧- التهانوي – محمد علي كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم - مكتبة لبنـان شرق بيروت ١٩٩٦م ط١.

٨- الدكتور محمد عابد الجابر - العقل الأخلاقي العربي – مركـز دراسـات الوحدة العربية – دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافـة العربيـة ط١ ٢٠٠١م.

٩- توفيق الطويل – فلسفة الأخلاق - دار الثقافة للنشر والتوزيع – الفجالـة – القاهرة ط٤ ١٩٨٥.

١٠- سليم ساكت المعاني – وكالة الأنباء الأردنية – المجلة الثقافية تصدر عن الجامعة الأردنية – العددان الرابـع عـشر والخـامس عـشر ١٩٨٨م – ١٤٠٨هـ - الأخلاق عند أرسطو وأفلاطون.

١١- ابن أبي أصيبعة –

١٢- سارت جورج – تاريخ العلم – ترجمة حداد وآخرين – دار المعـارف القاهرة ١٩٥٩م ج٢.

١٣- عبد الرحمن بدوي – دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب المؤسسة العربية للدراسات والنشر بيروت ١٩٨١م.

١٤- جالينوس – الأخلاق – فلوجل.

١٥- البيهقي – السنن الكبرى – كتاب الشهادات – ج١٠ تحقيق محمد عبـد القادر عطا – ط٣ بيروت دار الكتب العلمية ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٦- الغزالي – الإمام أبي حامد بن الغزالي – إحياء علوم الـدين – مكتبـة ومطبعة المشهد الحسيني – القاهرة ج٣.

١٧- ابن مسكويه – تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق- دار مكتبة الحياة تقديم حسن تميم ط٢ ١٩٨٩م.

١٨- المجمل في تاريخ الأدب العربي - طه حسين – أحمـد الأسـكندري – علي الجارم - أحمد أمين – عبد العزيز البشرى وأحمد ضيف] المطبعـة المصرية القاهرة ١٩٣٥م.

١٩- أبو الفرج الأصفهاني – الأغاني ج١٠ دار صادر بيروت - تحقيـق د. أحسان عباس.

٢٠- موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي ج١ ابوشامه المغربي.

٢١- ديوان تأبط شراً – دار صادر بيروت – طلال حرب.

٢٢- عمر فروج – تاريخ الأدب العربـي ج١ دار العلـم للملايـين ص.ب ١٠٨٥.

٢٣- الدكتور حسين جمعة – مجلة الآفاق الثقافية والتراث - العدد ١١ السنة الثالثة الدوحة – جامعة قطر.

٢٤- ابن قتيبية الشعر والشعراء- شرح وتحقيق احمد محمد شـاكر ج١وج٢ دار الحديث القاهرة.

٢٥- ابن رشيق (ابوعلى الحسن بن رشـيق القيروانـي) – العمـدة فـى محاسنالشعر ج٢.

٢٦- الأعلم الشمنتري – أشعار الشعراء الستة الجاهليين – دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

٢٧- أبي الفرج الأصفهاني - الأغاني ج١٢ – دار صادر بيروت.

٢٨- أمجد الطرابلسي – نظرة تاريخية في حركة التأليف عند العرب ج١ الجامعة السورية – ١٩٥٦م.

٢٩- ابن عبد ربه – العقد الفريد ج١- شرح وضبط وتصحيح أحمد أمين صادر [أحمد الزين وإبراهيم الأبياري – القاهرة].

٣٠- ديوان زهير – دار صادر بيروت – لجنة التأليف والترجمة والنشر١٩٤٨م.

٣١- نور القيسي - تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام – دار الحرية بغداد.

٣٢- ديوانا عروة ابن الورد والسمؤال بن عاديا- دار صادر بيروت للطباعة والنشر ١٩٦٤م.

٣٣- ديوان حاتم الطائي – دار صادر بيروت.

٣٤- ابن منظور – لسان العرب – ج١٢ دار صادر بيروت د.ت.

٣٥- السيد محمد مرتضى الزبيدي – تاج العروس ج٩- تحقيق د. مهدي المخزومي ود. إبراهيم السمراني.

٣٦- الراغب الأصفهاني – محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء ج١ مكتبة الحياة بيروت.

٣٧-الحماسة – أبي تمام – شرح الأعلام الشنمتري ج٢ تحقيق د. علي المفضل حمودان - - مركز جمعة الماجد دبي ط١ ١٩٩٢م.

٣٨- مختصر شرح التبريزي – الحماسة ج١ – أمـين عبـدالعزيز ١٩٩٥م مطبعة محمد علي صبيح بمصر.

٣٩- الجاحظ- الحيوان تحقيق يحيى الشامي- دار مكتبةالهلال ط١ ١٩٨٦م.

٤٠- الجاحظ – البيان والتبيين ج١.

٤١- الحوفي – الحياة العربية.

٤٢- أعشى قيس ديوان – دار صادر بيروت ١٩٩٦م.

٤٣- ديوان طرفه – دار صادر بيروت ١٩٦١م تقديم كرم البستاني.

٤٤- ديوان لبيد – دار صادر بيروت.

٤٥- محمد مبروك نافع – عصر ما قبل الإسلام – طبعة القاهرة ١٩٨٤م.

٤٦- الأغاني – ج٣ دار الثقافة بيروت ١٩٦٥م.

٤٧- أبو حاتم السجستاني – المعمرون والوصايا – تحقيق عبد المنعم عـامر دار إحياء الكتب العربية – بمصر ١٩٦١م.

٤٨- ديوان حاتم – تحقيق وشرح – حسين نصار – شركة ومكتبة مـصطفى البابي الحلبي.

٤٩- ديوان حسان بن ثابت – ضبط وتصحيح عبد الـ رحمن البرقـ وقي- دار الأندلس للطباعة والنشر بيروت ١٩٨٧م.

٥٠- شرح أشعار الهزليين – للسكري ج١ ج٢ - صنعة أبي سـعيد الحـسن السكري تحقيق عبد الستار أحمد فراج]

٥١- ديوان الخنساء – دار صادر بيروت تقديم كرم البستاني - راجعه محمود حمد شاكر ج١ مكتبة دار العروبة القاهرة.

٥٢- ديوان تميم بن ابى مقبـل- شـ رحمجيدطراد بيـ روت دار الجيـل ط١ ١٩٩٨م.

٥٣- الزوزني – شرح المعلقات السبع

٥٤- ديوان طرفة – دار بيروت للطباعةوالنشر ١٩٧٩م.

٥٥- ديوان الأعشى.

٥٦- ديوان النابغة – تحقيق وشرح كرم البستاني دار صادر للطباعة والنشر ١٩٦٠- ١٣٧٩هـ.

٥٧- الأغاني ج١٧ دار الكتب العلمية بيروت شرح الأستاذ عيد علي مهنا ط٢ ١٩٩٢م.

٥٨- محمود شاكر الالوسى بلوغ الأرب في معرفةاحوال العرب ج١ – تحقيق محمد بهجة الأثري – الناشر دار الكتب العلمية.

٥٩- ابن عبد ربه – العقد الفريد – تحقيق محمد سعيد العريان – دار الفكـر العربي ج ٣+٢.

٦٠- العلامة عبدالرحمن بن محمدبن خلدون - مقدمة بن خلدون-دار الجيـل بيروت.

٦١- ديوان عنتر بن شداد – شرح د. يوسف عيد – دار الجيل.

٦٢- الأصمعيات – مجيد طراد – دار الفكر العربي.

٦٣- ديوان الحارث وعمر بن كلثوم – شرح مجيد طراد – ط١ دار الجيـل بيروت١٩٩٨م.

٦٤- لويس شيخو – شعراء النصرانية ج١ لبنان بيروت ١٩٩٩م .

٦٥- المجاني الحديثة – المطبعة الكاثوليكية – بيروت- شرح لجنةمنالاسـاتذة ١٩٨٢م.

٦٦- ابى الفرج الاصفهاني- الأغاني – مطبعة دار الشعب.

٦٧- بطرس البستاني – أدباء العرب في الجاهلة وصدر الإسلام ج١ ط١ دار الثقافة .

٦٨- عبد الستار السطوحي – الحكمة في الشعر العربي – دار الاعتصام.

٦٩- الحماسة المغربية – تحقيق د. محمد رضوان الداية.

٧٠- ديوان زهير – شرح الأعلم الشنمتري.

٧١- ديوان امرئ القيس- تحقيق محمد ابوالفضل ابراهيم – دار المعارف مصر ١٩٥٨م.

٧٢- ديوان عنترة – الخطيب التبريزي – بيروت ط١ ١٤١٥ -١٩٩٤م.

٧٣- ديوان عروة – بيروت الطبعة الأولى ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

٧٤-أبي تمام – حبيب بن أوس الطائي – الحماسة – تحقيق عبد الله عبد الرحيم عبد الله سنة ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٧٥- ديوان عمر بن قميئة – شرح وتحقيق كامل الصيرفي ٣٨٥هـ - ١٩٦٥م.

٧٦- أنور أبو سليم – مظاهر في الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي دار عمار ١٩٩١م.

٧٧- ديوان قيس بن الخطيم – عن بن السكيت وغيره حققه وعلق عليه ناصر الدين الأسد – مكتبة دار العروبة القاهرة ط١ ١٣٨١هـ - ١٩٦٢م.

٧٨- ديوان أبو الأسود ا لدؤلي – تحقيق الشيخ محمد الحسن مطبعة المعارف – بغداد ١٩٦٤م الطبعة الثانية.

٧٩- ديوان النابغة - تحقيق كرم البستاني دار بيروت ١٩٦٠م.

٨٠-ديوان الحطيئة

٨١- ديوان عمر بن معد كرب الزبيدي- جمعه ونسقه مطامح الطرابيشي مطبوعات مجمع اللغةالعربية دمشق ١٩٨٥م.

٨٢- ديوان عبيد بن الأبرص – دار بيروت ودار صادر للطباعة والنشر ١٣٧٧هـ - ١٩٥٨م.

٨٣- ديوان الشنفري.

٨٤-موسوعة الشعر العربي – العصر الجاهلي ج٢.

٨٥-مختارات الشعر الجاهلي.

٨٦-الأستاذ أحمد الأمين الشنقطيطي – شرح المعلقات العشر واخبار شعرائها- دار الكتب العلمية بيروت.

٨٧- ديوان أعشى همدان وأخباره - تحقيق د. حسن عيسى أبو يس – دار العلوم للطباعة والنشر – الرياض ط الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

٨٨- شوقي ضيف - العصر الجاهلي.

٨٩- ديوان عامر بن الطفيل – دار صادر بيروت ١٩٥٩م – ١٣٧٩هـ رواية أبي بكر حمد القاسم الأنباري عن أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب.

٩٠-الآمدي- المؤتلف المختلف فى اسماء الشعراء وكناهم والقابهم وانسابهم وبعض شعرهم – تصحيح وتعليق كرنكو-مكتبة القدسى القاهرة١٣٥٤ه.

٩١- الميمني- سمط اللالئ.
٩٢- الموشح – المرزباني – تحقيق علي محمد البجاوي ١٩٦٥م – دار النهضة مصر.
٩٣-الجاحظ (عمر بن بحرالجاحظ) – البيان والتبيين ج١ .
٩٤- عبدالعزيزالهيثمي - الطرائف الأدبية- مجموعةمندواوين الشعر – دار الكتب العلمية بيروت د.ت.
٩٥-سنن بن ماجه تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ط٢٢ تونسدار سحنون للطباعة والنشر ١٩٩٢م.
٩٦-الأغاني ط ساس
٩٧-ابوالفرج الاصفهاني الأغاني- عيد على مهنا وسمير جابر-بيروت دار الكتب العلمية ط٢ ١٩٩٢م.
٩٨- محمدبن أبى الخطاب القرشى - جمهرة أشعار العرب فى الجاهلية والأسلام – حققه محمد على الهاشمي دمشق دار القلم ط٢ ١٩٨٦م.
٩٩ -أبن قتيبة - عيون الأخبار – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٦٣م.
١٠٠- الحافظ نور الدين علي بن ابى بكرالهيثمي – مجمع الزوائد ومنبع الفوائد- القاهرة مكتبةالقدس ١٣٥٣ه.

١٠١-البغدادي (عبدالقادر بن عمر البغدادي) خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب- تحقيق وشرح محمد بنبيل طريفي – دار الكتب العلمية بيروت ط١ ١٩٩٨م.

١٠٢- المجلة التونسية – رسالة عن الحلم – تقديم د. الشاذلي.

١٠٣- الحماسة – المرزوقي

١٠٤- القالى (اسماعيل بن القاسم القالى) أمالي المقالي- دار الكتاب العربي بيروت.

١٠٥- ديوان المتلمس- شرح وتحقيق كامل الصيرفي ط١ القاهرة معهد المخطوطات العربية ١٩٦٨م .

106- الحسن البصري - حماسة البصرية على بن ابى الفرج - تحقيق عادل جمال سليمان – القاهرة المجلس الأعلى للشئون الأسلامية ١٩٧٨م.

107- ابن الشجري (هبة الله بن على) الحماسة الشجرية –حيدر اباد مطبعة مجلس دائرةالمعارف العثمانية ١٣٤٥.

108- الصبح المنير

109- أمالي الزجاجي

110- شوقي ضيف – النقد الأدبى دار المعارف ط5 د.ت.

111- د. شكري فيصل – تطور الغزل ط دمشق.

112- ابن هشام(عبدالملك بن هشام) – السيرة تحقيق عمر عبد السلام دار - الكتاب العربي ط٤ ١٩٩٣م.

113- تاريخ الطبري

١١٤- النويري – نهايةالأرب فى فنون الادب.

115- الشعر والشعراء – ط الحلبي

116- ديوان لبيد – دار صادر بيروت

١١٧- ٠طبقات بن سلام –

118- أبوالعلاء المعري - رسالة الغفران – تحقيق الدراسة عائشة بنت الشاطئ – ط الرابعة – ذخائر العرب.

119- الدكتور بدوى طبانة - دراسات في نقد الأدب العربي – دار الثقافة بيروت ط١ ١٩٧٤م.

120- الدكتور طه الحاجري – تاريخ النقد

121- البلاذري – فتوح البلدان.

122- تاريخ اليهود في بلاد العرب

123- ديوان كعب بن زهير – ط دار الكتب المصرية.

124- الجرجاني (عبدالقاهر الجرجاني) – دلائل الإعجاز- تحقيق محمد رشيد رضا – دار المعرفة بيروت ١٩٨١م.

125- يحيى الجبوري – الإسلام والشعر.

126- ابن حجر العسقلاني – الإصابة فى تمييزالصحابة – ج١دار الكتب العلمية بيروت د.ت.

129- ابن سعد (ابوعبدالله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البغدادي) الطبقات الكبرى – ج٤ تحقيق احسان عباس دار صادر بيروت ط١ ١٩٦٨م.

130- الاستيعاب ج٣

131- الامام البغدادي - البداية – ج٣.

132- سيرة عمر

133- ابى القاسم السهيلى - الروض الانف ج٢.

134- ابن القيم الجوزية - زاد المعاد.

135- صفوة الصفوة

136- ديوان تميم بن مقبل – مجيد طراد - بيروت دار الجيل ١٩٩٨م.

137- ديوان سحيم

138- ابن سيناء – شفاء الغرام ج٢- تحقيق احمد فؤاد الأهداني- الادارة العامة للثقافة المطبعةالاميرية ١٩٨٥م.

139- ابن الأثير – المثل السائر فى ادب الكاتب والشاعر ج٣ – تحقيق احمد الحوفى وبدوى طبانة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع د.ت.

140- ابو الحسن على بن الحسين بن على المسعودي- مروج الذهب

١٤١- ابن تيمية- الزهد والرقائق .

142- سنن ابن ماجه – تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي دار الفكر د.ت.

ABSTTRACT

The thesis handles the subject of moral values in the pre-Islamic Arabic Poetry. The reason behind choosing this subject is to remind and encourage the communities to adopt virtuous and noble values which lead to the straight track and promotion of these communities. By the pre-Islamic epoch, I mean to explain that the virtuous values are not associated to a certain time or unified religion. In fact, the Western philosophers had talked about these values before the Arabs and Muslims.

The thesis is composed of an introduction and five chapters; and that the chapters are subdivided into sections in addition to a conclusion.

Chapter one is composed of three sections, the 1st section is an introduction about moral science. The second section deals with the Western and the Arab Islamic concept of morals. The third section gives a simplified definition of the history of the Arab Peninsula.

Chapter two starts with an introduction about generosity. In the second section gives some poetic samples representing the value of generosity; and that the chapter is concluded by a section on the bravery.

Chapter three is mostly devoted to the characteristics of wisdoms and proverbs; and that its second section covers the continence, jealousy and caring for neighbours while the third section handles the kinship visiting.

Chapter four starts with the fulfilling of promises then the belief in acts of God. The third section deals with patience whereas the fourth section deals with justice and quality.

The last chapter starts with giving the opinion of the critics about the veterans. The second section is about the impact of Islam on the life of the Arabs. The third section deals with poetic samples of the veterans in the post-Islamic era.

The most important findings of this thesis is the emphasis of the significance of the role played by the morals throughout the life of the human beings regardless of their races, religions and dialects. They all are in need of the virtuous and noble moral values that secure their communities and lead them to a better life.